كتابي

حديقة الله

وكتب أخرى

حلمي مراد

٨ كتب
٨ قروش

حديقة الله

وكتب أخرى

كتب للمحرر

عندما تحب المراة (مجموعة قصص مصرية)	الناشر «كتب للجميع»
اوسكار وايلد (حياته، وفنه، ومأساته)	الناشر «البـلاغ»
قلوب تحترق أو (حذار من الشفقة) لستيفان زفايج	الناشر «روايات الهلال»
انا كارنينا لتولستوى	الناشر «روايات الهلال»
رسول القيصر (ميشيل ستروجوف) لجول فيرن	الناشر «روايات الهلال»
ذات الرداء الابيض لويلكى كولنز	الناشر «روايات الهلال»
ابنة البخيل (أوجينى جرانديه) لبلزاك	الناشر «روايات الهلال»
الفارس الخامس (ابن بورتوس) لاسكندر ديماس	الناشر «روايات الهلال»
الذئب الاغبر (مصطفى كمال)	الناشر «كتاب الهلال»
«كتابى» الاول: «خطايا الحب» وكتب اخرى	مارس سنة ١٩٥٢
«كتابى» الثانى: «قلب عذراء» وكتب اخرى	ابريل سنة ١٩٥٢
«كتابى» الثالث: «الهاربة من الجنة» وكتب اخرى	مايو سنة ١٩٥٢
«كتابى» الرابع: «حواء الجديدة» وكتب اخرى	يونيو سنة ١٩٥٢
«كتابى» الخامس: «احدب نوتردام» وكتب اخرى	يوليو سنة ١٩٥٢
«كتابى» السادس: «جريمة حب» وكتب اخرى	اغسطس سنة ١٩٥٢
«كتابى» السابع: «عشيقة نابليون» وكتب اخرى	سبتمبر سنة ١٩٥٢
«كتابى» الثامن: «مذكرات كيوبيد» وكتب اخرى	اكتوبر سنة ١٩٥٢
«كتابى» التاسع: «صنم تحطم» وكتب اخرى	نوفمبر سنة ١٩٥٢

كتابى

كتاب شهرى للقصة والثقافة الرفيعة

صاحبه ورئيس تحريره: حلمى مراد

المكاتبات: ١٨ شارع العباسيين، مصر الجديدة ـ تليفون ٦٥٦٠٨

الاشتراكات: عن ١٢ عددا: مصر والسودان: ١٠٠ قرش. سوريا ولبنان: ١١ ليرة سورية او لبنانية. الحجاز والعراق والاردن: ١١٠ قروش صاغ

الكتاب العاشر ـ ديسمبر ١٩٥٢

رمز الكتاب: مصباح الفكر عند الافريق

مطبعة شركة الاعلانات الشرقية

«كتابى» يقفز قفزة جديدة ..

عزيزى القارىء ...

يوم قدمت لك «كتابى» لاول مرة ، فى مارس الماضى ، وعدتك بان ازيدك بذلا وتفانيا ، كلما زدتنى انت تشجيعا واقبالا ..

واحسبك قد لمست فى الاعداد التى صدرت حتى الآن من «كتابى» ، اننى لم ابخل عليك بتضحية ، من مجهود او نفقات .. واننى قد احتفظت للكتاب ـ بفضل الله وفضل تقديرك الكريم الذى اعتز به ـ بمستواه الرفيع الانيق الذى ظهر به من البداية ، بل وازددت سخاء عليه ، بالجهد والمال ، عددا بعد عدد .. مسترخصا كل تضحية فى سبيل ان اظل دائما عند حسن ظنك ، واحتفظ بثقتك النبيلة التى طوقت بها عنقى من اول لحظة .. قبل ان تعرفنى !

واليوم ، وقد انقضت على ظهور كتابى تسعة اشهر ، استكمل فيها « المولود » الطور الاول من اطوار نموه الشاق المضنى ، الذى كلفنى حتى الآن عاما كاملا من السهر المتواصل ، والحدب ، والرعاية ، التى تكاد تفوق رعاية الام لوحيدها المدلل!

اليوم ، يسعدنى ان استهل الطور الثانى من اطوار نمو «كتابى» ، بطفرة جديدة اعتقد انك ستجد فيها صدى لجانب آخر من رغباتك واهدافك .. فالى جانب الكتب المطولة التى الفت ان تقراها فى (كتابى) ملخصة فى « برشامة » سهلة الهضم ، سهلة الفهم ، توفر لك وقتك .. وجهدك .. ومالك .. رايت ان اضيف ـ ابتداء من هذا العدد ـ ابوابا اخرى قصيرة ، سريعة ، تقدم لك من الوان الثقافة الذهنية والمتع الفكرية كل نافع شائق ، مما لا يدخل فى باب «الكتب» .. وهى فكرة طالما نازعتنى نفسى اليها كلما طالعت قصة قصيرة ، او فصلا ممتعا اعجبنى ، فعجزت عن تقديمه اليك فى نطاق ابواب كتابى المطولة ، لمجرد انه ليس « كتابا » بمعنى الكلمة !

أبواب كتابى القصيرة

وهكذا سوف تقرا فى هذه الابواب الجديدة القصيرة التى «تتخلل» ابواب كتابى الاصلية ، ابتداء من هذا العدد ، مجموعة منوعة ـ لا تدخل تحت حصر

اوتحديد ـ من الفصول الشائقة والقصص القصيرة ، والمقالات ، والطرائف ، والرسائل ، والمطالعات ٠٠ فى كل موضوع يمكن أن يخطر لك على بال !

وكل املى ، الذى تهون فى سبيله اية مشقة ، ان يستكمل «كتابى» بهذه الخطوة جانبا آخر من رسالته التى انشدها له ، بحيث تجد فيه على الدوام ارقى وامتع كتاب شهرى يزودك بثقافة العالم باسره ، الجديد والقديم ، وانت فى عقر دارك ٠٠ فى اقصر وقت ، وبقروش زهيدة !

برنامج يكلف غاليا ٠٠

ولست اخفى عليك ايها القارىء ان هذا البرنامج الجديد الذى اخذت نفسى به سوف يكلفنى جهودا مضاعفة ، ونفقات طائلة ، فهو يقتضينى تجنيد نفسى وعشرات غيرى لمطالعة مئات المجلات والمجلدات الاجنبية ، بكافة اللغات ، لانتقاء احسن ما فيها من مواد ، و «غربلتها» ، وتلخيصها ، وتهذيبها ٠٠ حتى تصل اليك فى النهاية « لقمة » سائغة شهية تطالعها فى دقائق !

واعترف اننى كدت انكص عن تنفيذ هذا البرنامج فى آخر لحظة ، اشفاقا على نفسى من العبء الثقيل الذى يحملنى اياه ٠٠ العبء المالى ، والذهنى !٠٠ حتى لقد اقترح على بعض من شهدوا العدة التى اعددتها لتنفيذه ، ان الجا فى سبيل مواجهة نفقاته الى رفع سعر كتابى الى عشرة قروش ، اسوة ببعض الكتب الشهرية الزميلة التى تباع بهذا السعر ، والتى تملك مطابعها الخاصة واعلاناتها ووسائلها الاخرى التى تعينها على احتمال ما اعجز انا عن احتماله من اعباء مالية ، فضلا عن ان برامج تلك الكتب وطباعتها ونوع مادتها لا تتكلف بعض ما يكلفنى اياه «كتابى» !٠٠

لكنى ابيت الاستماع الى هذه النصيحة ، ورفضت هذا الاقتراح ٠٠ ورايت بدلا من تحميلك هذه الزيادة فى السعر ـ رغم ضآلتها ـ ان اطالبك فى مقابل هذا المجهود الجديد المضاعف الذى ابذله لك ، بشىء واحد : هو ان تكون عونا لى على مواصلة النهوض برسالة كتابى ، فتجند نفسك لنشر الدعوة للكتاب فى الاوساط التى ماتزال تجهل كل شىء عنه ، بل تجهل حتى وجوده !

مايزالون يجهلون وجوده !

ذلك انى اتلقى كل يوم رسائل جديدة من اشخاص لم يسمعوا بصدور الكتاب الا ابتداء من العدد الثامن ، او التاسع ، وهكذا !٠٠ بل ان بعضهم يلومنى

«لتقصيرى» فى لفت نظره اليه من قبل ، بالاعلان عنه فى مختلف الصحف والمجلات اليومية والاسبوعية ٠٠ وهؤلاء ينسون ولاشك ان نفقات الاعلان تزيد من الاعباء المالية الملقاة على عاتق الكتاب ، وان الاعلانات الحالية التى تظهر فى الصحف اليومية الصباحية فى مطلع كل شهر ، تكلف وحدها «كتابى» اكثر من طاقته ٠٠

من ذلك يتضح لك ان كتابى مايزال مجهولا من الكثيرين ، بعيدا عما ارجوله من كمال وانتشار و «تغلغل» فى جميع طبقات القراء واوساطهم ٠٠ لاسيما وان الكميات التى تطبع منه ماتزال اقل مما يسمح بطرحه فى الاسواق على نطاق واسع يصل الى كل يد ، وكل عين ، وكل انتباه ٠٠

عناء ٠٠ ورجاء

فاذا كان لى عندك رجاء ، مقابل ما ابذل لك من عناء ٠٠ واذا كنت تؤمن بان كتابى يؤدى رسالة تحب لها ان تزدهر وتنتشر ٠٠ فما عليك الان تنوب عنى فى التعريف بكتابى عند كل من يجهله ، وبث الدعوة له بين اصدقائك ، وزملائك ، وفى جميع الاوساط والمجتمعات التى تختلط بها ، فى مختلف المناسبات ٠٠ حتى «يتضاعف» توزيعه عن الرقم الحالى الذى بلغه ، فيقوى على المضى قدما فى تنفيذ برنامجه الجديد الذى تلمسه ابتداء من هذا العدد ٠٠ بل ويواصل نموه وقفزاته ، فيقدم لك كل حين جديدا يفوق ماتطمح اليه ، ويسبقك الى تحقيق رغباتك وامانيك ٠٠

وبذلك تكون قد ساهمت - عمليا ، وشخصيا - فى تقوية ساعد هذا اللون من الصحافة الراقية الذى احببته ، حبا يضاعف من مسئوليتى امامك ، ويزيدنى تفانيا فى سبيل ارضائك ٠٠

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

الطبعة الجديدة من العدد الاول

أطلب نسختك منها قبل نفادها ، وفقا للتفصيلات المنشورة فى الصفحة الاخيرة من هذا العدد ٠٠

اشتراكات «كتابي»

ترسل بالبريد المسجل

◆ نظرا لتكرر شكاوى حضرات المشتركين الاعزاء من عدم وصول بعض اعداد ((كتابى)) التى ترسل اليهم بالبريد .. ونظرا لان ابلاغ المجلة هذه الشكاوى الى مصلحة البريد لم يحسم اسباب الشكوى مع الاسف الشديد .. لذلك رأت ادارة ((كتابى)) ـ مضطرة ـ ان ترسل جميع الاعداد الى اصحابها بالبريد المسجل .

الاشتراك فى مصر والسودان : ١٠٠ قرش

◆ ولماكان هذا الاجراء من شانه ان يكلف المجلة نفقات لايحتملها مبلغ الاشتراك القديم الزهيد ـ وكان ثمانين قرشا فى العام ـ لذلك رات الادارة رفع قيمة الاشتراك السنوى الى مائة قرش (جنيه واحد) ، وهو على كل حال مبلغ لايزيد عن ثمن الاثنى عشر عددا متفرقة ، باعتبار كل عدد ثمانية قروش .. وذلك تغطية لجزء من نفقات ارسال الاعداد جميعا بالبريد المسجل .

الاعداد السابقة من ((كتابى))

◆ وقد قررت ادارة كتابى ـ للسبب عينه ! ـ ان ترسل بالبريد المسجل ايضا جميع النسخ التى يطلبها القراء الاعزاء من اعداد ((كتابى)) السابقة التى يوجد منها بالادارة مؤقتا عدد محدود ، وذلك مقابل عشرة قروش للنسخة ، ترسل باذن بريد او خطاب مسجل

◆ أما العدد الاول الذى يعاد طبعه الآن ، فاقرا تفصيلات موعده وطريقة الحصول عليه فى الصفحات الاخيرة من هذا العدد .

الاشتراكات فى العراق وسوريا ولبنان

◆ اما بالنسبة للاشتراكات خارج مصر والسودان فالسعر باق كما هو منصوص عليه فى الصفحة الرابعة من هذا العدد ، نظرا لان الاعداد ترسل للخارج عن غير طريق البريد .

وبهذه المناسبة ، وتسهيلا لحضرات المشتركين فى كل من العراق وسوريا ولبنان ، رأت ادارة كتابى اعتماد وكلاء عنها لتحصيل قيمة الاشتراكات فىهذه البلاد رأسا ، هم حضرات : (فى العراق) : السيد محمود حلمى ، المكتبة العصرية ، سوق السراى ـ بغداد . (وفى لبنان وسوريا) : شركة فرج الله للمطبوعات ، صندوق بريد ١٠١٢ ـ بيروت

نبض الربيع
قصة مصرية
للمحرر

- ١ -

في ركن من مقهى ال «تريانو» ، والى جوار نافذة مفتوحة على الميدان المشرف على البحر ، رأيته ساعة الاصيل جالسا الى احدى الموائد ، وأمامه قدح من الشاى ٠٠ لم يمسسه !

لم يكن جو المكان هادئا يغرى بتأمل طويل ٠٠ فقد كانت الجلبة شديدة فى الداخل، والميدان فى الخارج زاخرا بالحياة٠٠ كالقلب النابض ، فيه تتلاقى ومنه تتفرق جموع الساعين الى مغانى الاسكندرية في يوم العيد٠ **ورغم ذلك فقد بدا على «خيرى بك» أنه غير ملق بالا الى كل ما حوله من ضجيج ، وكان نفسه تنعم بسكينة محببة ، مبعثها الاستغراق فى ذكرى ٠٠ أو نجوى ٠٠ أو حنين !**

وآثرت أن أحترم عزلته فأدعه لنفسه ، حتى يفيق ٠٠ مكتفيا خلال ذلك بمراقبته من بعيد ٠ كان المشيب مهيبا فى طلعته وجلسته ، كأروع ما تكون المهابة والجلال ٠٠ وعلى شفتيه يرف شبح ابتسامة تائهة ٠٠ وفى نظرات عينيه رقة لم آلفها ، وليونة طارئة ٠٠ حرت فى تعليلها !

٠٠ حتى أفاق من سرحته بعد حين ، وكنت قد فرغت من تناول الشاى ، فسرت بين الموائد أسعى اليه ٠٠

❖

واقترح على أن نفر من الزحام والضجيج ـ بعد أن تنبه الينا ! ـ فخرجنا الى طريق الكورنيش ٠٠

كان الغروب جميلا يرهف الاحساس ، والهواء صافيا نديا يرطب الوجوه٠٠ وكل شىء يذكر بأحلى أمسيات «نوفمبر»

فى الثغر ، حين يجود الخريف بأنفاسه الاخيرة فتشيع روائحه فى الجو ، ريانة بأنفاس البحر ، ظمآنة لانفاس الزهر٠٠وتنتشر باقات « الكريزنتيم » بألوانها الزاهية : فى أيدى الباعة ، وواجهات الحوانيت ، ونوافـذ المنازل ، وعلى موائد المقاهى والحانات ٠٠ وحيثما طاف البصر أو استقر ٠

وكانت الاسكندرية قد خرجت الى الطـرقات ، جـذلة بالعيد ، الذى استرد بهجته القديمة ٠٠ فلم يعد مجرد تاريـخ يقرأ فى التقاويم وتعطل له الاعمال ٠٠ وانما لاح على وجوه المارة وفى عيون الاطفال ٠٠

وسرنا برهة صامتين ، وقد تجنبت مبادأته بالكلام ، حين لمحت على وجهه تعبيرا تعودته منه كلما أغرته فورة الماضى فى رأسه بأن يفضى الى بذات نفسه ٠٠

وصدق ظنى ٠٠ اذ لم نكد نبتعد عن قلب المدينـة ، ويخلو الكورنيش الا من نفـر قليل ، حتى جاءنى صـوته هادئا يقول :

«ليتك بكرت فى الحضور قليلا٠٠ اذن لرأيت ابنى «منير» كما رأيته أنا ، يعبر الميدان وذراعه فى ذراع فتاة ! ٠٠ ألا ما أسرع ما تمر الايام ، بله الاجيال ٠٠ وما أسرع ما بدأ الفتى يبحث عن الحب ، ويخلى مكان الصدارة من قلبه للحسان ! ٠٠ ولكم أخشى على هذا القلب الغض من عبثهن !٠٠ انها تجربته الاولى فيما أحسب ٠ وصدقنى اننى حين لمحته شخت فى عين نفسى ـ فى لحظة واحدة ـ سنوات ! وقدرت فجأة بعد الشقة، وعمق الهوة، بينى وبين ماضى السحيق٠٠وتمثل لخاطرى شبابى معادا من جديد ٠٠ فدهمنى طيف الفتاة الاولى التى فضت غلاف قلبى البكر ٠٠ وعبثت به ٠٠ثم نبذته !

«وانى لاقرأ الآن فيه، وفى رأسى معا، قصة حبى الاول٠٠»

ولان صوته ، كما لانت نظراته من قبل ، واتخـذ سمة البحر الساجى ، الذى لم تعد تعكره الامواج :

- ٢ -

«**كان** ذلك فى فجر شبابى الباكر البعيد، يوم ان كنت فتى يافعا ، لم أكمل دراستى بعد ٠ وكنت ووالدتى قد انتقلنا حديثا الى الاسكندرية ، واخترنا لسكننا ـ فى أحد شوارع زيزينيا الهادئة ـ شقة فى عمارة جميلة لا زلت أذكر لون طلائها الاحمر ، ونوافذها العالية الدكناء ، ومدخلها الرخامى الفسيح الذى يتضاءل الى جانبه مدخل العمارة العتيقة التى كنا نقطنها قبلا بحرجا ٠٠

« لم تكن الصورة التى فى ذهنى يومئذ عن الحب والنساء، أكثر من خليط مبهم من التصورات ، ساهم فى رسمها خيالى الجامح ٠٠ وهمسات زملائى من التلاميذ الكبار ٠٠ ثم ذلك الضرب من البلبلة العذبة المرة التى تداهم أفكارنا بشدة وتنتهبنا فى تلك السن ، حين تتمطى قلوبنا فى صدورنا وهى تستيقظ كى تؤرق ليالينا ، وتلهب فى نفوسنا أقوى مشاعر القلق ٠٠ والحيرة ٠٠ وانتظار المجهول !

« المجهول الذى لم يلبث أن وعدنى به ، وقادنى عبره ٠٠ طيف « احسان » !

« **لا أذكر** أين ولا كيف رأيتها أول مرة ، أو حتى عاشر مرة ، فقد كنت فى البداية أراها كثيرا ، تقريبا كل يوم ، اما صاعدة الى مسكنها فى الطابق العلوى من عمارتنا ، أو هابطة منه ٠٠ وأحسب اننى لابد قد صادفتها مرة أو مرتين مع أمها عندنا فى البيت ، فكنت أخضع لواجب مصافحتهما تأدبا واضطرارا ٠٠ ثم أبادر بالخروج الى الشرفة المطلة على الشارع الرئيسى ، لاملأ رئتى بهواء نوفمبر الندى ، وأقف أرقب الطريق الزاخر بالفتيات الجميلات وهن عائدات من المدارس بأرديتهن المتماثلة البيضاء ، أو الزرقاء ، وعلى وجوههن ملاحة الصبا ونضارة الشباب المضطرم الذى يلون وجناتهن ٠٠ وقد تناثر

شعرهن على أكتافهن فى استرسال عذب ، نصفه من فضل عبث الهواء ، ونصفه من فعل عبثهن فى المدرسة ٠٠ !

«٠٠فكان يتولانى وأنا أرقبهن شعور٠٠»

«فكان يتولانى وأنا أرقبهن شعور غريب ! كنت أحس بحيرة خفية ، وقلق غامض ٠٠ وكأننى مخلوق غريب عن هذه الدنيا ، مقيد فى قفص ، يمر أمامي موكب الحياة ، وأنا قانع بأن أستعرضه ٠٠ أو أدعه يتفرج على فى وقفتى تلك ٠٠ وأنا تائه النظرات ، حالم الشفتين ، بشىء لم أكن قد تبينته بالضبط ٠٠ !

« واستدعتنى أمى ذات يوم ، من وقفتى تلك ، لاجلس مع «الضيوف» ! ٠٠ فمضيت الى الغرفة كاسف البال ، ضيق الصدر ، وفى نيتي أن أتحين أقرب فرصة للفرار ٠ وجاءت جلستى فى مواجهة « احسان » ٠٠ وبرغمى حانت منى اليها لفتة عابرة ، فاذا بى أفاجىء نظراتها مصوبة الى ٠٠ نعم «مصوبة» ! فقد كانت لحظتها تقدح بفتنة غريبة لم ألمحها فيها من قبل ٠٠ !

« وخجلت ٠٠ فأرخيت عينى فى اضطراب متلفتا الى ٠٠ لا شىء ٠ ثم عدت ببصرى اليها بعد حين ، عن غير قصد ، فاذا به يصطدم فى عينيها بنفس النظرة التى كانت تتفحصنى ، ما تزال ٠٠ !

« ولا أنسى الارتباك الذى تولانى اذ ذاك ٠٠ أحسست أن شعاع نظرتها الفاحصة ينفذ الى أحشائى ، ويجردنى من كل ما يستر كيانى ومشاعرى ! ٠٠ ووجدتنى أسائل نفسى ،

كمن أزيح عن عينيه فجأة الحجاب : « كيف لم التفت اليها من قبل؟ » .. وانتهزت أول فرصة انشغلت فيها احسان بالحديث مع أمى فخالستها النظر ، لاعرف جواب تساؤلى ..

« ولحظتها فقط أدركت السبب .. حين طالعت عيناى فى وجهها ، وفى جسدها العارم الطويل ، ان سنها تدور حول العشرين .. وانها تكبرنى بسنوات !

❖

«**وأكثرت** احسان من زيارتنا بعد ذلك .. كانت تتعلل بشتى المعاذير كى تمر علينا ، تقريبا كل يوم ، ولو فى المامة خاطفة ، فتطلب من أمى شيئا أو ترد شيئا كانت قد أخذته !.. ولاحظت أنها فى كل مرة كانت تزيد من حرارة تحيتها لى ، وتتلمس أوهى سبب لتبادلنى حديثا قصيرا عن المدرسة ، والدروس ، ومدى تقدمى فى اللغة الفرنسية التى كانت هى تتقنها كاحدى بناتها . ثم ما لبثت أحاديثها وأسئلتها أن تطورت ، وتنوعت ، ووجدت لها ميدانا ثانيا فى قصة للكاتب الفرنسى « فيكتور مرجريت » أعطتنيها لاقرأها ، على أن تمتحننى فى فصل منها كل مرة ، بدعوى أن ذلك « يقوينى فى اللغة » !

« وصارت مع الايام تجلس الى جانبى ، فتلفح أنفاسها وجهى ، ويطغى عطرها على حسى .. فأضطرب ، وأنصرف لحظة عن الكتاب .. وعندئذ تسألنى ضاحكة : « هيه .. خيرى !.. فى أى واد أنت ؟ » .. فكنت أخفض وجهى الى الكتاب ، ولا أجيب !

« ولم أتبين مدى التبدل الذى أصابنى بالتدريج ، الا بعد زمن .. يوم ان كنت أقلب صفحات ذلك الكتاب الذى كانت بعض فصوله الجديدة على تثير فى الاضطراب .. فصادفت كلمة استعصى معناها على فهمى ، فسألتها عنها .. وكانت أمى قد خرجت من الغرفة لبعض شأنها !

« رباه ! كيف أنسى تلك اللحظات ! ٠٠ ضحكت احسان ضحكتها العابثة ـ التى كنت أسمع جرسها العذب يدغدغ حواسى ! ـ ثم اتخذت عيناها سمة غريبة ، لم أكن قد رأيتها من قبل ، وأرخت أجفانها قليلا وهى تقترب منى بجسدها الرخص وأنفاسها تلفح وجهى ، وعطرها يطغى على حسى ٠٠ ومالت بفمها على وهى تهمس فى أذنى : « أوما تخجل من نفسك ، ومن جهلك الفاضح باللغة ؟٠٠ أو ما سمعت قط ب «الحب العذرى» ؟ أم انك فى الحقيقة لا تعرف من ألوان الحب سواه ؟ » قالتها واستردت جسدها الرخص من جوارى فى حركة ضجر مفاجئة، فلمست كتفى ـ لاول مرة! ـ صدرا لينا٠٠ وانتابنى دوار ٠٠ وسرت فى كيانى قشعريرة حمى مريرة عذبة، سلبتنى ليلتها النعاس ٠٠ !

❖

«**وليتها** رحمتنى بعد ذلك٠٠ بل انها دأبت على«تعذيبى»! وضاعف من وطأة فتنتها اننى كنت ، برغم خجلى ، مكابرا ـ ـ نفس المكابرة التى تعرفها فى اليوم ! ـ فكنت آنف من الفرار، وتهيب بى سذاجة رجولتى الباكرة أن أصمد للفتاة ، أو أسقط صريعا فى الميدان ! ٠٠ وهكذا كان يشتد الجذب والشد ، على حساب أعصابى التى أشرفت على التلف ٠٠

« وفى آخر مرة ، وكان ذلك فى مساء يوم قارس البرد ، كنت فى غرفتى أحاول عبثا أن أفهم حرفا من حساب اللوغاريتمات٠ وسمعت صوتها تسامر أمى فى الردهة ، فنازعتنى نفسى اليها ، وتململت فى مقعدى أبغى الخروج اليها ٠٠ لولا أن لفتة عابرة الى التقويم الذى أمامى ذكرتنى بامتحان نصف السنة المقترب، وردتنى الى مقعدى محطم الاعصاب وقد راعنى مصيرى، وأدركت اننى موشك على الضياع، فخنقتنى غصتى٠٠ وانكفأت بوجهى على مكتبى ، مغمض العينين ، أغالب ضعفى ٠٠!

«ويبدو أن تأثرى كان قد أضنانى، فاننى أغفيت ـ كالطفل أتعبه البكاء، فنام بين ذراعى أمه ـ حتى نبهنى من اغفاءتى عبير نفاذ مألوف يملأ الهواء حولى وينعش أنفاسى ! **ففتحت عينى، نشوان ظمآن، واذا احسان قائمة منى على قيد خطوة، متكئة على الباب المغلق وراءها، ويداها خلف ظهرها، وثوبها يكشف عن أعلى صدر ناصع ساخن ـ أو هكذا خلته من بعيد ! ـ ثم اذا بعينى المحمومتين تطالعان فى عينيها معان لا حصر لها، مشتقة كلها من الظمأ .. والجوع !**

«ولم يطل الموقف غير ثوان، ريثما أيقنت احسان ـ على هدى غريزتها ـ اننى ذاهل عن كل اقدام، وان جمودى يغلبنى، فتركت الباب الى حيث المدفأة فى ركن من الغرفة، تتلظى فيها النيران .. وهناك وقفت مطرقة، تتأمل الجمر فى النار، وظهرها الى، وصمتها قد ثقل على، حتى لم أعد أطيق .. فمشيت اليها أسترق الخطى، وفى نفسى صدى ما يبلبل فكرها! ووقفت منها بحيث لمس شعرها أنفى فأضرم اللهيب فى أعصابى، وملأ عطرها خياشيمى .. واختلج جسدها فى انتظار قبضة ذراعى، وأحسست بكيانى يزلزله أعصار من الانفعال ..؟!

«.. وانى لاناضل جمودى، واذا أعصابها تخذلها، تحت وطأة الترقب، الذى كان فيما يبدو قد طال .. فتخركت واستدارت الى، ثم انفلتت من الغرفة وفى عينيها نظرة احتقار .. لن أنساها !

«وليلتها لم أنم .. ظللت فى فراشى أتقلب وأتلظى على مثل السعير، وبدنها اللدن يتثنى فى خيالى، ويتراقص أمام ناظرى .. وصدرها الناهد يهبط على صدرى .. وأنفاسها الساخنة تحرق وجهى وتلهب وجنتى، فأحس منها بجفاف فى حلقى، وظمأ موجع الى ذوب فمها الريان ..

«حتى أدركنى الصباح مضنى من السهاد، خائر القوى، مبهور الانفاس .. ولم يلبث الاجهاد ان أسلمنى للنعاس !

❖

طيف القبلة الموءودة ٠٠ مؤرقا ليالى !

« ولم أعد أرى احسان فى البيت ، فقد انقطعت عن زيارتنا، وعبثا حاولت أن ألقاها ٠٠ وفى المرات القليلة التى صادفتها فيها ، فى الاسابيع التالية، صاعدة الى مسكنها أو هابطة منه ، كانت تتحاشانى وتفلت منى ٠٠ **فكان مجرد تهالك بصرى عليها ، ولو فى لمحة خاطفة ، يذكى حنينى فى دمى فيعاودنى طيف القبلة الموءودة، ملحا على خيالى، مؤرقا ليالى ٠٠ وأعاود بدورى اهمالى لدروسى، مستمرئا النوم المبكر ، لعل النعاس ينتشلنى من وعيى فتراود رؤاها أحلامى ٠٠ !**

«وليت القدر ترفق بأعصابى ولم يمعن فى سخريته ، فأعفانى من اللقاء المرير الذى كان بسبيل تهيئته ٠ وياله من لقاء ! ٠٠ اننى ما أزال أذكره وكأنه قد حدث بالامس ، فان الصدمة كانت أعنف من أن يحتملها قلبى الفتى : كنت أقصد منزل زميل لى ذات ليلة، لاقترض منه كراسة أنقل عنها ما فاتنى من دروس ٠ وكان البرد ليلتها شديدا يهرأ العظام ، فسلكت طريقا مختصرا عبر شارع ضيق لم يكن قد عبد بعد ، فكان المرور فيه قليلا ٠ وبينما أنا أغذ السير ويداى فى جيبى بنطلونى ، وأسنانى تصطك ، حمل الهواء الى أنفى الرائحة المألوفة ، رائحة العطر الذى تتضمخ به احسان ! ٠٠ فجمدت فى مكانى، ودار بصرى حوالى ينشد طيفها ٠٠ حتى وقع عليه ، خلف جذع غليظ لاحدى الاشجار ٠٠ ولكنها لم تكن تعانى كثيرا

من الوحدة، أو البرد، فقد كانت تؤنسها وتدفئها أحضان رجل، استجاب لنداء شفتيها !٠٠ ولم يكن غريمى غير «جار» آخر لى ولاحسان ، كان يقطن من عمارتنا طابقها الاسفل !

« **وأحسست بالدموع ، التى طالما ناضلتها ، تنهمر بغزارة من عينى٠٠ وأسلمت نفسى لأسى موجع وأنا أعدو عائدا أدراجى الى البيت ، ودمى يلسع جسدى ويخزنى كالابر ! ووجدتنى أكمن فى انتظارها عند الباب ، خلف أحد الاعمدة القريبة ، غير عابىء أو شاعر بالبرد** ٠٠ حتى رأيتها تدلف الى الداخل ثم تصعد الدرج ، فعاقنى الانفعال لحظات ، وأجفلت ٠٠ لكنى لم ألبث أن تمالكت نفسى فصعدت خلفها أعدو ، ودقات قلبى تردد مع وقع أقدامى أصواتا تصم أذنى ، وتصرخ فى سمعى بشدة : « طفل !٠٠ طفل!٠٠ طفل!» ٠٠ حتى بلغت بابها ، وكانت قد دخلت وأوصدته ، فنقرت عليه بأصابعى نقرة ٠٠ ثم أخرى٠٠ ووقفت ألهث وارتجف وأنا أمنى نفسى بأنى سأختطفها بين ذراعى وأضمها الى صدرى بقوة حتى أحطم ضلوعها ، أو تصرخ وتستغيث٠٠ بينا تروح شفتاى تتلمسان شفتيها ، وتجريان على رقبتها ٠٠ وما بين ثدييها ٠٠ وتلهبان عنقها وكتفيها وو٠٠

« وفتح الباب ، وبرزت منه احسان !

« **وأحسبك** تقدر ما حدث٠٠ فقد جبنت بمجرد أن رأيتها أمامى ، بجسدها العارم الطويل ، تسألنى عن طلبتى ببرود ٠٠ دون أن تكلف نفسها حتى عناء الاستغراب ! وعبثا ناضلت جمودى الغلاب ٠٠ حتى أحسست انى أوشك أن أبكى ، وأنا ازدرد لعابى بصعوبة وأتضاءل تحت وقر نظرتها الهازئة !٠٠ وكان تأثرى قد تفاقم ، والدموع فى طريقها الى عينى ، فأدرت وجهى منسحقا ٠٠ واندفعت أهبط السلم وأنا ألهث ، وجرس ضحكتها الساخرة يلاحقنى ويصم أذنى ، ويردد مع دقات قلبى ووقع أقدامى أصواتا تصرخ في سمعي بشدة : طفل! ٠٠ طفل! ٠٠ طفل! »

❖

وسكت خيرى بك ، كأنما ليلتقط أنفاسه مع الفتى اللاهث الذى كانه فى فجر الشباب ، ثم استطرد وهو يرمى ببصره الى البحر ، الذى انعكست عليه ظلال من السحاب الاحمر كالدم ، الذى كان يلطخ الافق : « .. ومضت أعوام ، وعرفت غير احسان ، وذقت طعم القبلة من أعذب الشفاه .. ثم تزوجت منذ دهر طويل .. ولكنى برغم ذلك لم أنس شوقى الى طعم تلك القبلة الموءودة التى لم أقطفها من شفتيها ! وبقى طيفها زمنا يشتعل فى حسى دائما كالجمرة ، ويطفىء نشوة كل قبلة أخرى .. ويلح على خيالى .. ويراود أحلامى .. فأفتح فى منامى ذراعى لاقبض على بدنها الرخص وأنهب شفتيها .. فاذا بذراعى لا ترتدان الى الا بالحسرة ، واذا بى لا أقبض الا على .. هواء ! »

واسترد الكهل بصره من البحر، الذىانطفأت فيه الظلال، ومن الافق المتماوج برقع من السحاب الاغبر الداكن.. ثم تمتم، بصوت كأنه آت من بعيد :

« .. وما كنت قد تبينت يومها - كما أتبين الآن - ان نشوة الانسان ، أو شقوته ، ليست غير أطياف أوهام .. تنبع من سراب صحراء ! »

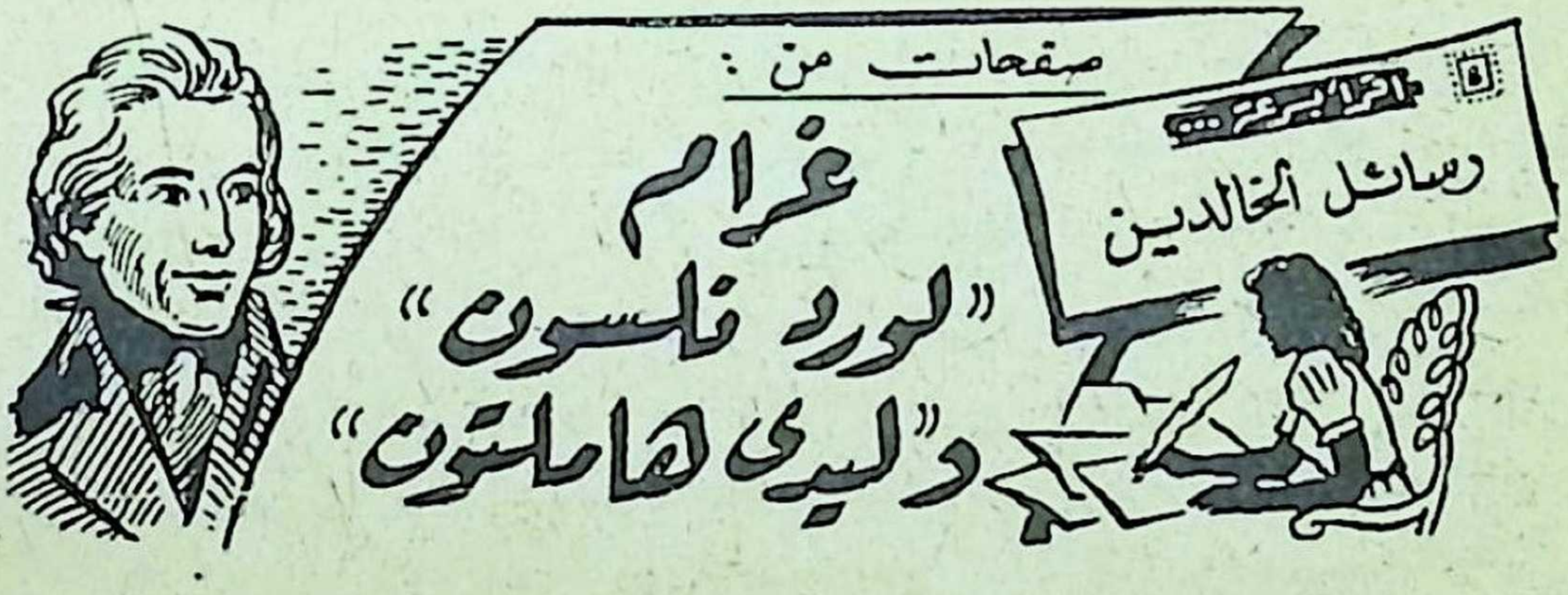

لكل رسالة قصة ..

◆ فى سنة ١٧٩١ انتقلت ((ايما ليون)) ـ أو ((ايما هارت)) كما كان البعض يدعوها ـ من حياتها الوضيعة كفتاة من ((فتيات الطريق)) ، الى حياة الجاه والمجد كزوجة للسير وليم هاملتون ، سفير بريطانيا العظمى فى نابولى ! (بعد ان ((اشتراها)) السفير من ابن أخيه الذى كان صديقا لها ، مقابل تسديده لديونه المالية !)

وكانت ((ايما)) وقتئذ فى السادسة والعشرين من عمرها . ولكن لم ينقض على زواجها ذاك عامان ، حتى التقت الزوجة الحسناء لاول مرة بأميرال البحر البريطانى اللورد نلسون .. وليس فى التاريخ ما يثبت انها أحبت البطل الشاب نلسون أكثر مما أحبت زوجها ، وانما الراجح من ماضى ((ايما)) فى شبابها الباكر ـ الذى يمكن ان يجد المرء صورة له فى حياة اية ((عاهرة)) طموحة ! ـ ان كلا الرجلين كان عبدا لمطامعها واهوائها .. !

وتبدأ قصة غرام ايما (أو ((ايدى هاملتون)) ، كما صارت تدعى بعد زواجها من السفير) بامير البحر نلسون ، فى سنة ١٧٩٨ ـ بعد خمس سنوات من لقائهما الاول ـ فقد اتيحت له يومئذ فرصة الاختلاط بها أثناء استجمامه فى نابولى على أثر جرح أصيب به فى ((معركة النيل)) البحرية .. فنضجت صداقتهما سريعا ، ثم تطورت الى رفقة فاضحة ، بفضل ((اغضاء)) كل من الزوج الهرم الذى كان بطبيعته منحل الخلق عديم النخوة والشرف .. ثم تشجيع ملكة نابولى ذات الخلق المستهتر ((ماريا كارولينا)) !

◆ فلما عاد نلسون الى انجلترا فى سنة ١٨٠٠ مع أسرة هاملتون ، وجد

الفضيحة قد سبقته الى وطنه وذاع امرها فى كل مكان ، بحيث البت عليه شعور عدد كبير من مواطنيه ! .. لكن انتصار بطل البحر فى «كوبنهاجن» ألبسه حلة جديدة من المجد طغت على نفور المجتمع من فضيحته الخلقية !

على أن أكثر ما ساء المجتمع الانجليزى منه فى الواقع لم يكن مسلكه الشائن فى ذاته ، وانما مجافاته لآداب اللياقة والذوق ، التى تجلت فى اقحامه عشيقته فى كل مجتمع رفيع ، بل وتشاجره مع كل من يابى استقبالها فى داره وحفلاته !

وفى أثناء ذلك نبذ نلسون زوجته نبذا قاسيا غير كريم وعاش مع أسرة هاملتون حتى مات الزوج «السير وليم هاملتون» فى سنة ١٨٠٣ .. وعندئذ فكر نلسون فى الزواج من عشيقته ، لولا ان زوجته أبت ان تمنحه الطلاق !

الحب والحرب .. فى رسالة

وفى مايو سنة ١٨٠٣ عين نلسون قائدا لمنطقة البحر الابيض ، فقضى العامين ونصف العام التاليين فى نشاط مستمر ، بلغ خلاله أوج مجده وسلطته .. وفى ١٩ أكتوبر سنة ١٨٠٥ ، بينما كانت اساطيل الاعداء تقوم بمناوراتها بقرب «الطرف الاغر» ، كتب الاميرال نلسون الى عشيقته «ايما» الرسالة التالية:

الباخرة « فيكتورى » فى ١٩ اكتوبر سنة ١٨٠٥ .. وقت الظهر .

قاديش ــ ١٦ عقدة

« محبوبتى الغالية ، والصديقة العزيزة لقلبى ، «ايما» .. لقد تلقيت اشارة تنبئنى بأن اساطيل الاعداء المتحدة تتأهب لمغادرة الميناء .. لكن الريح تكاد تكون ساكنة ، بحيث لا امل عندى فى ان اراهم قبل الغد .. عسى ان يتوج «اله المعارك» جهودى بالنجاح .. وعلى أية حال فسوف ابذل كل ما فى وسعى كى يظل اسمى غاليا عزيزا عليك انت وابنتى هوراشيا ، المخلوقتين اللتين احبهما بقدر ما احب نفسى . ولما كان آخر

ما تخطه يدى قبل المعركة سوف يكون موجها اليك ، فانى ارجو من الله ان اعيش لاكمل خطابى بعد المعركة . . فلتباركك السماء!

« نلسون »

◆ ثم اضاف البطل على هامش الرسالة فى اليوم التالى :

٢٠ اكتوبر

« .. فى الصباح كنا قريبين من فم البوغاز ، لكن الريح لم تكن بعيدة المدى الى ناحية الغرب بحيث تسمح للاساطيل المتحدة بتجنب المناطق الضحلة عند الطرف الاغر .. وقد احصيت سفن العدو فاذا هى اربعون سفينة حربية ، وقد شوهد عدد منها من فنار قادش هذا الصباح ، لكن كثافة الطقس تجعلنى ارجح انها سوف تعود الى داخل الميناء قبل هبوط الليل .. عسى الله القدير ان يمنحنا الظفر والغلبة على هؤلاء القوم ويعيننا على الوصول الى سلم مشرف .. »

يموت فى نهاية المعركة !

◆ لكن نلسون لم يعش لينعم بثمرة اعظم انتصاراته .. ففى اليوم التالى ـ ٢١ اكتوبر ـ مات بين ذراعى الكابتن « توماس ماسترمان هاردى » وقد اخترق الرصاص جسده فى اكثر من موضع .. وكانت كلماته الاخيرة «حمدا لله ، لقد اديت واجبى» .. وقبل ذلك قال للكابتن هاردى فى لهفة : «تذكر .. انى اترك الليدى هاملتون وابنتى «هوراشيا» ارثا لوطنى»

على ان وطنه لم يظهر اية بادرة تنم عن اعتزازه بذلك الارث ، بل لقد اظهر مزيدا من الاهتمام بابنة ملكه التافه «تشارلس الثانى» الذى قال يوصى خيرا بابنته وهو يموت : « لاتدعوا نيللى المسكينة تموت جوعا ! » .. اكثر مما اظهر من اهتمام بمصير ابنة بطله العظيم نلسون !

وكان الايراد الذى خلفه هاميلتون ونلسون لمشوقتهما المشتركة ايما يبلغ الفى جنيه سنويا ، وهو ايراد كانت لتغبط نفسها عليه اية ارملة عادية ،

لكن ايما لم تكن ارملة عادية ، بل كانت مغامرة ومسرفة لا شفاء لها من دائيها المزمنين .. فانفقت خلال السنوات العشر التالية ما انتهى بها الى ان تدفن فى قبر متواضع فى بلد أجنبى ..

وهكذا أسدل الستار على حياة بطل .. وحياة امرأة مغامرة !

يحكى عن العظماء :

كيف خلدت النساء ذكرى نلسون !

◆ على اثر وفاة نلسون ، اغرمت نساء انجلترا بطراز جديد من حمالات الجوارب اطلق عليه « الطرف الاغر ! » ـ تخليدا لاسم المعركة الخالدة التى انتصر فيها نلسون على الاسطول الفرنسى ومات فى نهايتها ـ وكان الشعار المكتوب على حمالات الجوارب المذكورة : « انجلترا تنتظر من كل رجل ان يؤدى واجبه ! »

حسن تخلص

◆ جلس السياسى الفرنسى «تاليران» يوما فى مأدبة عشاء بين اثنتين من شهيرات نساء فرنسا ، هما : مدام دى ريكامييه ، الشهيرة بجمالها ، ومدام دى ستايل ، الشهيرة بنزعتها الادبية ... فلاحظت الثانية أنه يكثر من الالتفات الى الاخرى ويخصها بعنايته واعجابه ، فسألته تبغى احراجه : «أينا تنقذ من الغرق لو سقطنا كلانا فى الماء ؟ »

فالتفت اليها السياسى الداهية محرجا ، ثم قال على الفور : «لكنك ياسيدتى تحسنين السباحة !»

عندما يرتفع الستار..

روائع المسرح العالمى
(التمثيلى .. والغنائى)

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب ، فى الاعداد السابقة من ((كتابى)) ، المسرحيات العالمية الآتية .. على التوالى : ((خطايا الحب)) لاوسكار وايلد .. ثم ((الحب الاثم)) أو (سلطان الظلام) لتولستوى .. و((نزاهة الحكم)) او((المفتش العام) لجوجول .. و((سلاح المرأة)) لاريستوفان .. و((فولبون)) أو (الثعلب) لـ ((بن جونسون)) .. و((جيوكندا)) لدانونزيو .. و((كلام الناس)) لجوزيه اشيجاراى ..واليوم اقدم لك فيما يلى هذه الكوميديا الانجليزية الخالدة ((مدرسة الفضائح)) .. تليها فى الاعداد القادمة باذن الله المسرحيات العالمية الآتية : أوسكار وايلد : (مروحة الليدى وندرمير) جون درنكواتر(ابراهام لنكولن) - برنارد شو : (بيجماليون) - مكسيم جوركى : (الصعاليك) - تشيكوف : (الشقيقات الثلاث) -ابسن : (مهزلة الحب) - هوجو : (هرنانى) - موليير : (مدرسة الزوجات ، المريض الموهوم ، البخيل.. الخ) - شكسبير : (عطيل ، هملت ، ماكبث ، ترويض النمرة ، تاجر البندقية ، روميو وجولييت .. الخ) - سوفوكل : (اوديب الملك) .. الخ

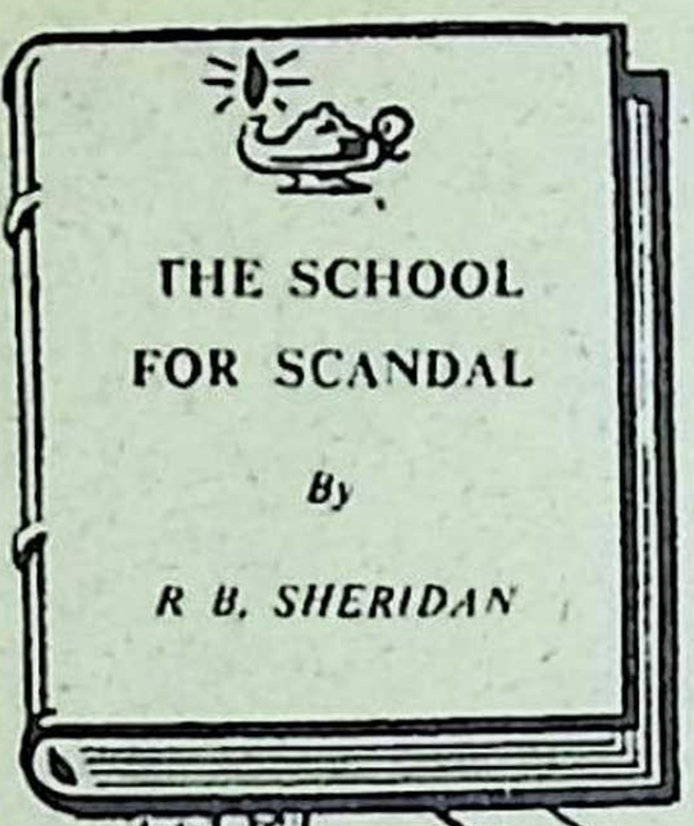

مدرسة الفضائح

قصة تمثيلية كبرى

للكاتب الانجليزى : شيريدان

قصة المؤلف

(١٧٥١ - ١٨١٦)

◆ مؤلف هذه المسرحية هو الكاتب الانجليزى القدير «شيريدان» ، الذى كانت حياته ذاتها قصة .. لعلها اروع وافجع من قصصه الخيالية جميعا !

وقدكان شيريدان من اصل ايرلندى - شانه شان زملائه الافذاذ : أوسكار وايلد ، واوليفر جولدسمث ، وبرناردشو - ويعتبر اربعتهم اشهر من امتازوا بالسخرية اللاذعة والدعابة البارعة ، من بين كتاب الادب الانجليزى جميعا !..

وقد كانت لشيريدان فى الواقع كل صفات الايرلنديين ، الحسنة والسيئة على السواء ، وابرزها : الكرم ، والمرح ، والمزاح ، من ناحية .. ثم الاهمال ، والكسل ، والغفلة ، وعدم المبالاة بالمواعيد .. من الناحية الاخرى !

ولو اراد كاتب مسرحى ان يبحث عن موضوع لماساة مسرحية قوية ، ذات عقدة وحبكة ، ونهاية مؤثرة .. لما وجد لروايته موضوعا أروع ولا مادة انسب من حياة شيريدان نفسها ، التى اتسمت بسمة « الماساة » الحزينة ، بينما نبغ هو فى تاليف «الكوميديا» التى تفيض فكاهة ودعابة ومرحا !.. مثله فى ذلك مثل خلفه العظيم «أوسكار وايلد» ، الذى شاركه الدعابة فى فنه ، والماساة فى حياته !

وتتلخص ماساة «شيريدان» فى هذه الحقيقة المفجعة ، الموجعة : انه قد ارتفع الى قمة النجاح والشهرة والمجد فى شبابه الباكر .. ثم هوى الى حضيض الفشل والفاقة والحرمان فى شيخوخته !..

◆ ففى سن العشرين فر شيريدان الى فرنسا مع حسناء من افتن حسان زمانه ، وهناك تزوجها سرا ، متحديا منافسه وغريمه فى حبها .. ثم اشتبك معه فى مبارزة كاد يفقد فيها حياته !

◆ وفى الرابعة والعشرين كتب شيريدان مسرحيته الاولى الناجحة « الغرماء » (The Rivals) .. وفى السادسة والعشرين كتب درته الخالدة هذه : «مدرسة الفضائح» .. وفى السابعة والعشرين صار النجم اللامع فى مجتمعات لندن ، وصاحب مسرح «دروری لين» الشهير .. وفى التاسعة والعشرين انتخب

عضوا فى البرلمان الانجليزى ٠٠ وفى الثلاثين ذاع صيته كأعظم خطيب فى انجلترا قاطبة !٠٠ ومنذ ذلك التاريخ أدار شيريدان وجهه شطر السياسة ، حتى غدا المستشار الناصح لاوصى على عرش بريطانيا فى ذلك العهد (الملك جورج الرابع فيمابعد)٠ثم الوزيرالمختص بشئون ايرلندا ٠٠ مسقط رأسه !

◆ ومع ذلك كله ، وبعد ذلك كله ، مات شيريدان فى حالة فقر مدقع ٠٠ مات والمحضرون يتربصون حول فراشه كى يحملوه الى السجن ليدفع فيه حريته ثمنا لديونه ! (كماكان يقضى القانون الانجليزى فى ذلك العصر) ٠٠ ثم امعنت الاقدار فى سخريتها فاذا جنازة الراحل المفلس تشيع تشييعا يليق بالامراء والملوك ٠٠ حتى استقر به المقام آخر الامر فى مقبرة العظماء الخالدين بـ « وستمنسترابى » !

والآن ٠٠ اليك القصة من بدايتها :

يرث موهبته ٠٠ من أمه !

◆ ولد « ريتشارد برنسلى شيريدان » فى مدينة دبلن ـ عاصمة ايرلندا ـ سنة ١٧٥١ ، من والد كان يعمل ممثلا ، وناظر مدرسة ، ومدرس فصاحة ٠٠ فى وقت واحد !٠٠ لكن هذا الوالد ,كان من الغباء والشراسة والغرور بحيث يظن أن الفتى ورث مقدرته الادبية من امه ، التى الفت رواية طويلة وهى بعد فى الخامسة عشرة ! ثم صارت فيمابعد من أشهر أديبات زمانها ٠٠

وألحق الابوان ابنهما بمدرسة « هارو » المشهورة ، حيث عاش الفتى معيشة مرح وبلادة واستمتاع ٠٠ وحين بلغ التاسعة عشرة انتقل والداه الى مدينة « باث » ، التى كانت فى ذلك الوقت مركز الثقافة والادب والفن ٠٠

وهناك اختلط القادمون بأسرة الموسيقى «توماس لينلى» ، الذى كانت داره كعبة أفراد الطبقة الرفيعة وذوى الجاه والثراء ٠٠ يجذبهم اليها - فى الظاهر - حب الموسيقى التى يلحنها ويعزفها رب الدار ٠٠ وتسوقهم نحوها - فى الواقع - فتنة بناته الرشيقات ، وعلى الاخص «اليزابيث» ذات الحسن الباهر والصوت الساحر ، رغم أنها لم تكن جاوزت يومئذ السادسة عشرة !

وأسر جمال الفتاة شبان المدينة جميعا ، ومنهم الفتى ريتشارد شيريدان ٠٠ كما أوقع فى هواها الكثيرين من الرجال الناضجين - الذين جاوزوا مرحلة الشباب الباكر ، والبراءة ! - لا فى بلدة «باث» وحدها ، بل وفى لندن ، وأكسفورد ، وكمبردج ، وشتى مدن الاقليم !

يطاردها ٠٠ حتى تشرع فى الانتحار !

◆ وكان بين افراد تلك « الحلقة » من رواد الدار شخص - يدعى الكابتن ماثيوز - متزوج ، ويكبر الفتاة فى السن بكثير ٠ ومع ذلك فقد لاحقها بغزله الفاجر ونواياه المشينة الى الحد الذى الجاها يوما الى محاولة الانتحار ، لولا ان انقذها الشاب شيريدان فى آخر لحظة ! ثم راى الفتى من دلائل فزعها ويأسها ما استثار فيه نزعة الفروسية والشهامة فاعتزم ان يحمى الفتاة من الخطر الذى يتهددها بكل وسيلة فى متناوله !

وكانت اضمن وسيلة تكفل لها وله السلامة التامة هى الفرار !٠٠ وبالفعل فر الشابان الى فرنسا حيث عقدا زواجهما «المدنى» سرا ٠٠ لكن والد الفتاة لم يلبث أن أرغم ابنته على العودة كى تتم برنامج الغناء الذى تعاقد بشأنه مع جهات كثيرة !٠٠ ثم عاد فى إثر اليزابيث زوجها شيريدان ، لكنه لم يكد يطأ ارض انجلترا حتى اشتبك مع غريمه «ماثيوز» فى مبارزتين ، جرح فى ثانيتهما جرحا خطيرا ٠٠ فعانت اليزابيث من الحزن والقلق عليه ما أوصل الازمة الى عنفوان حدتها ، بحيث اضطرت الاسرتان فى النهاية الى التسليم للشابين بما أرادا ، فعقدا زواجهما الدينى سنة ١٧٧٣ فى «كنيسة ماريلبون» ٠٠

ورغم انهما كانا فى تلك الفترة بلاموورد مالى يذكر - اللهم الا نصيب الزوجة الضئيل من ارث والديها - فان كبرياء شيريدان أبى عليه ان يقبل الارتزاق من غناء زوجته فى الحفلات الموسيقية المأجورة ، رغم العروض والاجور « الخيالية » التى عرضت عليها !٠٠

لكن انقطاع موارد الزوجين لم يمنعهما من الاسراف فى انفـاق مابقى من أموال اليزابيث ، فى بذخ وسفه جنونيين .. فاتخذا بيتا انيقا ، اثثاه بافخر الرياش ، وصارا يقيمان المآدب والولائم الحافلة باطايب الطعام والنبيذ المعتق .. حتى صارت دارهما ملتقى أعظم الرجال واجمل الحسان من روادبلاط سان جيمس !

◆ وفى تلك الاثناء عكف شيريدان على الكتابة ، برغم ميله الفطـرى الى الكسل والبلادة ، فمثلت مسرحيته الاولى « الغرماء » على خشبة مسرح «كوفنت جاردن» فى ١٧ يناير سنة ١٧٧٥ ، لكنها فشلت فسحبت من المسرح بعدليلتين ، ليجرى فيها المؤلف بعض التعديل . وعلى أثر التعديل نجحت المسرحية نجـاحا هائلا ، ماتزال تلقاه حتى اليوم . وفى نهاية العام نفســه كتب شيريدان بالاشتراك مع صهره «لينلى» قصة أوبرا «ذى دوينا» ، فظفرت بنجاح أكبر من سابقتها .. واذ ذاك واتت الشهرة والثراء شيريدان ، ودرت الروايتان علـى أصحاب مسرح «كوفنت جاردن» الذى تمثلان فيه ارباحا طائلة .. بحيث لم يكد المؤلف الشاب يسمع أن حصة أحد أصحاب المسرح المنافس « درورى لين » معروضة للبيع حتى سارع الى شرائها بمبلغ ٣٥ الف جنيه ، ونقل رواياته على الاثر الى المسرح الجديد .. فاستطاع ان يحصل منها على دخل كبير ، لم يلبث أن تضاعف فى العام التالى حين مثلت روايته الجديدة « مدرسة الفضائح» ابتداء من ٨ مايو سنة ١٧٧٧ ، فارتفعت من فورها الى مكانة أعظم كوميـديا تهكمية فىالادب الانجليزى على الاطلاق.وماتزال محتفظة بهذه المكانة حتىاليوم !

يكتب .. من اليد الى الفم !

◆ ورغم أن هذه الكوميديا الخالدة تعتبر تحفة من تحف الفن المصـقول ، فقد كتبها شيريدان على عجل وفى آخر لحظة ، كمـا كانت عادته .. فكانت صفحاتها تصل الى ايدى الممثلين تباعا وهم يقومون بتجاربهم على الفصـول السابقة منها . بل ان الفصل الاخير لم يسلم اليهم الا قبلليلة الافتتاح بخمسة أيام فقط ! وقد ذيله المؤلف فى نهايته بهذه العبارة : « اخيرا انتهت الرواية.. فحمدا لله ! »

والواقع ان جميع مسرحيات شيريدان قد اكملت بهذه الطريقة ، اى «من

اليد الى الفم !»٠٠ من ذلك ان روايته التالية «الناقد» حدد لبدء تمثيلها يوم ٣٠ اكتوبر ٠ لكن يوم ٢٧ حل ، والفصل الاخير من الرواية لم « يكتب» بعد ٠٠ برغم الحاح مدير المسرح وتوسلاته !٠٠ فلم يجد المسكين بدا من ان يستدرج شيريدان الى المسرح ذات ليلة ، ثم يغلق عليه باب مكتبه بالمفتاح ، ويطالبه بكتابة الفصل الاخير ، ولو بقى فى الغرفة حتى الصباح !٠٠ ولم ينس المدير طبعا أن يزود المؤلف الكسول بادوات الكتابة ، وبعشاء خفيف مؤلف من زجاجة نبيذ وعدد من الشطائر الشهية !٠٠ وتقبل شيريدان «المقلب» بصدر رحب ، فاكل وشرب ٠٠ وكتب الفصل المطلوب !

بل ان الامر من ذلك والانكى ، انه فى الليلة الاولى لتمثيل رواية اخرى لشيريدان تدعى «بيزارو» ، اسدلت الستار على الفصل الرابع ، والممثلون لم يتسلموا بعد مخطوط ادوارهم الخاصة بالفصل الخامس ٠٠ فاضطروا الى قراءة هذا الفصل الاخير على عجل أثناء فترة الاستراحة بين الفصلين !

من المجد الادبى ٠٠ الى المجد السياسى !

◆ لكن المؤلف العبقرى كان فاشلا فى ادارة المسرح ، فكان يترك آلاف الرسائل الواردة اليه بغير ان يفضها ٠ ونتج عن اهماله هذا فقد عشرات من «الشيكات» المالية التى كان فى أشد الحاجة اليها لمواجهة النفقات الباهظة !٠٠ وكان المسئول عن انصراف شيريدان عن رعاية شئون مسرحه على هذه الصورة ، زهده فى الشهرة المسرحية الادبية ، وطموحه الى الشهرة السياسية !

وبالفعل ، انتخب شيريدان عام ١٧٨٠ ـ وهو فى التاسعة والعشرين ـ نائبا عن بلدة « ستراتفورد » ٠ ونجح فى هذا المضمار منذ البداية ، بحيث ظل طيلة الخمسة والثلاثين عاما التالية معدودا من أعظم خطباء مجلس العموم ! واجمع من سمعوه على انه لو كان احترف المحاماة لغدا من اشهر المحامين فى «التاريخ» !٠٠ وفى سنة ١٧٨٩ احرز شيريدان نجاحه الاعظم كخطيب برلمانى ، حين هاجم حاكم «البنغال» الانجليزى المدعو «وارين هستنجز» واتهمه بالقسوة والاضطهاد للهنود فى حكمه ٠٠ وقد استمر يومئذ يخطب خمس ساعات ونصف ساعة دون توقف ، وبز فى فصاحته وروعة القائه وسرعة بديهته ، خطيب العصر الاشهر «وليم بيت» ٠٠ فاحدث من التاثير فى نفوس الاعضاء مالم يحدثه

خطيب آخر قبله أوبعده ٠٠ بحيث اضطر رئيس المجلس الى ارجاء اخذالاصوات الى اليوم التالى ، حتى يستطيع الاعضاء أن يكونوا رايهم فى روية ، غير متاثرين بفصاحة الخطيب وقوة اقناعه !

وبعد أربعة أشهر أحرز شيريدان مجدا آخر مماثلا حين خلب الباب السامعين من صفوة أهل لندن فى اجتماع خطير عقد يومئذ فى قاعة وستمنستر، واظهر فيه شيريدان من الموهبة والفصاحة الخارقة مالم يسمع بمثله فى تاريخ الخطابة على الاطلاق !

المصائب لاتأتى فرادى ٠٠!

◆ وظل صاحبنا ينتقل من مجد الى مجد ٠٠ فلما أصيب الملك جورج الثالث بالجنون وعين ولى عهده وصيا على العرش ، اختار شيريدان مستشاره الناصح ٠٠ لكن الدهر كان قد بدأ يقلب له ظهر المجن ، فاصيبت شقيقة زوجته بالسل وماتت عام ١٧٩١ ٠٠ ثم لحقت بها اختها ـ زوجته ـ رغم العناية الفائقة التى بذلها شيريدان لها ابان مرضها ٠ وكان موتها ضربة قاصمة للرجل ، زعزعت توازنه ، فانحدر على أثرها الى مهاوى اليأس والخمر والرذيلة ٠٠ وراكم « استهتاره » الديون على كاهله ، فبدأ يهمل فى دفع أجور الممثلين ، حتى تخلى عنه اكفاهم واقدرهم ٠٠ ثم اضطرته المنافسة المسرحية الى انفاق عشرات الالوف من الجنيهات على تجديد بناء المسرح وتزيينه وتاثيثه ٠٠

ولم يلبث أن زاد الطينة بلة زواجه الثانى ، فقد كانت زوجته الجديدة فى مثل اسرافه وسفهه !٠٠ ثم حلت به الكارثة القاضية ليلة ٢٤ فبراير سنة ١٨٠٩ ، حين ترامى اليه وهو فى مجلس العموم نبا اشتعال النار فى مسرحه المدلل ، الذى أنفق عليه كل مايملك !٠٠ وبلغ من فداحة النكبة ان اتجهت نية الاعضاء الى رفع الجلسة الى اليوم التالى كى يتسنى لهم مواساة زميلهم ومشاركته مصابه ٠٠ لكن شيريدان ، بكبريائه الهادئ المالوف ، اعترض على فكرة تعطيل مصالح الدولة من أجل مسالة فردية !٠٠ وانسحب بمفرده ليشهد آماله جميعا تتهاوى هشيما وحطاما !٠٠ ورغم ذلك فقد كان له من الشجاعة وقوةالاعصاب مامكنه من أن يجلس فى مقهى مواجه للمسرح المحترق ، كى يتناول شرابا ٠٠ وهو يرقب النار تاتى على كل مايملك !٠٠ وحين علق صديق له على ذلك

« الهدوء الفلسفى » الذى تحمل به الصدمة ، كان جواب شيريدان : «اليس من حق الانسان أن يشرب قدحا من النبيذ الى جوار « مدفاته » ؟

نهاية مفجعة !

◆ وفى سنة ١٨١٣ فقد شيريدان مقعده البرلمانى ، ففقد بذلك حصانته من دخول السجن ، جزاء عجزه عن سداد ديونه !٠٠ وهكذا قضى الاعوام الثلاثة الاخيرة من حياته وشبح السجن الرهيب يقض مضجعه ويتراءى له ليل نهار ٠٠ وتخلى عنه ـ طبعا ـ أكثر أصدقائه ٠٠ فعاش تلك الفترة المريرة ولا هم له غير اقتراض مايقوم باوده ويذود المحضرين عن بيع أثاث بيته ، او على حد تعبيره فى خطاب كتبه الى احد اصدقائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له : « انى بحاجة ماسة الى ١٥٠ جنيها ٠٠ والا فانهم سوف يلقون سجاجيد البيت من النافذة ويقتحمون مخدع زوجتى لياخذونى الى السجن ٠٠ فبربك انقذنى ! »

وانقذه صديقه ، ولكن وقتيا ٠٠ فقد كانت ديونه لاآخر لها ٠ وبعد أيام جاءه المحضرون ليقتادوه الى السجن ، لولا أن منعهم الطبيب قائلا انه يحملهم مسئولية موته لو فعلوا !

ومات شيريدان ، يوم ٧ يوليو سنة ١٨١٦ ٠٠ وعندئذ ، بدورة ساخرة من دورات عجلة الحظ ، شيع المدين المفلس الى قبره بجنازة هائلة سار فيها اثنان من الامراء ، ونصف نبلاء ودوقات المملكة !٠٠ ولكن حتى فى تلك الساعة كان القدر يدخر له مزيدا من سخريته ، فقد دفنوه فى مقبرة عظماء رجال الادب والفن ـ الذين كان زاهدا فى جيرتهم ـ وليس فى مقبرة عظماء رجال السياسة ٠٠ كماكان يشتهى !

والآن ٠٠ تعال معى ندخل « مدرسة الفضائح » :

ـ ١ ـ

◆ ترفع الستار فاذا نحن فى دار «ليدى سنيرويل» ، احدى سيدات لندن المترفات ، حيث نتعرف اليها والى افراد «بطانتها» من الصديقات والاصدقاء ، الذين لا هم لهم غير سلق سيرة الناس بالسنتهم الحادة ، وتمزيق سمعة الاصدقاء والاعداء على السواء !٠٠ فهم يؤلفون فيمابينهم شبه « مدرسة »

للفضائح ، أفرادها كلهم هواة وهاويات ، ليس بينهم غير «محترف» واحد هو المخبر الاجير « سنيك SNAKE » ـ ومعناه ثعبان ! ـ وهو يعمل فى خدمة صاحبة الدار ، لتزويدها بماتشاء من المعلومات والفضائح عن الاشخاص الذين يدفعها فضولها الى كشف أسرارهم !٠٠ وخير وصف لخلق « سنيك » هذا انه «لايملك الكفاية من الفضيلة كى يخلص حتى لنفسه ! »

« المدرسة » مجتمعة بكامل هيئتها واعضائها ، لممارسة هوايتهم المفضلة ٠٠ وقد ساد جو الاجتماع ستار من الهمسات والشائعات ، و «قنابل اللسان» الكافية لقتل طابور من الشخصيات !٠٠ ومن الحوار المتبادل بين الاعضاء نستطيع ان نفهم الجو التمهيدى للقصة ، وان نتعرف على اكثر شخصياتها الرئيسية :

نتعرف على « سير بيتر تيزل » ، وهو نبيل كهل عاش أعزب حتى سن الخمسين ، ثم تزوج من حسناء شابة من بنات احد سادة الريف ٠ ولكن لم تنقض على زواجه سبعة اشهر حتى ندم على تهوره فى زيجته ، فان زوجته التى انتقاها خصيصا من اهل الريف سرعان مابزت نساء العاصمة فى اسرافها ومجونها ، وتعلقها بالمظاهر الجوفاء ، ونهشها سير الناس واعراضهم !٠٠ ورغم ذلك فان لها من الصفاقة وبلادة الطبع مايجعلها تحتمل تانيب زوجها لها فى برود ، دون ان تفقد زمام اعصابها !

لكن متاعب سير بيتر مع هذه الزوجة لاتقتصر على ذلك ، بل انه قد بدا يرتاب فى ان تكون لها صلة آثمة مع المدعو «شارل سرفيس» ، وهو شاب كريم الخلق فى الواقع ، وذو قلب ذهبى ، لكنه عديم الحذر فى كلامه وابداء آرائه ، بحيث جنبت عليه طيبته وحماقته سوء السمعة !

وهو فى خلقه وسمعته على العكس من آخيه «جوزيف سرفيس» ، المرائى الماكر ، اوالنذل الزنديق ، الذى يفلح بدهائه فى أن يحتفظ لنفسه بسمعة حسنة !٠٠ وهكذا نرى الشقيقين يتنافسان خفية على الظفر بالزواج من الحسناء « ماريا » ـ وهى فتاة يتيمة خاضعة لوصاية سير بيتر تيزل ـ لكن اهدافهما وأسلحتهما التى يستعملانها للوصول الى غايتهما المشتركة تختلف باختلاف خلق كل منهما : فبينما يريد جوزيف الفتاة طمعا فى مالها وحده ، نرى شقيقه النبيل شارل يريدها لشخصها ، وحبا فيها !٠٠ وبينما يسعى شارل الى هدفه بالطرق الشريفة المشروعة ، اذا بشقيقه الخبيث جوزيف يسعى الى نفس الهدف

بطريقته الخاصة الملتوية ٠٠ فيتقرب الى ليدى تيزل (زوجة الوصى على الفتاة) كى يكسبها الى صفه ، ضد اخيه ومنافسه شارل !

لكن الزوجة اللعوب تجهل نوايا الشاب الماكر ، فتصغى الى مغازلاته بارتياح ، ظنا منها بانه يحبها لشخصها !٠٠ وكما تنخدع هى فيه ، ينخدع فيه زوجها سير بيتر بدوره ، فيحسن به الظن بقدر مايسيئه بشقيقه شارل ، قياسا على المظاهر - برغم أن الشقيقين نشآ فى كنفه ورعايته منذ وفاة أبيهما فكان هو لهما شبه قيم ! - وبحكم هذه الخديعة المزدوجة نراه وزوجته يشجعان جهود جوزيف فى سبيل الظفر بيد الفتاة ماريا ، بقدر مايعرقلان جهود اخيه المسكين شارل !٠٠ وذلك برغم ميل الفتاة نفسها الى شارل ، ونفورها من جوزيف !

ثم تتعقد الامور حين يرتاب سير بيتر فى مسلك زوجته ، فيتهمها - فى ذهنه فقط - بعلاقة آثمة مع شارل ، بحكم سوء سمعته ، وغفلته ٠٠ بينما يغفل عن علاقتها الحقيقية مع جوزيف ، بحكم حسن سمعته ، ودهائه !٠٠ وهكذا نرى المسكين دائم الشجار مع هذه الزوجة الشابة ، الحسناء ، اللعوب ، التى يحبها - رغم كل شىء ! - حبا يقرب من العبادة :

سير بيتر تيزل (الزوج) : ليدى تيزل ، ليدى تيزل ٠٠ هذا لايحتمل !

ليدى تيزل (الزوجة) : سير بيتر ، سير بيتر ، تستطيع أن تحتمل أو لاتحتمل كما تشاء ٠٠ لكنى سأنفذ رغباتى فى كل شىء ، فبالرغم من نشأتى فى الريف أعلم جيدا أن نساء لندن المترفات لايخضعن بعد زواجهن لاحد !

الزوج : هذا بديع ، بديع جدا ٠٠ اذن فليس للزوج نفوذ أوسلطان على زوجته ؟

الزوجة : اذا أردت أن يكون لك سلطان على فقد كان ينبغى أن تتبنانى لاأن تتزوجنى ٠٠ وأنا واثقة أن سنك كانت تسمح لك بهذا التبنى !

الزوج : سنى ؟ آه ، مرحى مرحى ٠٠ لئن كانت طباعك تشقينى وتسمم حياتى ، فان فى ذلك الكفاية ٠٠ وأنا لن أسمح لك بتدمير مركزى المالى أيضا باسرافك وتبذيرك ٠٠

◆ لكن سير بيتر لايعترض على اسرافها وحده ، بل على اصدقائهـا الذين تصطفيهم ايضا ، اعضاء مدرسة الفضائح :

الزوجة : ماذا ؟٠٠ أتريد أن تحرمنى حرية الحديث ؟

الزوج : نعم ، فانهم قدجعلوك مثل أسوأ فرد منأفراد الجماعة !

الزوجة : لـكنك وعدت بأن تحضر أحـــد اجتماعاتنـــا فى منزل ليدى سنيرويل كى تحكم بنفسك ؟

الزوج : الواقـع أنى أريد الذهاب الى هنـــاك مرة كى أرى الامر بنفسى ٠٠

◆ ويذهب سير بيتر بالفعل ليحضر احدى « دورات انعقاد » مدرســة الفضائح ، المنعقدة فى دار ليدى سنيرويل ٠٠ وحين يدخل يجـدهم منهمكين كعادتهم فى « تشريح » اصدقائهم الغائبين وسلخ جلودهم ، فيقول احدهم :

ـ خذوا مثلا مسز أوجيل : ان لها أقبح خلقة رأيتها فى حياتى ، فقسمات وجهها خليط يمثل كافة أجناس البشر !

ـ هذا صحيح ٠٠ فجبهتها كالايرلنديات !

ـ وأنفها كأهل هولندة ٠٠

ـ وفمها كالنمسويات !

ـ وبشرتها كالاسبانيات !

ـ وأسنانها كنساء الصين ٠٠!

ـ وبالاختصار ليست لها قسمتان تمتان الى شـــعب واحد !

ـ تماما ٠٠ حتى عينيها تنظر كلاهما نحو الاخرى !

ـ لايستثنى من هذه القاعدة غير ذقنها وأنفها ، فهمـــا العضوان الوحيدان القريبان من بعضهما البعض !

سير بيتر (محدثا نفسه) : شيئا من الرحمة ياقوم بالمرأة التى تتعشون معها مرتين كل أسبوع (**يخاطب الجماعة**) أرجو المعذرة اذا طالبتكم بالكف عن تناول سيرة هذه المرأة أكثر من ذلك ، اذ تربطنى بها صلة صداقة ٠٠

ليدى تيزل : لاتعبأوا بكلام زوجى أيتها السيدات والسادة ،

فهو يحمل فى قلبه ضغنا ضد اثارة الفضائح ، ولو استطاع لطالب بسن تشريع يعاقب عليها !

سير بيتر : ليتنى أستطيع ذلك فعلا · بل بودى لو أضفت الى الوصايا العشر وصية جديدة هذا نصها : « ولاتقتل سمعة أحد ! » **(يدخل خادم يهمس فى أذنه بكلام ، فيستدير مخاطبا ربة البيت مسز سنيرويل)** اسمحى لى ياسيدتى أن أنصرف بسبب عمل هام ·· لكنى سأترك لكن سيرتى !

◆ **وينصرف سير بيتر ·· فينتقل الباقون - عدا الشاب جوزيف وليدى تيزل - الى الغرفة المجاورة ليلعبوا الورق · ويحاول جوزيف ان يغازل ليدى تيزل ·· لكنها تقابل محاولاته ببرود ، لا زهدا فى الغزل ، وانما غيرة من حبه الظاهر للفتاة ماريا (فقد بدات تتنبه اليه اخيرا !) :**

ليدى تيزل : ان اهتمامك بى يخجل تواضعى يامستر جوزيف، لكنى أخشى أن ينتقدنا أصدقاؤنا فى الغرفة المجاورة ·· فلنلحق بهم **(وتخرج)**

جوزيف : يالها من شبكة معقدة ·· لقد أردت فى البداية أن أكسب ود ليدى تيزل كى تقف فى صفى بشأن مشروع زواجى من ماريا ·· فاذا أنا أتورط فى حبها جديا !

- ٢ -

◆ **وهنـا ينضم الى ابطال القصـة شخص جديد ، هو « سير اوليفر سرفيس » ، العم الثرى لكل من جوزيف وشارل ·· وقد عاد اخيرا الى انجلترا بعد اقامة طويلة فى الهند ، فجاء يزور صديقه القديم سير بيتر ، يصحبه فى الزيارة المدعو (رولى) الذى كان يشرف على مصالحه فى لندن أثناء غيابه · وهما يتحدثان معا فى انتظار دخول رب البيت :**

سير أوليفر : واذن فقد تزوج سير بيتر من شابة حسناء من الريف ؟ ها ها ها ·· لقد عجز عن أن يظل أعزب مثلى ، فتورط فى الزواج آخر الامر ! ·· ثم ماهذا الذى تقوله لى عن نبذه لابن أخيه شارل وامتناعه عن رؤيته منذ زمن ؟

رولى : ان حقده على شارل يدعو الى الدهشة حقا • ولكن يبدو أنه يغار منه بسبب صلته المزعومة مع ليدى تيزل • وكل ذلك بسبب أولئك الشغوفين بالفضائح ، الذين أساءوا الى سمعة شارل ولطخوها بالوحل ، بينما الحقيقة – فيما أعتقد – هى أن ليدى تيزل اذا كانت تعبث مع أحد الشقيقين فانه يكون جوزيف لا شارل !

◆ **ولكن حين يدخل سير بيتر الغرفة ويتحدث ثلاثتهم فى امر اخلاق الشقيقين نراه يصر على ان شارل – وليس جوزيف – هو النذل !•• وامام هذا التضارب فى الآراء يعتزم سير اوليفر – عم الاثنين – ان يكتشف بنفسه طبيعة خلق كل من ابنى اخيه ، كى يعرف ايهما الجدير بعطفه ، وثروته ! ولماكان قد قضى بعيدا عن انجلترا خمسة عشر عاما ، فان كليهما يجهل شكله •• ومن ثم يفكر الماكر فى ان يزور كلا منهما على حدة ، منتحلا لنفسه اسما مستعارا •• فيتقدم اولا الى شارل على اعتبار انه مستر «بريميام» المالى الثرى ، كى «يعرض» عليه قرضا •• ثم يتقدم الى جوزيف باسم مستر «ستانلى» ، القريب المعدم الذى «يطلب» منه قرضا !**

وبعد ان يتم سير اوليفر الاستعداد للقيام بخدعته المزدوجة ، يمضى الى بيت شارل بصحبة مراب يدعى «موسى» اعتاد ان يقرض شارل مبالغ طائلة :

موسى (الى شارل) : سيدى ، هذا هو مستر بريميام ، الجنتلمان الذى تستطيع أن تطمئن الى شرفه وكتمانه (ثم يستدير محدثا « بريميام ») وهذا مستر شارل سيرفيس •

شارل : دعنا ندخل فى الموضوع رأسا يامستر بريميام : أنا شاب مسرف يعمد كثيرا الى اقتراض الاموال • وأنت – على مافهمت – رجل حريص عنده مال يقرضه •• والآن ، ماهى شروطك ؟

سير أوليفر : انك ياسيدى مخطىء فى شىء واحد ، فليس عندى مال أقرضه ، وانما لى صديق أستطيع أن أحصل منه على مايلزمك • ولكن تلزمنى ضمانات •• فماذا عندك لى منها ؟ هل تملك عقارات ، أوفضة قديمة ، أوكتبا ؟

شارل : لاشىء من ذلك على الاطلاق ••

أوليفر : ولاممتلكات عائلية من أى نوع ؟
شارل : أشياء تافهة ٠٠ الااذا كانت تهمك لوحات صور الاسرة ، فعندى منها غرفة كاملة فى الطابق العلوى ، مليئة بصور الاجداد ٠٠
أوليفر : ماذا ؟ أتبيع أجدادك ؟
شارل : الى آخر سلف منهم !
أوليفر : اذاكان الامر كذلك فأنامستعد لاتمام الصفقة **(يخاطب نفسه)** أوه ، اننى لن أغتفر له هذه السقطة ٠٠ أبدا !

- ٣ -

◆ ويصعدان الى غرفة المخزن ، حيث يساوم الفتى سير اوليفر على اسلافه ، واحدا واحدا ، ثم يتعب من هذه الطريقة فيقترح ان يبيعه جميعهم دفعة واحدة :

شارل : ماذا ترى يامستر بريميام ؟ أعطنى ثلاثمائة جنيه ، تنتقل ملكية العائلة كلها اليك !
أوليفر : حسنا ، كماتشاء ٠٠ ولكن هناك صورة **(يشير الى لوحة على الحائط)** مررت بها مرالكرام ولم تدخلها فىالحساب ٠٠
شارل : أوه ، هذه ؟ انها صورة عمى أوليفر
أوليفر : أحسب أن العم أوليفر يدخل ضمن الصفقة ؟
شارل : كلا ، دعه فى مكانه ، فلن أفرط فى «أوليف» المسكين ٠ ان الرجل كان طيبا وكريما معى ، وسأحتفظ بصورته طالما أجد مكانا لها

◆ ولكى يختبر اوليفر درجة اعتزاز ابن اخيه به يعمد الى اغرائه بالمال ، فيعرض عليه ثمانمائة جنيه – بدلا من ثلاثمائة – مقابل ادخال الصورة ضمن الصفقة ٠٠٠ لكن الشاب يابى التفريط فيها !

ويخرج سير اوليفر وموسى بعد دفع المبلغ الى شارل ، الذى يضعه فى حافظته ثم ينحنى محييا صور أجداده : « سيداتى وسادتى ، تقبلوا تحية خادمكم المطيع الشاكر ! »

- ٤ -

.. فاذا كان الفصل التالى رأينا سير اوليفر يزور ابن اخيه الثانى «جوزيف» ، متنكرا باسم « مستر ستانلى » .. فيقابله الشاب فى ترحيب يمليه عليه النفاق :

جوزيف : لم يكن لى حظ معرفتك من قبل يامستر ستانلى ، ولكن يسعدنى حقا أن أراك تبدو فى صحة جيدة . انك تمت بصلة القرابة الى أمى ، أليس كذلك ؟

أوليفر : بالضبط ياسيدى .. وان قرابتى لها لوثيقة الى حد أنى أخشى أن تؤثر فاقتى الحالية فى المركز الاجتماعى لاولادها الاغنياء ، ولولا هذا لماجرؤت أن أزعجك ..

جوزيف : سيدى العزيز ، لا داعى للاعتذار .. وان مايؤسفنى حقا هو أنى لاأستطيع أن أمد اليك يد المساعدة ، ولو بقدر ضئيل ..

أوليفر : لكنى أحسب أن سير أوليفر قد أرسل لك من الهند مبالغ سخية من المال ؟

جوزيف : ياعزيزى ، انك مخدوع فى معلوماتك هذه ، فان سير أوليفر رجل مقتدر فعلا ، جد مقتدر ، لكنه طاعن فى السن . والبخل رذيلة الشيخوخة يامستر ستانلى !

أوليفر (مخاطبا نفسه) : هذا هو جزائى على الاثنى عشر ألف جنيه التى أرسلتها للنذل ! (ثم يتجه الى محدثه) اذن فأنت لاتستطيع مساعدتى ياسيدى ؟

جوزيف : فى الوقت الحاضر يحزننى أن أقول انى لاأستطيع ..

أوليفر : انى آسف للغاية ..

جوزيف : لست أشد أسفا منى ، صدقنى .. فان الاشفاق المصحوب بالعجز عن فك ضائقة المتضايق أشد ايلاما من أن تطلب فلايجاب طلبك !

أوليفر (وهو ينحنى) : سيدى الرحيم ، تقبل تحيات خادمك

المطيع المتواضع

جوزيف (ينحنى بدوره) : انك تتركنى متأثرا للغاية ٠ طاب يومك يامستر ستانلى ، ولك أسخى تمنياتى الطيبة بالصحة والصبر **(ينادى الخادم)** وليم ٠٠ أرشد السيد الى الباب

أوليفر (مخاطبا نفسه وهو يخرج) : شارل ٠٠ أنت وريثى !

- ٥ -

◆ **ويعود سير أوليفر من زيارتيه مشوقا الى ان ينهى نباهما ونتائجهما الى صديقه القديم سير بيتر تيزل ٠ لكن هذا غارق فى مشاجراته مع زوجته ، فهو يتهمها بخيانته :**

الزوج : لقد نمى الى سمعى ياسيدتى أنك وشارل ٠٠ على صلة معا !

الزوجة : حذار ياسير بيتر ! خير لك ألا تخوض فى هذا الموضوع ٠٠ والا فاننى لن أظل موضع اتهام «ظالم» ٠ كن على ثقة من ذلك !

◆ **وتنفيذا لتهديدها تقرر الزوجة ان تعطى زوجها مبررا كافيا لاتهامها ٠٠ ومن ثم فهى تزور جوزيف - لا شارل - فى بيته الخاص !**

واثناء خلوتهما ، يعلن الخادم حضور زوجها سير بيتر ، الذى جاء ليطرح متاعبه على مسامع جوزيف ٠٠ فتختبىء الزوجة وراء ستار قبل ان يؤذن لزوجها بالدخول :

سير بيتر : ياصديقى العزيز ، ان مسلك ليدى تيزل فى الفترة الاخيرة يجعلنى أشقى البشر ٠٠ فلدى من الاسباب مايقنعنى بأنها على صلة برجل آخر : هو شقيقك شارل !

جوزيف : أخى ؟ مستحيل !

بيتر : ياعزيزى ، ان طيبة قلبك تغرر بك ٠٠ فأنت تحكم على الآخرين حسب نواياك ، ولا تدرك مبلغ ضعة أخيك ٠٠

جوزيف : هذا شىء لايصدق ٠٠ ولكن اذا صح فانى لن أتردد فى اعلان براءتى من أخى !

بيتر : ما أبعد الفارق بينكما ٠٠ وما أنبل عواطفك !

◆ **ثم يستطرد الزائر من ذلك الى مصارحة مضيفه بحبه المبرح لزوجته :**

بيتر : انى أحبها برغم كل شىء ٠٠ الى حد أنى اتخذت الاجراءات التى تكفل حصولها على ثمانمائة جنيه سنويا أثناء حياتى ، وكل ثروتى بعد موتى !

جوزيف : هذا تصرف كريم حقا من جانبك ياسير بيتر **(مخاطبا نفسه)** وان كان كفيلا بأن يفسد عاطفة ليدى تيزل من نحوى !

◆ **ويشتد بجوزيف القلق خشية ان يفتضح امر وجود الزوجة فى غرفته ، فيحاول جاهدا أن يجد سبيلا للتخلص من زوجها باسرع مايمكن ٠٠ ولكن يزيد من ارتباكه فى تلك الآونة دخول الخادم معلنا قدوم اخيه شارل :**

بيتر : انه يأتى فى أنسب وقت ٠٠ سوف أختبىء فى مكان ما بينما تحدثه أنت بشأن ليدى تيزل ٠٠ فان جوابه سوف يكشف لى حقيقة المسألة كلها ! **(ويحاول أن يختبىء خلف «البرافان» الذى اختبأت وراءه زوجته ، لكنه يتوقف فجأة ويهتف بمحدثه)** : ياللشيطان ! يبدو أن أحدهم قد سمع حديثنا كله ، فلقد لمحت حركة هنا ٠٠

جوزيف (محاولا اخفاء ارتباكه) : انه ٠٠ انها بائعة قبعات فرنسية

بيتر : آه ، أيها الخبيث ! من كان يتوقع منك هذا ٠٠ ولكن الطامة الكبرى أنها سمعت كل ماقلته عن زوجتى ٠٠ !

جوزيف : انها لن تنقل حرفا مما سمعت ٠٠ تستطيع أن تطمئن الى ذلك ٠

بيتر : حسنا ، دعها اذن تسمع البقية ٠٠ فلأختبىء داخل هذا الدولاب !

جوزيف (مخاطبا نفسه) : انها فرصتى كى ألطخ شخصية شارل على مسمع من سير بيتر **(يدخل شارل فيخاطبه شقيقه)** : يؤسفنى أن أسمع يا أخى أنك تسبب ازعاجا للسير بيتر ٠٠

شارل : كيف ذلك ؟ بربك خبرنى ٠٠

جوزيف : انه يعتقد أنك تحاول أن تسلبه حب زوجته ليدى تيزيل !

شارل : من ؟ أنا ؟ يا الهى ، أقسم أن هذا غير صحيح ٠٠ بل لئن كان هناك من يفعل ذلك فهو أنت ياجوزيف ٠ ألا تذكر يوم جئت لزيارتك فوجدتها معك ؟٠٠ ومرة أخرى حين قال خادمك ٠٠

جوزيف (هامسا) : صه ! ان سير بيتر يسمعنا ٠٠ انه هنا ، داخل الدولاب !

شارل : أوه ، سير بيتر هنا ؟ هيا واخرج ياسير بيتر ! **(يجذبه من مكانه)**

◆ **وقبل ان يتبادل الاثنان الايضاحات والعتاب يدخل خادم فينبىء جوزيف بان ليدى سنيرويل - التى كانت بدورها من « نسائه » المفتونات به - تنتظره فى الطابق الاسفل ٠٠ فيمضى لمقابلتها تاركا ضيفيه يتناقشان :**

شارل : يالنفاق أخى ٠٠ انه يتظاهر بأنه قديس !

بيتر : مجرد تظاهر ٠٠ أتعلم أنه يخفى فتاة فرنسية وراء هذا «البرافان» الآن ؟

شارل : اذن هيا بنا نزيح عنها الستار ! **(ويجذب الحاجز جانبا ٠٠ فيشهق مذهولا حين يرى خلفه ٠٠ زوجة بيتر!ويهتف) :** ليدى تيزل٠٠ما أغرب هذا !

بيتر : ليدى تيزل ٠٠ ما أبشع هذا !

◆ **وفى هذه اللحظة يدخل جوزيف - بعد ان صرف الليدى سنيرويل - فيفاجا بانكشاف امر عشيقته ٠٠ ويحاول تبرير الامر زاعما انها جاءت لتفاوضه فى شان زواجه من « ماريا » الابنة المتبناة لسير بيتر !٠٠ لكن ليدى تيزل نفسها تقاطعه فى جراة :**

ليدى تيزل : لاتصغ الى هذا المرائى يابيتر ٠ لقد جئت مدفوعة باغراء محاولاته المتكررة كى أسمعه يفاتحنى بحبه ، وأبذل شرفك ضحية على مذبح ضعته !٠٠ لكننى قد استعدت صوابى ٠ سير بيتر ، ان الرقة التى عبرت بهاعن عواطفك نحوى ـ وأنت تجهل أنى أسمعك ـ قد نفذت الى قلبى ٠٠ ولئن كنت لاأطمع فى أن تصدقنى الآن ، فانى أرجو أن تدع مسلكى فى المستقبل يعبر لك عن امتنانى ٠٠

بيتر : لك ثقتى الكاملة ياليدى تيزل ٠٠

جوزيف : بالرغم من هذه الملابسات كلها ياسير بيتر ، فان السماء تشهد ٠٠

بيتر : انك نذل !

- ٦ -

◆ **ومرة اخرى تنعقد دورة « مدرسة الفضائح » بكامل هيئتها !٠٠ وفى هذه الجلسة يكون « طبق اليوم » فى وليمة الوشاية والافتراء والغيبة ، هو شرف « سير بيتر » !٠٠ فان قصة زيارة زوجته لجوزيف فى داره قد تداولتها الالسنة فتضخمت شيئا فشيئا :**

ـ انه شارل الذى ضبطت معه ليدى تيزيل !
ـ كلا ٠٠ أؤكد لكم انه جوزيف ٠
ـ بل شارل ، لقد سمعتها من شخص ٠٠
ـ سمعها من شخص ، سمعها بدوره من ٠٠
ـ كلا ، بل انى سمعتها مباشرة من شاهد عيان ٠٠
ـ يقال انهما تبارزا ٠٠!
ـ بالسيف ؟
ـ كلا ، بل بالمسدس ٠٠
ـ وقد جرح سير بيتر جرحا خطيرا ٠٠ الخ

◆ **وبينماتجرى كل هذه المناقشات فى بيت سيربيتر ، حيث جاء ناهشوالسير والاعراض يتنسمون انباء العلاقات بين سير بيتر وزوجته ، تحت ستار العطف**

المزعوم والصداقة !.. يدخل سير بيتر ، متسائلا عن سبب الضجيج ، فتهب عليه عاصفة من التهانىء والعبارات المنطوية على غمز :

– ظننت انك فى حالة خطرة ياسير بيتر ..

– بل سمعت أنا انك .. قد انتهيت !

– كم يسرنى أن أراك سليما معافى ..

– كان من الخطأ أن تتزوج وأنت فى هذه السن ..

– ومن امرأة شابة ..

– على أى حال لاتعبأ بكلام الناس وضحكاتهم !

سير بيتر : أيتها الافاعى والابالسة .. اخرجوا من بيتى فورا !

واذ ذاك يتقاطرون نحو الباب واحدا واحدة .. ولكن بعد ان يطلق كل من لسانه السام .. طلقة اخيرة !

وقبل ان نغادر اسوار مدرسة الفضائح ، نحضر زفاف شارل وماريا .. ونرى العروسين السعيدين يتقبلان التهـانىء من سير اوليفر ، وسير بيتر ، وليدى تيزل ..

اما جوزيف النذل .. فقد دارت عليه الدائرة !

(ستـــار)

شيريدان .. وحاسـده !

كان من بين كتاب المسرح المعاصرين لـ « شيريدان » كاتب – من الدرجة الثالثـة – يدعى « كمبرلاند » ، بلغ من غيرته من شيريدان بسبب شهرته ونجاحه انه لم يكن يدع فرصـة تمر دون ان يغض من شانه وشان رواياته !..

وذات يوم التقى شيريدان بصديق له ، فقال الصديق ان كمبرلاند يحدث كل من يصادفه عن سخف رواية « مدرسة الفضائح » ويعجب للذين يجدون فيها اية فكاهة طريفة تضحك من يشاهدها ..

وعندئذ سال شيريدان محدثه فى هيئة الجاد :

– ماذا ، الم يضحك كمبرلاند من كوميديتى ؟

– كلا ..

– هذا نكران للجميل من جانبه ، فقد ضحكت انا من « ماساته » الاخيرة حتى كاد يغمى على !

يتلقى العالمان الامريكيان « صامويل ج » و « استر كلينج » — الاخصائيان فى شئون الزواج ومشكلاته — عشرات الاسئلة والاستفسارات كل يوم من نساء ورجال يلتمسون معرفة الصواب فى ما استغلق عليهم حله من معضلات الحب والزواج ومشكلاتهما . ويرى القارىء من هذه الامثلة الثلاثة التى اقدمها اليه اليوم من سجل دراسات العالمين المذكورين ، ان الصراحة لم تنقص السائلين فى أسئلتهم ، ولا المجيبين فى اجاباتهما .. وان مقاييس الاخلاق فى امريكا حتى اليوم لاتكاد تختلف فى صميمها عنها فى بلاد الشرق ، وليست كما يذهب غلاة المنساقين فى تيار « المدنية » الحديثة المزعومة ..

السؤال الاول

◆ **هل** ينبغى ان يتمسك الشاب او الفتاة بالمبادىء الاخلاقية فى صلتهما المتبادلة ، حتى حين يكون الشاب مقدما على سفر طويل ، أو ذاهبا الى ميدان القتال مثلا ، أو الى رحلة خطرة قد لايعود منها ؟

الجواب

بلاشك !.. ففى الوقت الذى تحارب فيه القوات المتحالفة فى كوريا ، تتعرض الوف الفتيات لاغراء الاستجابة لتوسلات عاشقيهن بصدد الاستسلام للصلة الجنسية !.. فقد يتوسل الشاب الى بلوغ غايته هذه بالقول انه يواجه

خطر الموت ، وانه ماض الى بلاد غريبة تبعد عن وطنه واهله الوف الاميال ، ولن يرى فيها وجه امراة تسرى عنه ٠ ومن ثم فهو فى حاجة الى تضحية غالية يتذكر بها فتاته ٠٠ وان هذا هو السبيل الذى تساهم الفتاة به فى القيام بنصيبها من خدمة الوطن ، عن طريق تقويتها لمعنوية الشبان المحاربين ٠٠ الخ

بل قد يذهب الشاب فى مساومة محبوبته الى حد بذل الوعد لهـا بالزواج منها بمجرد عودته من غربته ٠٠ اذا منحته مايطلب !

ونحن ننصح بأن يكون الجواب على كل هذه التوسلات والمساومات والمناقشات ، الرفض المؤدب الجازم ... فالصلات الجنسية السابقة للزواج ـ سواء فى وقت السلم او الحرب ـ امر ينبغى تلافيه .. للاسباب الآتية على الاقل :

العدوى ٠٠ والحمل ٠٠ والعار !

◆ هناك اولا الخطر الماثل على الدوام فى هذه الامور ، وهو خطـر الاصابة بالامراض التناسلية المعدية ، فبالرغم من تقدم الطب والعلم ـ بما فى ذلك استخدام البنسلين ـ مايزال ينبغى ان لايخاطر انسان بتعريض نفسه لعدوى تلك الامراض

◆ ثم هناك خطر الحمل ٠٠ وهنا ايضا تدل الاحصاءات والشواهد على ان اضمن الوسائل الواقية من هذا الخطر ليست معصومة من الزلل ، فضـلا عن ان هذه الاحتياطات ذاتها يغفلها الطرفان احيانا تحت تاثير العاطفة المحتدمة والشهوة الطائشة ١٠٠

والواقع ان انجاب طفل دون ارتباط الوالدين بالزواج ما يزال رذيلة بغيضة الى المجتمع فى هذاالعصر مثلما كانت فى اى عصر سابق .. فهى مجلبة للعار والحسرة والهم ، لا بالنسبة للام فحسب ، بل وبالنسبة للطفل ايضا ..

وقد يقال فى هذا الصدد ان «الحمل» يحمل الرجل على الزواج من الفتاة التى جنى عليها ! لكن الواقع عكس ذلك تماما ، فان الرجل حين يحصل على مبتغاه يفقد فى العادة شوقه الى الزواج من الفتاة التى فرطت له فى نفسها ٠

فضلا عن شعوره بان المراة التى استسلمت له اليوم قد تستسلم لغيره غدا ٠٠ بل انه قد ينكر حتى أنه والد الطفل !

وحتى لوكانت المراة « محظوظة » واستطاعت ان تحمل الرجل على الزواج منها بعد ان حملت منه ، فالاغلب ان مثل هذا الزواج « الاجبارى » لايتمخض عن السعادة المنشودة ٠٠

ماضى المرأة ٠٠ يلاحقها دائما !

◆ ثم هناك دائما ذلك الشعور بالاثم الذى يقترن بالصلة الجنسية التي تتحقق قبل الزواج . فالفتاة التى تستسلم لرجل فى ساعة ضعف ، لاتلبث أن تأسف وتندم ـ سواء بعقلها الظاهر أو الباطن ـ على تسرعها واندفاعهـــا مع عاطفتها ٠٠ ويركز فى مؤخرة عقلها شعور مبهم بانها ارتكبت أمرا شائنا ٠٠ وهذا الشعور بالاثم لايلبث أن يفسد سعادتها المستقبلة ، حتى بعد الزواج !

فهى حين تلتقى برجل يبغى الزواج منها تروح تسائل نفسها فى حيرة عما اذا كان الاصوب ان تكاشفه بماضيها اوتكتمه عنه !٠٠ وتتنازعها شكوكها فتحدث نفسها : «لوصارحته فربما افقده ٠٠ وان لم اصارحه فقد يكتشـــف الامر من تلقاء نفسه فيمابعد فيتركنى ! »

ومهما يكن قرارها فهى الخاسرة ٠٠ فلواعترفت له بكل شىء قبل الزواج ولم يعدل عن الزواج منها فاغلب الظن انه لن يلبث ان يبعث ماضـــيها من مرقده عند اول مناسبة اواحتكاك ، وسوف يصعب عليها أن تدفن ذلك الماضى وتتخلص منه نهائيا ٠٠ واذا لم تعترف له ، وافترضنا انه لن يكتشف الحقيقة من جهة اخرى ، فان هذه المراة لن تسعد مع ذلك فى زواجها ، بسبب شعورها القوى بالاثم !

فاذا اردت يا آنستى ارضاء صديقك اوخطيبك ، فحذار من ان يكون ذلك على حساب عفتك ٠٠ وحذار ثم حذار من ان تفرطى فى مبادئك الاخلاقية ، والا فقدت سكينة النفس التى هى أساس السعادة الحقة ، فى حاضرك ومستقبلك !

السؤال الثانى

◆ **هل** ينبغى الاستمرار فى اتمام مشروع الزواج ، حتى بعد حدوث تحول مفاجىء فى قلب احد الخطيبين قبل العقد ؟

الجـواب

كلا ٠٠ فلو عمد امثال هذين الخطيبين الى فسخ خطبتهما التى اعتورتها الشكوك ، لتناقص عدد الزيجات غير الموفقة بمضى الزمن !

والواقع ان الرجوع فى الخطبة يحتاج فى اكثر الاحيان الى شجاعة كبيرة من جانب الخطيب المتراجع اوالخطيبة ، فهو ـ حسب الظاهر ـ عمل من اعمال القسوة التى لاشك فيها نحو الطرف الآخر «المنبوذ» ، لكننا لوامعنا الفكر لوجدناه في واقع الامر ـ على العكس ـ عملا من اعمال الرحمة !

ونحن نعرف بطلا من ابطال الحرب ابدل رايه بشان الزواج من خطيبته قبل موعد الزفاف بخمس دقائق فقط !٠٠ وقد قال لنا فيما بعد : « ان ذلك القرار كان اعظم عمل من اعمال الشجاعة عملته فى حياتى ٠ حقيقة انى كنت اعرف ان قرارى سوف يؤلم خطيبتى ، التى كانت شديدة التعلق بى ، فضلا عن اغضابه اهلها واصدقاءها ، واظهارنا كلينا فىموقف يدعو الى السخرية ٠٠ لكنى شعرت كانى استيقظت فجاة من حلم كى اواجه الحقيقة ٠ وهذه الحقيقة هى انى كنت شغوفا بالفتاة فعلا ، لكنى لم اكن مستعدا لان اقضى فى رفقتها باقى ايام حياتى ! »

وهناك زيجات كثيرة تعسة يود اصحابها اليوم لوكانوا اتخذوا هذا القرار الجرىء فى حينه وتحللوا من شركائهم فى حزم وشجاعة قبل اتمام الزفاف ! ومن امثلة هؤلاء تلك المراة التى لجات الينا تلتمس مشورتنا قائلة : « لقد ظللت خطيبة لزوجى عدة اشهر قبل ان نتزوج ٠ وقبل الزفاف بنحو اسبوع شعرت بشىء من القلق وعدم الارتياح كلما فكرت فى انى سوف اتزوجه ٠ وبعد تفكير فىسبب قلقى وضعت اصبعى على موضع النقص فى خطيبى : لقد كان ظريفا ، يمكن الاعتماد عليه ، وليس قبيح الخلقة ، ولكنه كان يفتقر تماما الى «الدفء» والحب الحار الحقيقى ٠ ولبثت حائرة مترددة بصدد فسخ خطبتنا حتى يوم الزفاف ، وكانت بطاقات الدعوة قد ارسلت ، ولم اشا

ان اجرح شعوره ، فضلا عن انى لم اكن صغيرة السن .. وهكذا اتممت الزواج، الذى ادركت الآن انه كان اكبر غلطة ارتكبتها فى حياتى ! »

السؤال الثالث

◆ **ماهى دعائم الزواج الموفق ؟**

الجـــواب

الزواج يكون موفقا فى الاحوال الآتية :

١ ـ اذا بنى على الحب المتبادل .

٢ ـ اذا كان الطرفان فيه يرغبان فى انجاب الاطفال ، واذا تعهدا اطفالهما بالتربية القويمة على اسس سليمة .

٣ ـ اذا كانت للبيت ميزانية مالية محددة .

٤ ـ اذا اشترك الزوج والزوجة فى اتخاذ كافة القرارات العائلية . وعامل الزوج زوجته على قدم المساواة معه لا باعتبارها اقل منه .

٥ ـ اذا ساهم الزوجان فى مظهر واحد على الاقل من مظاهر النشـــاط الاجتماعى اوالدينى اوالثقافى .

٦ ـ اذا وضع الزوجان برنامجا بعيد المدى لكل شىء : سواء لبيتهمــا اومستقبل اطفالهما ، او معاشهما المستقبل ، او رحلاتهما الطويلة .

٧ ـ اذا نظـــر كلا الزوجين الى الزواج كصلة دائمة ورباط لا فكاك منه ، وليس كرباط يمكن حله فى اى وقت يحلو فيه لهما ذلك .

٨ ـ اذا كان كلا الزوجين ناضج العاطفة الى الحد الكافى الذى يجعله يدرك ان الكمال الانسانى شىء لايمكن توافره فى احدهما .. فيتسامح مع شريك حياته عند الضرورة .

٩ ـ اذا ادرك الزوجان ان الشجار امر لابد منه فى كل زواج ، وانالزواج المثالى المزعوم هو اسطورة اكثر منه حقيقة واقعة ؟

١٠ ـ اذا ادرك الزوجان ان المسالة الجنسية ـ وان كانت هامة ـ الاانهـا ليست كل شىء فىالزواج ، وانما هى مظهر واحد من مظاهره . وان واجبهما ان يحاولا جعل الزواج « بجميع مظاهره » متوافقا ناجحا .

حوافز الحياة

النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ...

قرات معى فى الاعداد السابقة من كتابى ـ فى هذا الباب ـ الكتب النفسية التالية : ((كيف تصارح اولادك وبناتك بالحقائق الجنسية)) للعالم النفسانى ماكدونالد لاديل .. ثم ((طريق السعادة الزوجية)) لفردريك برينك .. و((مركب النقص ـ اسبابه وعلاجه وامثلته عند العظماء)) تاليف و.ج. ماكبرايد .. و((حواء الجديدة ـ مرشد المراة العصرية المستنيرة الى سعادتها ، قبل الزواج وبعده)) للدكتور كورتنى بيل .. و ((كيف تقهر الخجل)) تاليف س. هـ. تيار .. ثم ((كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة)) تاليف جون كنيدى .

وفى الاعداد الثلاثة الماضية قدمت لك من فنون الحياة التى شرحها الاديب العالمى اندريه موروا : فن الحب ، ثم فن الزواج ، وفن الحياة العائلية .. واليوم اقدم لك فنا رابعا ، هو فن الصداقة .. يليه فى الاعداد القادمة باذن الله : .. فن العمل .. فن السعادة .. فن الزعامة .. فن الشيخوخة .. الخ

اندريه موروا

فن الصداقة

هل الصداقة تعويض عن الزواج ؟

◆ **تحدثنا** فى الفصول الثلاثة السابقة عن فن الحب ، وفن الزواج ، ثم فن الحياة العائلية ·· واليوم نتحدث عن فن رابع من فنون الحياة ، هو فن الصداقة ·· ولشد ما تختلف روابط الصداقة عن تلك الروابط التى تقوم بين الحبيبين أو بين الزوجين فى محيط الاسرة ، وان كانت روابط الصداقة لا تقل عنها أهمية ولزوما لحياة البشر ·

والعاطفة السائدة فى الصداقة هى العاطفة «العقلية» أو الانفعالات التى مصدرها الذهن والقيم الروحية ·· أما الانفعالات الغريزية فتأتى فى المقام الثانى ··

ولكن لماذا لا يكتفى الانسان بانفعالات الغريزة فى حياته ؟

ولماذا لا يكتفى فى رحلة الحياة الدنيا بصحبة ورفقة زوجته وأولاده ··؟

والجواب على هذا السؤال ان عددا كبيرا من الناس يقضون حياتهم كلها بغير زواج ، اما لانهم لم يفكروا فيه أصلا ، أو لانهم فكروا فيه ولم يطيقوه فولوا منه فرارا !

يضاف الى ذلك أن عدد النساء فى العالم يزيد على عدد الرجال ، فمن المؤكد اذن ـ مادام نظام عدم تعدد الزوجات هو السائد فى المجتمع المتحضر ـ ألا يجد عدد من الاناث أزواجا لهن من الذكور ، حتى على فرض اقدام جميع الذكور على اتخاذ زوجات لهم من الاناث ·

كما ان من الرجال والنساء على السواء من لا يتزوجون لانهم لم يجدوا ضالتهم المنشودة ، أو مثلهم الاعلى فى شريك حياتهم ، الذى يشترطون فيه ذوقا خاصا ، أو صفات جسمية أو عقلية أو « مزاجية » معينة · وليس فى وسع هؤلاء أن يتزوجوا حيثما اتفق ، وبقصد الزواج وكفى ··

لكل أعزب قصة !

ومن الناس أيضا من تصدهم عن الزواج ذكريات أليمة ، أو تجارب فاشلة أشاعت فى نفسهم القنوط أو التقزز من الحياة الزوجية .. ومنهم كذلك من رمت بهم ظروف الحياة الى أجواء لايتسنى لهم فيها العثور على شريك مناسب للحياة ، يرضى بمقاسمتهم تلك الاجواء الشاقة .

والواقع أن الاقدام على الزواج ليس أمرا سهلا كما يتصور البعض ، وانما هو أشبه مايكون بالقاء السباح بنفسه فى لجة الماء من علو شاهق ، وما كل انسان بالقدير على هذا الغوص !.. وكثيرا مايجد الانسان ضالته المنشودة فى شريك الحياة ، ولكنه يجد ذلك الشخص غير «خال من الموانع الشرعية» مثلا ، أو هو قد رتب حياته وفق منهاج يختلف كل الاختلاف عن منهج الراغب فى الزواج منه .. الخ ـ وهكذا تقضى الظروف المتباينة على عدد كبير من الناس بأن يسلخوا حياتهم فى الوحدة والانطواء على النفس ، اما بدافع من الكبرياء ، أو التوجس ، أو الحزن ، أو الندم ، أو الفشل ، أو الوفاء لعاطفة عصف بها القدر !

◆ وقد يحدث أن يتنبه الحبيب المقيم على الوفاء الى أن هذا الوفاء أصبح فارغا «غير ذى موضوع» ، ولكنه يجد أنه تنبه الى ذلك بعد فوات الاوان ، بعد أن ذبلت زهرة العمر ، وولى الشباب ، ولات حين زواج !

والذين تطول عزوبتهم يصعب عليهم كثيرا أن يغيروا نسق حياتهم التى ألفوها ، فيضربون عن الزواج بحكم العادة المتأصلة! .. ولو فرضنا أن منهم من قاوم تلك العادة المتأصلة وأقدم على الزواج ، فمن الراجح أنه سيبوء بالفشل ، ولا يجد مخلصا له من ورطته ..

ومثل هؤلاء المحرومين من مناعم الحياة الزوجية والحب العائلى ، يجب أن تقدم لهم الحياة بديلا يعوضهم شيئا ما من ذلك الحرمان

العاطفى ، ويضع فى متناولهم وسيلة للتخلص من تلك الوحدة « القاسية » التى يعانونها ·· أقول انها وحدة قاسية ، ووحدة «غير طبيعية» أيضا ، فالانسان اجتماعى بطبعه كما يقول «أرسطو» · وليس من وراء الوحدة المتصلة الا الشذوذ والمرض النفسى الذى قد يؤدى الى الجنون فى كثير من الاحيان !

اذن ، بماذا يستطيع الاعزب أن يستعيض عن حرمانه من العواطف الزوجية ؟ ·· رب قائل يخيل اليه أن أسرة الاعزب ، من اخوته أو أبناء عمومته أو غير ذلك ، يمكن أن تؤدى له الوظيفة العاطفية التى حرم منها بابتعاده عن الزواج ، ان بارادته أو بغير ارادته ·· ولكن المشاهد دائما أن مثل تلك الروابط العائلية ليست من القوة والصفاء بحيث تحل الاشكال ، بل لعلها تزيده تفاقما واستفحالا ، لان كل أسرة صغيرة تحب أن تحتفظ بجوها الخاص ·· ولهذا فهى تضيق بالخارجين عن نطاقها ، ولو كانوا من ذوى قرباها وأعز الاعزاء عليها !

فالمنفذ الوحيد للاعزب المستوحش اذن هو «الصداقة» دون غيرها ··

الصداقة لازمة للاعزب والمتزوج !

◆ **ولكن** ، هل معنى ذلك أن الصداقة لا يحتاج اليها الا العزاب غير المتزوجين ؟ هذا زعم خاطىء ، فهى لازمة أيضا لاولئك الذين أنعمت عليهم الظروف بزواج سعيد موفق ·· وللاطفال الذين يحبهم آباؤهم وأمهاتهم حب العبادة ·· بل ولازمة «للدون جوان» زير النساء الذى يتمتع بمفاتن واقبال ألف عشيقة وعشيقة ، بحيث لا يجد وقتا للسأم والملل !

ذلك اننا نجد ، فى أحيان كثيرة ، أننا لا نستطيع مكاشفة ذوى قربانا الاقربين جدا ببعض ما فى نفوسنا من الاسرار أو الهموم أو الخواطر ، فان روابط الاسرة تقوم على الدم والعصب ، ولا تقوم على الذهن والقريحة ·· وهكذا تظل فى صدور الازواج والابناء

والعاشقين أسرار صغيرة مكتومة ، وهموم مكظومة ، لاتعرف النور أبدا !

وهذه الهموم المكظومة والخواطر المكتومة خليقة أن تسمم حياة العقل وتنخر فى نفس من يكبتها وينطوى عليها ، كما تسمم الميكروبات والصديد الجروح الغائرة فى البنية الحية ٠ وافشاء هذه الهموم بمثابة اخراج الصديد من الجرح حتى لا يتعفن، وحتى يبقى العقل سليما نقيا ، نقاء وسلامة الجسم الذى ترتوى غرائزه ارتواء طبيعيا فى ظل زواج ناجح بين زوجين متحابين ٠٠!

وأسلم طريقة لاخراج هذه السموم وافشاء هذه الهموم هى مناقشتها والتنفيس عن آثارها فى النفس ٠ وأحسن مايكون ذلك بين صديقين أو عدة أصدقاء ، فان الصديق اذا لم يتقدم بحل للاشكال ، أو بنصح فى الموضوع يرفع الحرج ، فانه على الاقل سيفيدنا فى التنفيس ، والتنفيس فى حد ذاته علاج ناجع ودواء كاف لادواء النفس وهمومها ٠٠٠

ومن هذا يتضح أن الانسان فى حاجة الى رابطة غير رابطة الحب ، والى مجموعة من الناس يتصل بها ويخالطها فى الحياة غير مجموعة الاسرة ودائرتها الضيقة المحكمة الارتباط ٠٠٠

كيف تولد الصداقة !

◆ **والصداقة** تختلف فى طريقة مولدها عن الحب ، وأعنى الحب الجنسى ٠٠ فمولد الحب الجنسى سهل يسير : نظرة ، فابتسامة ، فلمسة ، أو لقاء قد تمهده الصدفة ، وبعد ذلك تلتهب الدماء ، وتثور الرغبة ، والباقى معروف ٠٠

فالحب اذن مبدؤه هو الحب نفسه ! وقد تبدأ أعمق العواطف وأصدقها بنظرة واحدة ٠٠ ففى قصة روميو وجولييت مثلا ، ما أن وقعت عين جولييت علی روميو ، حتى قالت لمربيتها : «اقتربى منى يامربيتى ، خبرينى من هذا الشاب الواقف هناك ؟ ٠٠ لئن كان متزوجا فما أحرى حفرة لحدى أن تكون فراش عرسى !»

.. فليس للحب اذن غير ارتباط ضئيل بشتى الاسباب والعوامل ، بما فيها جمال المحبوب أو قبحه .. كما أن اعتبارات الوازع الدينى ، أو الخلقى ، والذكاء ، والحسب ، أو المكانة الاجتماعية .. الخ ، قد تتبخر كلها اذا أطلق كيوبيد سهمه على قلب رجل أو امرأة !.. وقد حدثتنا الاساطير حديث الحسناء «تيتانيا» التى أغرمت بمخلوق شائه ، رأسه رأس حمار ! ولقد صدق من قالوا ان الحب أعمى ، فما أكثر الغراميات التى يحار الناس فى تعليلها بأفهامهم ، فيقولون منكرين : « وماذا ترى فى (فلان) حتى تحبه (فلانة) كل هذا الحب ؟» .. وما دروا أن بذرة الحب تنمو فى تربة الدم والاعصاب ، لا فى حقل العقل المتزن والحس الواعى !

الحب .. والصداقة

ذلك مولد الحب : سريع خاطف صاعق !

أما مولد الصداقة ، فهو أدنى الى الابطاء ، والتمهل .. فهى فى بدايتها تكون أشبه بالنبتة الواهنة ، قد تعصف بها الريح ، أو تفسدها لمسة قوية من أنامل رعناء .. فهى فى حاجة الى الرعاية والحذر والعناية حتى يقوى عودها ويشتد .. ومن المأثور عن الحكيم الساخر «لاروشفوكو» قوله : ان الغالب على المرأة ألا تعير الصداقة اهتمامها ، لان الصداقة اذا قيست بالحب بدت تافهة فارغة ممسوخة الطعم !..

فهل الصداقة تافهة باهتة الطعم حقا ؟

كلا ! بل انها لتبدو فى مراحلها الاولى مشرقة تبهر الانظار فى شىء من القسوة والعنف .. فالحب اذا كان أعمى ، فالصداقة مبصرة ، لا ترى فى رأس عشنيق تيتيانا شيئا من الجمال ، لانها رأس حمار ، ولن يحب انسان يملك عقله وحسه انسانا له رأس حمار .. ولكن المحب لا يملك عقله وحسه حين تتحرك الدماء فى عروقه !

وفى الصداقة ـ بعكس الحب ـ تكون الصفات الممتازة فى الشخص من العوامل القوية ذات التأثير الفعال فى نشوء الصداقة ونموها ، ولاسيما حين تكون تلك الصفات متبادلة وظاهرة للعيان .. **ومن هنا نجد أحيانا صداقة تنشأ من أول نظرة ، كما يولد الحب أحيانا من أول نظرة .. فقد يحدث أن كلمة ما ، أو همسة ، أو تعليقة ، أو ابتسامة ، تكشف للانسان عن قرابة روحية أو ذهنية أو مزاجية أو ثقافية تجذبه الى شخص غريب عنه ، فينشأ فى الحال بينهما تمازج شديد قائم على التفاهم المتبادل ..**

لكن الصداقات قد تقوم أيضا ، حتى ولو لم يكن الصديق ظاهر الامتياز فى صفة من صفاته .. وهى فى هذه الاحوال تبدأ من تلقاء نفسها ، كما يبدأ الحب بالحب . بيد أن الصداقة تحتاج فى بدايتها الى حافز كى تستمر وتنمو ، ذلك ان الانسان كسول بطبعه ، بحيث يغلب عليه أن يترك هذه الصداقة (أو التعاطف) تموت ، اذا لم تتح له الظروف حافزا جديدا يجعلها تترعرع .. وذلك على خلاف الحب ، الذى قد يربط الزواج قطبيه برباط عسير الانفصام !

لابد للصداقة من التسامح ..

◆ **ويلزم** لرعاية الصداقة أن يروض الانسان نفسه على تحمل ما قد يتكشف له فى الطرف الآخر من نقائص ، فلا يضيق بما عنده من تكرار ممل لحكايات بعينها ، أو بشدة حساسيته وتأثره من أدنى الاشياء وأتفهها ، أو حبه للافراط فى الشكوى .. ولذلك نجد أن الصحبة فى المدرسة أو «ميس» الضباط أو صالون النادى أو ظهر السفينة تفرض على المرء التزامات كالتزامات الاسرة ، قوامها التغاضى والتحمل والمحاسنة .. وتنتهى هذه فى الغالب بتوطيد صداقات متينة تدوم بعد انتهاء المناسبة التى جمعت شمل الاصدقاء فى صعيد واحد .

ونبنى على هذا قاعدة تكاد تكون صحيحة فى جميع

الحالات ، وهى ان الانسان كائن اجتماعى تحسن عشرته كلما طالت ، لانه يحاول تهذيب نفسه و «التأقلم» بأصحابه الجدد والتأثر بجوهم الخاص ..

ومع هذا فليست هذه الصداقات التى تفرضها الصدفة المحضة هى الصداقات بمعنى الكلمة ، وتحضرنى فى هذه المناسبة كلمة آبل بونار : «نحن نعزى أنفسنا بالعدد العديد من الاصدقاء اذا أعوزنا الصديق الواحد الحق !».. فالصداقة الحقة تعتمد على اختيار حر لا تمليه المصادفة ، وخير مثل لذلك صداقة الاديب الفرنسى القديم «مونتين» واحترامه العميق للسيد «لابواتى» . والحق انه ليس فى مقدور كل انسان أن يطوى قلبه على مثل ذلك الاحترام الصادق والولاء العميق والمودة المخلصة فى وقت واحد ، فما أكثر مايكون احترام بغير مودة وحب ، وما أكثر مايكون الحب بغير احترام .. وما أكثر من يغارون ممن هم أعظم منهم موهبة فينفسون عليهم ولا يحبونهم (١) !.. بل ان من الناس من يخشون هوان أنفسهم على الممتازين ، فتراهم يحرصون على أن تكون صداقاتهم فى محيط المغمورين والتافهين ، ليضمنوا التفوق والعزة !

وأعود مرة أخرى الى «آبل بونار» لاسمعه يقول فى حصافة وصدق : «**أقدر الناس على الصداقة وأكثرهم رعاية لحقها من لم يمتلىء قلبه حقدا على بنى الانسان من أجل ماتركوه فى حياته من آثار سيئة ، ومن يدرك بفطنته أن كرام الرجال قليل ، وأن كبار العقول والقلوب من الندرة بمكان ، وفضلا عن ذلك فهم متفرقون بين آلاف من الانذال .. لكنه مع هذا لا يمل من البحث عنهم والتنقيب عن مخابئهم ، مضفيا عليهم حبه الصادق قبل أن يعثر حتى عليهم !** »

---

(١) «كتابى» : وذلك مصداق قول المتنبى :

وكل العداوات قد ترجى ازالتها ... الا عداوة من عاداك من حسد

بيد أنى أضيف الى هذا الرأى أن القليل من أوجه الضعف البشرى المعتدلة ، قد تزيد فى التعاطف ، وتمكن وشائج الود ٠٠ فنحن لن نستطيع أن نحب ـ حبا كاملا ـ من لانستطيع أن نبتسم لنقائصه فى بعض الاحيان ! والكمال المطلق ـ ان وجد ـ شىء بعيد عن الانسانية ، فهو «معدن غريب» لانألفه ، ومن باب أولى لانحبه ولانطلب عشرته ٠ وهو قد يغرى بالاحترام ، لكنه لايغرى بالصداقة !٠٠ وما أسعدنا حين نعرف أن رجلا عظيما نقدره ، له نواحى ضعف تقربه الى قلوبنا ، لانها تؤكد لنا انسانيته ٠٠

الصداقة ٠٠ والزمالة

◆ **وتأتى** بعد مرحلة ولادة الصداقة ونموها واشتدادها ، مرحلة التكاشف بالاسرار ، وتبادل الهموم والخواطر ٠٠ ونحن فى هذه المرحلة نشعر بالارتياح الى الصديق الغريب عنا نسبيا ، أكثر مما نشعر به مع الزوجة أو الحبيبة أو الولد ٠٠!

ويحسن بنا أن نتساءل هنا : ما الفرق الاساسى بين الصداقة والزمالة ؟

وأول هذه الفروق أن الصداقة عاطفة قوية ، مثل عاطفة الحب فى قوتها وضرورتها للانسان ، مع اختلاف طبعا فى الدوافع والآثار ٠٠ وأما الزمالة فهى مجرد صحبة هينة تفرضها الصدفة ، ولاتتعدى السطح من شعورنا ٠ والزمالة ـ لا الصداقة ـ هى التى ينطبق عليها فى الواقع قول «لاروشفوكو» : «ان مايسميه الناس صداقة انما هو مواضعات اجتماعية متبادلة ، ومجاملات تسف الى درك المصالح التجارية وتبادل المنافع واللبانات !» ٠٠ وهو قول يدل على رغبة فى التهكم والتشكيك ، ولكنه فى الواقع لم يزد على أن يبين لنا كل ماليس صداقة حقيقية ٠ فالعلاقة القائمة على التجارة ، أو تبادل المصالح ، لايمكن أن تكون صداقة ٠٠ لان شرط الصداقة الصحيحة هو التنزه عن الغرض ٠٠

فصاحب الرخاء والثراء ليس صديقا حقا ، ومن لايعرفنا الا لقضاء مصلحة له ليس صديقا البتة ٠٠ وهكذا

ومع هذا فانه يصعب فى أحيان كثيرة أن يجرد الانسان شعوره من مصالحه الخاصة ، ومن الناس من برعوا فى اخفاء مصالحهم والتظاهر بالنزاهة والبعد عن الهوى ٠٠ وانى أذكر اننى سمعت ذات يوم الحديث التالى بين زوجين :

الزوج : كونى لطيفة مع أسرة (فلان) !

الزوجة : ولماذا ؟ انهم سمجون ، وأنت لاحاجة لعملك اليهم !

الزوج : لاتكونى رعناء قليلة التبصر ، فسينفعنى حين يعود الى الوزارة ، وهو عائد اليها ان عاجلا أوآجلا ٠٠ وطبعا سيكون أكثر امتنانا وتقديرا لنا اذا كانت مجاملتنا له سابقة على تقلده الوزارة ، فنكون بذلك من أصدقاء الضراء لا أصدقاء الرخاء ٠٠ !

الزوجة : ما أذكاك وأبعد نظرك ! ان هذا يكون أدنى حقا الى قلبه وأكرم لنا !

وهذه الصداقة ليست بالبداهة صداقة صحيحة ، وان بدت كذلك ٠٠ وما أكثر مايصادف الانسان فى الحياة أمثال هذين الزوجين المخادعين !

ونحن لانقصد أن نقول ان الاصدقاء الحقيقيين هم الذين لايتعاونون عند الشدة ، بل نقول ان هذه المعونة يجب أن تعتبر شيئا واجبا وتافها فى آن واحد بالنسبة للصداقة نفسها ، باعتبارها شعورا عميقا بالتقدير والاعزاز ٠٠٠ ثم ان المعونة فى وقت الشدة ليست وقفا على الاصدقاء ، فكثيرون جدا يعينون الغرباء فى شدتهم ٠ لكن هذه المعونة لاتصدر فى الواقع بدافع الصداقة بل بدافع «الاستعلاء» ، لان فى الاحسان شيئا من ارضاء الغرور لايستهان به أبدا ! وفى هذه المرة صدق لاروشفوكو حين قال بلسانه اللاذع : «اننا لنجد فى مصائب أعز أحبابنا شيئا من الراحة !»٠٠ بل ان «موریاك » الطيب القلب يقول

بدوره : «اننا على استعداد لمد يد المعونة للمنكوبين ، ولكننا لانحب لهم أن يحتفظوا بمميزاتهم التى يتفوقون بها علينا !»

الصداقة فى الرخاء ٠٠ وفى الشدة !

◆ **وكثيرا** مايردد الناس أن الاصدقاء يكثرون عند الرخاء ويقلون عند الضيق ٠٠ وهو قول أعترض عليه ولاأقره ، فما أكثر من يلتفون حولنا عند الشدة ليروا شدتنا بعين الشامتين ، وما أكثر من نزل بهم فيمامضى مثل الذى نزل بنا ، فهم يرون فينا « أقرباء » جدد تجمعنابهم المحنة المشتركة !

ولهذاكان للشاعر «شيللى» فى أيام فقره ، قبل أن تواتيه الشهرة ، أصدقاء أكثرممن كانوا لزميله لوردبيرون وهو فى قمة مجده !٠٠ ذلك أن القلة الضئيلة من البشر هم الذين رزقوا من النبل وكرم النفس مايجعلهم يصادقون العظماء والمحظوظين صداقة منزهة عن الغرض !

ومن مقتضيات التنزه عن الغرض أن يحدس الصديق مشكلة صديقه ويقدم المعونة اللازمة لحلها ، مادامت فى مقدوره ، قبل أن يطلب اليه ذلك ٠٠ كى يوفر على صديقه حرج الطلب وهوان السؤال – قل ذلك الهوان أو كثر – فان فى ذلك من الوفاء مافيه ، فوق مايضفيه على النفس من رضى ومتعة روحية ، لان مزية الثراء والنفوذ الوحيدة على وجه التقريب هى اتاحتها لنا خدمة الاصدقاء واعانتهم على حل مشاكلهم ٠٠

والعنصر التالى لنزاهة القصد فى الصداقة هو عنصر التقدير المتبادل أو الاعجاب ٠٠ وأنت قدتقول لنفسك : «ان لى أصدقاء كثيرون أحبهم دون أن أعجب بهم ، وأنا أصارحهم بذلك!» لكن هذه مغالطة جديرة بأن نحللها ٠ فماذا نجدوراءها ؟٠٠ نجد أن الصداقة تتيح لك أن تصارح صديقك بحقائق خشنة قاسية ، وأنت آمن من غضبه ٠ فمامدلول هذه الخشونة وهذا الامن ؟ مدلولهما أن ذلك الصديق واثق من أننا نقدره ونعجب به

رغم هذه الخشونة الظاهرية • فظواهر عدم الاعجاب وعدم التقدير تخفى وراءها اعجابا وتقديرا كامنين راسخين فى أعماق القلب •• وليس معنى ذلك أنه يحسبنا نعتقد فيه كل فضيلة ومزية فى الوجود ، بل معناه أنه يعرف أننا مع علمنا بنقائصه وعيوبه ، نعرف له أيضا مزاياه التى ترجحها وتجعلنا نفضله ونراه أهلا لصداقتنا وتقديرنا ••

والواقع أنه لامحل للاخلاص فى الصداقة مالم يوجد هذا الاعجاب الكامن • ولهذا كانت الصداقة ممكنة بين كتاب كبار ، مع تراشقهم بالنقد القاسى • ومثال ذلك ماكان بين « فلوبير » و « بوييه » من صداقة متينة وتناقد متصل !•• ولكن حمانا الله من الصديق الذى لا هم له الاتثبيط همتنا أو نقل قالة السوء فينا الى مسامعنا ، أما الاقوال الحسنة فهو عنها أصم وعن نقلها ملجم اللسان !

وحمانا الله كذلك من الصديق الذى يسرع اليه الغضب لاقل لمسة وأهون سبب ، فلا يميز بين الظواهر والبواطن ، **فالصداقات مرهونة بالنوايا والسرائر ، ولابد لنا من أصدقاء يقدرون أن الانسان ضعيف ، وان الخطأ مغتفر •• فلا محل لتربص المرء لهفوات الغير ، كأنه موكل بها مثلوج الصدر باقتناصها ! ولا محل للصداقة مالم تكن هناك ثقة متبادلة متينة تهزأ بالاخطاء والزلات** • فاما ثقة أو لا ثقة ، واما صداقة أو لا صداقة • ولامبرر بعد ذلك لكثرة التحليل والتعليل ، ومراجعة كل ماحدث وقيل ، لتلمس العثرات والهنات !

ولنحذر من تدخل النمامين بيننا وبين أصدقائنا ، فكم من صديقين حميمين فرقهما سعى الوشاة بينهما بالباطل ، وربما أيضا بالحق ، فالواقع — كما قال باسكال : «انه مامن أحد يتكلم عنا فى غيبتنا كما يتكلم عنا فى حضورنا • فكل مودة قائمة اذن على خديعة مشتركة بين الطرفين المتحابين ، وما أقل الصداقات التى

يمكن أن تصمد لتكشف مايقال من كل طرف من الطـــرفين فى صاحبه من وراء ظهره ! »

كذلك يقول بروست ، صادقا : « اننا لخليقون أن نرتاع حقا لو أننا لمحنا ــ لحظة واحدة ليس الا ــ صورتنا فى سريرة أى انسان ، مهما كان عزيزا علينا وكنا أعزاء عليه ! »

حذار من النمامين !

◆ **ويجب** التحرز كثيرا فى البوح بالاسرار ، فلا نصرح بفئة من أسرارنا الخاصة ، وهى الاسرار الخطيرة ، الا لفريق خاص من الاصدقاء نعرف فيه الكتمان ، ونتوقع منه أن يعتبر أسرارنا من قبيل أسرار المهنة المقدسة المصونة ·· مثل السر الطبى وسر الاعتراف !·· ولابد من معاملة خاصة لهؤلاء الناس الذين لا هم لهم الا البوح بأسرار الآخرين ، ان صدقا وان كذبا ، بحيث تحدث الوقيعة وتثور الفتنة وتقع الفرقة بين الاصدقاء بسببهم !·· وذلك العلاج فى نظرى هو التشاجر ، لا مع من باح بالسر ، ولكن مع الذى نقل هذه الاسرار عمن باح له بها من أصدقائنا !

ويجب فى كل حالة من الاحوال أن ندافع عن أصدقائنا ، مع علمنا بأنهم ليسوا ملائكة ولا قديسين · وأن ننفى عنهم خيـانة أمانة الصداقة · وأن نرد غيبتهم · وأعرف من هذا القبيل سيدة ما أن تهاجم على مسمع منها امرأة تعرفها حتى تقــول : « فلانة صديقتى ، ولست أقبل فيها كلاما يشينها !»·· وهى فى نظرى خطة حكيمة للغاية ، حبذا لو اتبعها كل انسان ··

◆ **وللصداقة** ــ كما للزواج ــ ميثاق وعهد ، أوضـحهما «آبل بونار» حين قال : «ان الصداقة هى اختيار حر ايجـابى ــ غير مقيد بشرط من الشروط ــ لشخص من الاشخاص ، وقع عليه اختيارنا لصفات فيه لها لدينا أعظم الاعتبار !»·· **فالصداقة ينبغى أن لا تكون مشروطة بشروط أيا كانت ، ولا مقيدة بأجـل**

مضروب ، فمتى صادقنا شخصا فلتكن صداقتنا له دائمة ماعشنا أوعاش ..

وهنا يطل علم الاخلاق برأسه ليقول لنا : «وماذا اذا برهن هذا الصديق على عدم جدارته بالصداقة ؟ هل نحبه ؟ » .. والجواب : « نعم ، نبقى على العهد مهما كانت الظروف . وان روائع الآداب العالمية لتحفل بالامثلة الكثيرة على ذلك الوفاء . فهذا «فوكيه » ـ فى رواية ستندال الخالدة «الاحمر والاسود » ـ يظل وفيا لصديقه «جوليان» حتى يذهب معه الى المقصلة !!

المرأة والصداقة

◆ **وان** ملاحظة الحياة الاجتماعية والواقعية لكفيلة بأن ترينا أن المرأة مخلوق كفء للصداقة والوفاء للعهد . ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن الصداقة بين العذارى والشابات قد تصل أحيانا الى درجة الهيام ، فهى أشد مما يقوم بين الشبان من الذكور ، وفى طياتها دائما شىء من التواطؤ والحماية المتبادلة ، والتحالف المتين ضد جميع القوى وفى جميع الظروف ، ومن تلك القوى : الاسرة ، والمجتمع ، والجنس الآخر !

وسر هذا «التواطؤ» بين النساء هو ضعف المرأة وحاجتها الى سند لا يخذلها فى جميع الاحوال ، والى الاتحاد ضد الظروف المشتركة التى تتآمر على الجنس كله !.. وأشد ما تكون هذه الحاجة حول سن المراهقة ، وذلك لشعور الانثى بالكبت والتضييق .. بل لقد كان الناس فى القرن الماضى يحرمون على الفتاة أن تذكر أى شىء عن أهم ما يشغل ذهنها ـ وهى أمور الجنس ـ من قريب أو بعيد .. فكان لابد للفتاة من اصطفاء صديقة لها تأتمنها على أسرارها وخواطرها !

لذلك يلاحظ أن الزواج الناجح يقضى فى الغالب على مثل هذه الصداقات الانثوية . أما اذا فشل الزواج فان حاجة المرأة

الى الصديقة أو «النجية» المتواطئة تتجدد ، بل وتستفحل !٠٠ ولكن التواطؤ في هذه الحالة لايكون ضد الاسرة - كما كان في أيام العذرة - بل يكون ضد الزوج ، وربما الحساب «عشيق»٠٠ أو أكثر!

وليس من النادر أن تتحالف امرأتان أو فتاتان وتتعاهدان على الاخلاص ضد جنس الرجال عامة ، بيد أن هذا التحالف مرهون دوامه بظهور رجل واحد مشترك في حياة هاتين المرأتين. فلابد من شجاعة خارقة للعادة كي تقبل امرأة وتتحمل أن ترى صديقة لها سعيدة مع رجل تكون هي قد أحبته ! بل ان من النساء من لا تطيق أن ترى صديقتها سعيدة مع رجل - أيا كان - فتعمل في الحال على اختطافه منها ، لا حاجة منها أو رغبة في ذلك الرجل بالذات ، بل لمجرد سلب المرأة الاخرى والتفوق عليها !

الصداقة بين امرأتين ٠٠

ومع هذا فان الصداقة الكاملة ممكنة كل الامكان بين امرأتين على درجة عالية من الثقافة . ومثال ذلك صداقة مدام دى لافاييت ومدام دى سيفينيه منذ سن المراهقة حتى الموت ، دون أدنى فتور أو انقطاع ٠٠ بحيث كان الخلاف الوحيد الذى يشجر بينهما هو جدلهما بين الحين والآخر حول هذه «المشكلة» : من منهما أشد حبا للاخرى ؟

والغالب أن تكون العائلات شديدة الغيرة من هذه الصداقات ٠٠ وهو أمر مفهوم : لان الصديق أو الصديقة تكون عادة كاتمة السر، وهذا السر له في الغالب صبغة عدائية ضد الاسرة ٠٠!

ومن الشائع كذلك أن المرأة حين تتزوج تعمل على افساد ما بين زوجها وأصدقاء عزوبته ، لانها تشعر أن الصديق موضع سر صديقه وصاحب مشورته . وهي تخشى هذه المشورة وهذا «النفوذ» الذى قد يهدد نفوذها ! وليس هذا فحسب ، بل ان المرأة أيضا تشعر أن هناك نوعا خاصا من الاحاديث لا يطيب الا بين

الرجال وفى صحبتهم ، ممايجعل الزوج أشدميلا الى صحبة الرجال و التمتع بالسمر معهم ٠٠ وهو أمر يثير «غيرتها» بطبيعة الحال !

وقدذهب الخيال بالمؤلفين المسرحيين الى القول باستحالة قيام صداقة قوية بين الزوج وعشيق زوجته !٠٠ وهذا هراء فارغ ، فلدى هذين الرجلين من أفانين الاحاديث المهمة لكليهما أكثر ممايمكن أن يكون بين الرجل وعشيقته !٠٠

وانى أعتقد أن صداقة الزوج والعشيق ممكنة جدا ، وان حضور الزوج هو الذى يجعل عشق الطرفين الآخرين أقوى وأدوم ، لانه ينقذ هذا العشق من خطر السآمة والملل الناشئين عن تحدث الرجل الى امرأة طول الوقت ، ممايضيق له صدر كليهما ٠٠

وانى أعرف حالات كثيرة انتهى فيها الغرام بمجرد اختفاء الزوج من المسرح ، لانه كان عنصر التسلية الرئيسى فى الرواية ٠٠ دون أن يشعر !

هل هناك صداقة « بريئة » بين رجل وامرأة ؟

◆ **والشائع** الذائع بين الناس منذ القدم أن الصداقة بين الرجال والنساء لايمكن أن تصل الى مستوى الصداقة بين الرجال ٠٠ بحجة أن الحساسية الغريزية أو التجاوب الجنسى لايمكن منعهما من التسرب الى تلك الصلة المختلطة بين رجل وامرأة ٠٠ واذا فرضنا جدلا أنه أمكن وقاية هذه الصلة من العامل الجنسى ، أفلا يكون فى ذلك اذلال لاشك فيه للمرأة ، مهما كانت قليلة الرغبة فى الدلال؟

صداقة ٠٠ !

حب ٠٠ !

الواقع أنه مما لايتفق مع جميع الدوافع الطبيعية أن يجتمع رجل بأمرأة فى حرية تامة كتلك التى تكون بين الرجال فى حالة الصداقة ، دون أن يحس الرجل برغبة جسدية ! ومتى أحس الرجل بهذه الرغبة ، بدأت آلة العواطف فى الدوران بغير توقف ٠٠!

والفارق بين الحب والصداقة كبير ، لان الرجل حين يسعى الى اقتنناص امرأة لايجعل الصدق والاخلاص رائده ، بل يكون همه الوحيد أن يحصل على مايريد ٠ كما ان عنصر الغيرة يوجد فى العشق ولايوجد فى الصداقة ، التى تغلب عليها الثقة المتبادلة أو «التواطؤ» فى بعض الاحيان ٠٠ ولهذا تمتاز الصداقة بهدوئها ، فى حين يمتاز العشق بثوراته !٠٠ ولئن قامت الصداقة على الانسجام والتوافق العقلي ، فان الحب يقوم على الاختلاف أو التوافق الجسدى ، دون أدنى اهتمام بالتوافق العقلى !

متى تكون الصداقة بين الجنسين ممكنة ؟

والتاريخ حافل بالامثلة لصداقات طاهرة قامت بين رجال ونساء ٠ وهذه حقيقة يعترف بها المعارضون لصداقة الرجل والمرأة أنفسهم ، ولكنهم يقسمون هذه الحالات الى ثلاثة أقسام :

القسم الاول يضم الخياليين الذين فجعوا فى غرامهم فاستعاضوا عنه بهذه الصداقات ، وقد كتب « بروست » عن هؤلاء ، فقال ان النساء يعرفن حقيقتهم من أول نظرة ، فتستطيع المرأة اذا أرادت أن تبقيهم عند حد الاعجاب «السلمى» بمعاملة

رقيقة ، ولكنها متحفظة . **ومثل هؤلاء الرجال قد تدللهم المرأة أوتقربهم ، ولكنها تضحى بهم دائما فى سبيل أول رجل حقيقى يصلح للعشق ! أما اذاكانت المرأة بدورها من النوع الخيالى الذى يخجل أويعجز عن العشق الكامل ، جبنا ورهبة ، ففى هذه الحالة تقوم بين الطرفين «صداقة غرامية» عذرية !** ومثال هذه الصداقة الغرامية علاقة مدام ريكامييه مع الاديب الفرنسى «شاتوبريان» ..

أما الطائفة الثانية من الاصدقاء «العفيفين» فتضم الرجال المسنين الذين فاتهم قطار الحب فطلبوا العوض عنه فى مثل هذه الصداقة المأمونة العواقب . والملاحظ أن معظم هذه الصداقات المختلطة يكون أبطالها من الشيوخ وعجائز النساء . لماذا ؟ لان كلا طرفيها قد انتهى دوره الجنسى ، فأصبحا لا رجلا وامرأة ، بل انسانين بلا جنس ، يعيشان على الذكريات الهادئة الممتعة ..!

الصداقة بين الشباب والعجائز !

ويحدث أحيانا أن يكون أحد الطرفين هو المسن دون غيره ، وفى هذه الحالة تكون المسألة أشق ، والموقف أدق ، ولكنه أمر يحدث أحيانا . من قبيل ذلك صداقة لورد بيرون الشاب بالليدى ميلبورن العجوز ، وصداقة الملكة فيكتوريا الشابة باللورد ميلبورن الشيخ . ولكن الغالب أن يعانى الطرف المسن الامرين من مثل هذه العلاقة ، لانها تكون من جهته حبا تعسا ، ومن جهة الطرف الآخر صداقة ، يشوبها عدم اكتراث عاطفى !

وأما الطائفة الثالثة من المؤمنين بالصداقة المختلطة البريئة فتشمل «العشاق السابقين» الذين برد هواهم وانتهوا من الغرام الى الصداقة الهادئة دون شجار .. وهذا هو أقرب أنواع صداقة الرجال والنساء الى الطبيعة والمألوف ، لان الغريزة تكون قد استوفت حقها، والذكريات السعيدة تزيل كل كلفة بين الطرفين..

وقصارى هذه الحجج المختلفة ، ان الصداقة بين رجل وامرأة ليست أمرا مستحيلا • ومن ضيق الافق أن نعتقد أن الصلة بين رجل وامرأة لا يمكن أن تخلو فى أساسها من عنصر الرغبة الجسدية • ذلك أن التجاوب الذهنى بين الجنسين ليس ممكنا فقط ، بل هو فى كثير من الاحيان أيسر بين رجل وامرأة منه بين رجلين • وما أصدق قول جيته : «ان الصداقة بين فتى وفتاة تبلغ متعتها القصوى اذا كانت الفتاة محبة للعلم والفتى محبا للتعليم !» •• وقد يقال ان حب العذارى للعلم والمعرفة ان هو الا رغبة جنسية غير واعية ! واذا فرضنا أن هذا صحيح فأى ضير فيه ، مادامت هذه الرغبة تشحذ القريحة وتقتل الغرور ؟

يضاف الى ذلك أن التعاون والاعجاب المتبادل أقرب الى القيام بين رجل وامرأة ، فى حين أن التنافس أقرب الى القيام بين بنى الجنس الواحد • فالمرأة مثلا تقبل المحل الثانى فى العمل بعد الرجل ، وتمنح الرجل ما يحتاج اليه من التشجيع والعون الادبى • واذا حدث أن انتهى مثل هذا التعاون بين رجل وامرأة الى الزواج ، فمن المحتمل أن يكون حبهما أقدر على الدوام مع احتفاظه بحرارة العاطفة • والواقع أن العمل المشترك بين الزوجين أدعى الى التفاهم والارتباط لانه يحسم فرص الشك ويمنع المخيلة من ملء الفراغ الناشب عن الافتراق فى ساعة العمل أو الفراغ ••

وحتى اذا لم يتزوج الطرفان ، فليس هناك ما يمنع أبدا من قيام صداقة على أساس من التقدير المتبادل والثقة ، بيد أن مثل هذه الصداقة لا يمكن أبدا أن تغنى عن الحب •

المرأة تفرط فى الصديق لاجل العشيق !

وأنا شخصيا من رأى « د • ه • لورنس » فى أنه ما من امرأة يمكن أن تغدو الصداقة الذهنية أو الروحية عندها عاطفة عميقة أساسية فى حياتها • فالمرأة أكثر اعتمادا على جسدها

ممايخيل اليها هى نفسها !٠٠ والمقام الاول عندها باستمرار للرجل الذى تحبه بجسدها ٠ واذا استلزم الامر فهى مستعدة للتخلى فى سبيله عن أثمن الصداقات ، بل ووشائج القربى ، وحتى السمعة الاجتماعية !

وهناك حلان ممكتان لمشكلة الصداقة بين الرجل والمرأة ٠ الحل الاول أن يمزجا الحب بالصداقة ، فتكون الصلة بينهما عقلية وحسية غريزية فى وقت واحد ٠ **والحل الثانى أن يكون لكل من الرجل والمرأة الصديقين علاقة جنسية مستقلة موفقة تكفل له الاكتفاء ٠ وفى هذه الحالة يكون مضمونا أن المرأة سوف لاتتورط فتخلط بين الحب والصداقة ، فتفسدهما جميعا٠٠**

وهذا الحل فى نظرى أقرب الى الطبيعة ، لانه من السخف والاغراق فى الغفلة أن يحاول رجل وامرأة أن يعيشا ويتعاشرا وكأن ليس لهما أجساد !

يصادقون الطبيب ٠٠ أو الاديب !

◆ **وهناك** نوع من الناس لايرتاح الى صداقة فردية شخصية ، وهؤلاء يجعلون موضع نجواهم وأسرارهم أشخاصا عموميين ، من قبيل الطبيب النفسانى ، أوطبيب العائلة ، أو صحفيا أو كاتبا أديبا ٠٠ الخ ـ ولهذا يجب على الطبيب أن يكون فيلسوفا الى جانب معرفته بفنه ، لانه فى أحيان كثيرة يكون مطالبا بعلاج العقل عن طريق الجسم ، أوعلاج الجسم عن طريق العقل ٠ ويجب كذلك أن يشعر المريض أنه صديق روحى مخلص ، ولاسيما لاولئك الذين يخالون فى أنفسهم شذوذا عن المألوف ٠

والغالب فى هؤلاء الناس أن يخيل اليهم أنهم يرون أنفسهم فى جميع أبطال الروايات التى يقرؤونها ، وفى هذه الحالة تهدأ أعصابهم لانهم يطمئنون الى وجود أشباه لهم فى الحياة ،

فتنتهى وحدتهم الموحشة • وما أكثر ما أنقذت روايات «تولستوى» و «ستندال» مرضى نفسيين بهذه الوسيلة !

صديق العقل •• غير صديق النفس !

وفى بعض الاحيان يعمد الانسان الى وضع زمام توجيهه بين يدى شخص يعتبره أقوى منه عقلا ، فالصديق فى هذه الحالة يكون أستاذا وسيدا وصديقا فى آن واحد !

وانى أنبه الى ضرورة التدقيق فى اختيار الاستاذ من هذا الطراز النادر ، فاذا تخيرت أستاذا فثق به وحاول أن تفهمه جيدا قبل أن تنتقده أو تفند رأيه • فانه ما من صداقة عقلية أوغير عقلية يمكن أن تكون بدون الايمان والثقة والولاء ، فاذا تحريت ذلك أمكنك أن تجمع حول نفسك أسرة عقلية تضم نخبة من كبار العقول فى العالم •

ومما أثلج صدرى ماسمعته أخيرا من أن تاجر أخشاب فى مدينة (جرينوبل) قد اتخذ الفيلسوف القديم « مونتين » أستاذا له وصديقا ، فلا يذهب الى مكان الا ومعه مجلد من آثار أستاذه !

فحبذا لواجتهدت أنت فى تنمية هذه الناحية من الصداقة ، حتى تصل الى درجة الحب والعاطفة القوية ، فيحملك عقل صديقك العبقرى الى آفاق بعيدة وأجواء عالية تساعدك على تكميل نفسك واكتشاف غوامضها • ولا ريب فى أن المطالعة رياضة عقلية تكشف قناع النفس الزائف وتستخرج مكنوناتها ••

الصداقة بين الرئيس ومرؤوسيه ••

ويتفق أحيانا ألا يكون الصديق أوالاستاذ المختار كاتبا أوفيلسوفا ، بل رجلا من رجال العمل يعمل المرء تحت امرته أوزعامته فى غير منافسة أوحسد • ومثل هذه الصداقة ممتعة جدا ، وتسمح بالالتقاء بعد العمل للسمر والتحدث فى أعمال اليوم الفائت والتناجى بالآمال المشتركة •• ومثال هذه

الصـــداقات متوفر فى (ميس) الضـــباط ونواديهم ، وفى المجموعات التى تعمل تحت امرة رئيس دمث الخلق لايفـرض سلطانه ، وانما هو صديق لين الجانب لمرؤوسيه ، يتحـــدث اليهم فى شئونه وشئونهم ، ويفهمهم ويفهمونه ٠٠!

وعلى العموم لا غنى للمجتمع عن الصداقة ، فاذا كانت الاسرة هى خلية المجتمع الاولى ، فان الصـــداقة هى الرابطة العصبية بين هذه الخلايا ٠٠

قالوا ٠٠ فى الصداقة

- اذاكان الحب الصادق نادرا ، فالصداقة الصادقة أندر !ـ «لافونتين»
- ليس ثمة « صداقة » بين رجل وامراة ٠٠ وانما حب ، أو شهوة ، او كراهية !ـ « أوسكار وايلد »
- الصداقة تنفع دائما ، اما الحب فقديضر فى بعض الاحيان !ـ «سنيكا»
- الصداقة هى الحب بغير أجنحته !ـ « بيرون »
- اللهم احمنى من أصدقائى ، اما أعدائى فانا الكفيل بهم !ـ « مارشال دى فيار »
- ارتيابك فى صديقك عار يفوق خديعته لك !ـ «لاروشفوكو»
- الصداقة الحقيقية كالصحة الجيدة ، لا نعرف قيمتها الا حين نفقدها !ـ « كولتون »
- الطريق الوحيد لان يكون لك صديق ، هو أن تكون انت صديقا !ـ « امرسون »
- الاصدقاء كالبطيخ : لكى تحصل على واحدة جيدة يجب ان تختبر مائة !ـ « كلود ميرميه »
- أعنف الصداقات هى أسرعها الى الزوال !ـ «هازلت»
- لاتهجر صديقا قديما ، فالصديق الجديد لايقارن به ٠٠ كالخمر الجديدة ، لاتقارن بالخمر المعتقة !ـ « سليمان الحكيم »
- تمهل فى الارتباط بصداقة جديدة ، ولكن متى ارتبطت فداوم عليها وتمسك بها !ـ « سقراط »
- الصديق الحقيقى هو روح واحدة فى جسدين !ـ « ارسطو »
- لا صداقة بين الشركاء فى السلطان ، فالحاكم لايطيق شريكا !ـ «لوكان»

— ١ —

◆ كان اول شعور انتابنى حين هبطت «لشبونة» ، وبمجرد ان تنسمت هواءها العطر ، احساس خفى الهمنى ما سوف يحدث لى فى تلك المدينة ٠٠ فان شوارعها العتيقة المنحدرة ذات الالوان البهيجة ، واشجارها الخضراء ، ومياهها الزرقاء ، وفتياتها السمراوات اللواتى يرقصن وهن يصطدن السمك ٠٠ كل ذلك جعلنى ادرك كم سيكون ضربا من المستحيل ان ابقى فى تلك المدينة الساحرة دون ان اتعرض لخطر فقدان قلبى !

ورغم ان اعمالى كانت تضطرنى الى البقاء ، لم احس نفورا اوخوفا من ذلك الخطر ٠٠ بل فلأعترف بان فكرة التورط فى مغامرة غرامية طريفة فى تلك الظروف ٠٠ قد شاقتنى !

وكنا فى ديسمبر ٠٠ فلم يكد يهبط المساء حتى صار الهواء لاذعا ، فحثثت خطاى فى المسير ، بينما كان حمال الفندق الذى يحمل متاعى يتبعنى متذمرا من اسراعى ٠٠ حتى بلغنا فندق «دوفامر» حيث اعتزمت الاقامة ، فتسلم الخدم امتعتى ثم قادونى الى غرفة صغيرة فى الطابق الخامس لا يتعدى اثاثها المتواضع فراشا ومقعدا وحوضا للغسيل ٠٠

◆ وحين تركت بمفردى فتحت نافذة الغرفة المطلة على الخارج ، فراعتنى روعة الطبيعة الساجية ٠٠ وتصاعد الى من اسفل عطر غامض يفوح منه شذى زهر البرتقال والورد ، فتغلغل فى حواسى وخدرنى ، كما لو كان نبيذا معتقا !٠٠ وهكذا لبثت برهة انشق نسائم الليل وهى تحمل الى فى طياتها كل السم الخفى لذلك الجو المغرى الخداع ، الذى يفتن الانسان عن نفسه ويسكره !٠٠ الجو الذى ليس اخطر منه على

ابن الشمال الذى اعتاد قسوة الطقس وعتو الطبيعة فى البلاد الباردة ، فهو لايفتأ يمحو من راسه الماضى بجميع حقائقه الجامدة ويسوقه الى تذوق متع الحاضر الغامض ، والمستقبل الاكثر غموضا ٠٠ فاذا الشخص قد صار أعجز من أن يقاوم سحر نظرة ، اونشوة لمسة ، او عذوبة اغنية !

◆ واعادنى جرس العشاء الى نفسى ، فهبطت الى قاعة الطعام حيث قادنى رئيس الخدم الى مائدة صغيرة أعدت لى ، فجلست ٠٠ وبوحى الغريزة رحت ألتفت حولى لارى ما اذا كان هناك شخص اعرفه ، لكنى لم ار غير أزواج من الرجال والنساء لم يعيرونى اى التفات ، سواء عند دخولى او أثناء فترة الطعام ٠٠ وفى ظرف كهذا لايبقى للغريب الحائر مخرج سوى ان يتلهى بمطالعة جريدة ٠٠ وهذا مافعلتـــه ! على انى لم البث ان ضقت بذلك فتركت القاعة وانا لاادرى ماذا افعل بعد ذلك ، وكيف اقضى ليلتى الاولى فى بلدة خشيت ان اتوغل فيها وحيدا ، كما يخشى الانسان الحب فى البداية !

وفى انتظار «الفرج» جلست ادخن فى مقعد مريح بقرب المدخل الرئيسى للقاعة ٠٠ وفجاة قطعت احلامى اصداء ناعمة لانشودة «سيريناد» من اناشيد نابولى الجميلة ، يغنيها صوت ملائكى ٠٠ وكانت الانشودة بمثابة العصا السحرية المتممة لنشوتى ، فقد اثارتنى موسيقاها الايطالية ذات السحر الحالم والرقة الاقوى أثرا من العنف !٠٠ وكانما لمست انغامها اوتارا خفية فى اعماقى وجاءت تعبيرا صادقا عن نفسيتى الحائرة ، وقلقى الذى لايوصف ٠٠ وضاعف من فعل الموسيقى صفاء صوت المغنية ووضـــوح نبراته ، فلم املك غير ان انهض فجاة كى استفسر عنها ٠٠ واجابنى الساقى قبل ان انطق بسؤالى : « انها فتاة تقيم هنا مع والديها ، تدعى مدموازيل ليز بيرنييه » ٠٠ فوجدتنى اساله «اهى فرنسية ؟ » ٠٠ فقال : «نعم ياسيدى ، فاذا تفضلت فتبعتنى الى الصالون استطعت أن تراها ٠ وعندئذ سوف تفخر بمواطنتك »

فتحت باب الصالون ومرقت منه فى هدوء ، فاذا جماعة قليلة قد جلست حول منضدة صغيرة تصغى فى انتباه شديد ٠ وفى البداية لم ارغير ظهر الفتاة ، فجلست فى مكان خال على اريكة ، بجوار رجل عجوز كان رافعا عينيه الى السماء فى هيئة من يتذوق اعمق اسرار النغم

◆ ومضت الفتاة تعزف اللحن فتلمس اصابع البيانو فى جلال ، وكانت حركاتها

متسقة كصوتها مع الانغام ، فاحسست ببهجة غريبة وانا اتتبع اهتزازات جسمها الصغير وثوبها الابيض ، بينما انطلق خيالى يرسم لى صورة وجهها الذى لم اره ‥ ثم انتهت الاغنية فصفق الناس فى حماس ، ماعدا العجوز الذى بجوارى فقد اطلق من صدره زفرة حارة وهو يستدير نحوى قائلا : « انه لشىء رائع ، اليس كذلك ؟ » وكنت صادقا حين اجبته «رائع حقا ، ومتسق مع جو هذه البلدة الساحرة »

ـ هذا هو ، هذا هو ‥ «متسق مع الجو» ‥ انه التعبير الدقيق الذى كنت ابحث عنه ‥ لعلك موسيقى ياسيدى ؟

ـ كلا ، ولكنى مثلك احب الانصات للصوت الجميل ‥

ـ للصوت الجميل حين يرتل اغنية جميلة . ياللموسيقى الايطالية ، انها آلهية ! بل ليس لها مثيل ‥ اما الموسيقى العصرية فيجب ان تعترف معى بانها بغيضة ‥

لكنى لم اعترف بشىء ، وانقذنى من المضى فى المناقشة شروع الفتاة فى انشاد اغنية ايطالية اخرى . وفى هذه المرة اخذ جارى يهز راسه وينقر الارض بقدمه فى رفق مع النغم . كأن كيانه كله يشع فرحا ، ومن وقت لآخر كان ينظر الى ‥ كانه يستوثق من اننى اشاركه بهجته !

ولقد كنت كذلك فى الواقع ‥ احسست انى ماخوذ بالموسيقى ، كما كنت ماخوذا بلشبونة !

◆ وحين انتهت الاغنية صفقت مع المصفقين ، فاستدارت الفتاة وهى تبتسم شاكرة ثم هرعت نحونا ، فلم المح منها فى البداية غير شعر مرسل ، وعينين صامتتين ‥ وقبل ان افيق من دهشتى وضع العجوز يدا على ذراعى وهو يقول : « ابنتى ‥ مدموازيل ليز برنييه »

ـ « تشرفت يا آنسة »

ومدت الى يدا صغيرة ناعمة وهى تنحنى . وحين اطريت غناءها بدا عليها ارتباك شديد ، سرت الى عدواه ، فلم استطع المضى فى الحديث ! وفيما انا اهم بالانسحاب لحقت بنا ام الفتاة فكررت لها تقديرى لمواهب ابنتها ، بينما قال الاب «يسرنى ان وجدت اخيرا هنا واحدا من مواطنى ‥ فآمل ان تتيح لى الفرصة كى اقدم لك شرابا خفيفا «ليكور» وسيجارا ‥ فهلا انتقلنا الى قاعة التدخين ؟ »

وقبلت الدعوة الودية على الفور ‥ وتحدثنا عن لشبونة والبرتغال ، وعن موعد عودتنا الى باريس ‥ الخ ‥ اما الفتاة فلم تنطق طيلة الوقت بحرف ! ‥ وبالرغم من ذلك احسست فى نهاية الليلة ذاتها اننى قد ‥ احببتها !

— ٢ —

◆ كان احلى مافيها طابع العذراء النقية التى لم تمتد اليها يد بعد ! وفيما عدا ذلك كانت عيناها الزرقاوان ينقصهما البريق ، ووجهها ناقص الاستدارة ، وذقنها قصيرة ، وشعرها القاتم الناعم مرسلا فى اهمال •• لكن جميع هذه النقائص كانت تنسى حين تبتسم •• فحينئذ كان وجهها يتفتح كزنبقة بيضاء !

وبدات اسائل نفسى : ترى اهى خالية القلب من اى حب ؟ وكنت احرص خلال محادثاتنا على ترقب اللحظة التى قد تلمس فيها كلمة عابرة شغاف روحها فتفضح عيناها مشاعرها ! لكن شيئا من ذلك لم يحدث • كانت دائما هى هى ، الفتاة العذبة الساكنة التى تنم صراحتها « المفجعة » وبساطتها الساذجة عن براءة خالصة لاتملكها غير طاهرات القلوب ••

وكانت على قسط متواضع من التعليم ، نشات بين قوم محدودى الذكاء ــ وان يكونوا شرفاء ــ وبقيت رهينة اسوار المدينة حتى عامها الثامن عشر •• فلما خرجت صار والداها يعاملانها «كطفلة» متوسطة الحال مصيرها الى زوجية ريفية متواضعة •• وهكذا لم يتح لها أن تقرأ كثيرا ، وهى من ناحيتها لم تظهر غير اهتمام ضئيل بالكتب • ولكن كانت لها عاطفتان اخريان : عشق الطبيعة ، والغناء !

وصرت اراها كثيرا •• وفى كل مرة كانت احدى اناشيد « شومان » المسماة «الغريق» ترن فى اذنى وفى ذاكرتى ، وكل رقة وحرارة الاغنية تمرح فى حنايا قلبى! انها اغنية اذا لم تكن قد سمعتها فانت لاتستطيع ان تفهم الاحلام ، والآمال ، والشوق الملتهب •• وغيرها من المشاعر التى كانت كانما تشع من محيا « ليز » وتنساب فى كيانها !

◆ ووجد والداها فى شخصا مجانسا لهم فى الطباع فصبوا على وابلا من الدعوات ، سواء للطعام اوللتنزه •• حتى صرت اصحبهم فى اكثر جولاتهم بالمدينة ، التى لم تكن قليلة •• فقد كان الاب ــ وهو تاجر «متقاعد» ــ ولوعا بالسفر والترحال ، وبان يزيد قائمة البلاد والاماكن التى زارها ، كما يولع الصياد بتعداد الارانب البرية والوعول التى اصطادها !

وكنت الفرنسي الوحيد الذى صادفهم فى رحلتهم هذه ، فكفل لى ذلك صداقتهم ، وثقتهم ٠٠ حتى لم يعودوا يرتابون فى شىء ٠ وضاعف من تلك الثقة اعجابى الظاهر بفتاتهم واطرائى لصوتها وغنائها ٠ وبفضل هذا اتيح لى ان اخرج مع « ليز » للتمشى فى ضواحى المدينة ، فزرنا جميع معالم « لشبونة » ، و «باليم» واديرتها ، وحدائق الحيوان فيها ، حيث تنثر اشجار الكافور والورد عطرها واوراقها ٠٠ ثم زرنا الاحياء العتيقة ذات الشوارع الضيقة والبيوت « الاثرية » ٠٠ والاحياء الحديثة الاكثر رقيا ، التى تبدو بيوتها كانما طليت بالذهب ٠٠ وفى البداية كان مسيو ومدام برنييه يسيران بجانبنا ، ثم اخذت خطوات الوالدين تتباطأ تدريجيا ٠٠ حتى سمحا لنا بالابتعاد عنهما فى المسير ، كما لو كنا طفلين لابد ان يراقبا من بعيد ، ولكن دون ان يحرما من بعض الحرية فى اللعب !

◆ وهكذا سمعت معالم المدينة احاديثنا واسرارنا ، التافه منها والخطير ٠٠ كما سمعت صدى خطوات الابوين المتباطئة ، ومناداتهما لنا حين كنا نغيب عن نظرهما ويحسباننا قد ضللنا الطريق !

ولا شك انه قد كان بين ما قالته « ليز » لى نصيب كبير تافه ٠٠ كما كان فيما قلته لها كثير من الغباء والحماقة ٠ لكن احدا منا لم يلحظ شيئا من هذا اوذاك ، وانما كان مجرد سماعنا لاصواتنا ذاتها يبهجنا ٠٠ واحيانا كانت يدى تلمس يدها ، اوامسك بذراعها ، فلم يكن ذلك يبعث حمرة الحياء الى وجنتيها - حتى حين كنت ادفع الى الخلف باصبعى خصلة ثائرة من شعرها - وانما كانت تبتسم لابتسامتى ، وكانها صارت محض انعكاس لقلبى وقد اعيد الى شبابه ٠٠ اوبحيرة صفا ماؤها فرد لى صورتى كما كنت فى الماضى !

ورغم انى كنت فى الخامسة والثلاثين ، فان عامى الثامن عشر لم يشهد خلجات اكثر حرارة ، اوخيالات اكثر غرابة ، او ثقة اشد عمى مما صرت اليه فى خريف شبابى !٠٠ ومرة اخرى وجد لسانى الكلمات البسيطة والاساليب الساذجة التى بها تعبر عواطف القلب البكر عن نفسها ٠٠ كل ذلك فى اطار فاتن بهيج من سماء لشبونة الزرقاء الخالدة وحدائقها التى تطرز ارضها رقع متشابكة من الظلال والضياء ٠٠ رباه ، انى لم اعش من قبل !٠٠ بل لم احب من قبل ، اواتالم ٠٠ فان جميع جروحى القديمة قد التامت ، ولم استطع ان اعثر حتى على آثار ندباتها !

— ٣ —

◆ واحيانا كانت «ليز» تصحبنى فى المساء الى غرفتى ، كى نتحدث ٠٠ ولكنها لم تفعل ذلك قط دون اذن والديها ! وكانت غرفتى باهتة الضوء ، فكانت هى تبدو كظل ناعم من الضياء وهى تجلس الى النافذة قبالتى ٠٠ وذات ليلة ـ لن أفتأ اذكرها ـ هبت عاصفة رعدية شديدة وتكهرب الجو ٠٠ ولا ادرى لماذا سرت الكهرباء الى بدنى ، فلم أكد ألمح «ليز» متكئة على اطار النافذة وانا واقف خلفها ، حتى تملكتنى غواية رهيبة ، فلم أجرؤ على الاقتراب منها ٠٠ كما لو كنت غير واثق من سيطرتى على نفسى !

ولا ادرى اى شيطان ذاك الذى راح يهمس ـ لحظتئذ ـ فى اذنى : « كيف تخدعك هذه البراءة الظاهرية ؟ ٠٠ كيف تستطيع ، انت الذى بلوت الحياة ، أن تنتظر حتى تصارحك فتاتك التى وهبتك روحها ، بانها لا تطلب اوترجو افضل من ان تهبك جسدها ؟ ٠٠ انك تغالى فى عاطفيتك ، وكانك تصدق كل ملهاة حب تمثل امامك ، فتصفق لها فى كل مرة ، دون ان تدرك انك انت الذى سوف تكون الضحية ! ٠٠ يالك من ساذج ، اتكفى بضع خصلات من الشعر الاشقر ، وبضع نظرات بريئة كعناق الاطفال ، لان تجعلك تتصور انك قد وجدت ـ أخيرا ـ الحبيبة التى طالما حلمت بها فى فجر شبابك الخيالى ؟

«هاهى ذى امامك ، فتامل هذا المحيا : لاشىء فيه سماوى ! ان «ملاكك» كالاخريات ، ليست افضل منهن ولا اسوا ٠٠ وانها تنتظر ، تنتظر قبلتك ٠٠ فما من امراة اوفتاة تقدر او تهضم مسلكك هذا النبيل ! وانما سوف تفسر حيرتك واحجامك بان مردهما الى الانفة والترفع ٠٠ فاختطفها بين ذراعيك ، وقبل شفتيها الظامئتين ، ايها الابله ٠٠ فانها جديرة بان تحب ، ولكن كما تحب الاخريات ! »

واضطربت ٠٠ احسست كان يدا خفية تدفعنى نحو ليز ٠٠ بالرغم منى !

وفيما انا اهم بان احيطها بذراعى ٠٠ استدارت الى فجاة وهى تقول فى رقة وهدوء : «ماذا تفعل هناك ؟ تعال هنا الى جانبى » ٠٠ وكانما انصب بغتة على وجهى ويدى سيل من الماء البارد ٠٠ فاقتربت من ليز ، واخذنا نتحدث ، كما لو لم اكن منذ لحظة نهبا لاعصار عنيف !

— ٤ —

وعلى حين غرة استدعتنى الى باريس برقية من ٠٠ زوجتى !

... ...
... ...

فقد كنت متزوجا ، منذ عشرة اعوام ، ورب أسرة ، ووالد طفل !٠٠ وكان واجبى أن أكون جادا ، ولوعا ببيتى ، حريصا على السهر على رعاية أولئك المستضعفين الذين يعتمدون على حمايتى اياهم ٠٠ لكنى كنت حين أنظر دون قصد الى مرآة ، وأرى فيها نفسى ، أعجز عن تصديق ذلك ٠ أعجز عن أن أتصور ان على كاهلى كل تلك المسئوليات ٠ وانما يبدو لى على العكس أننى لم أتغير منذ فجر شبابى ، فيما عدا بضع تجعدات وبضع شعرات بيضاء ، وشيء من الرماد فى شاربى ، هى كل ما ينذرنى بأن السن قد تقدمت بى ، وان الزمن لا يتخطانى !٠٠ ولعل مرد هذه الشعرات البيض الى ذلك « الذعر » الذى تثيره فى الرجل وطأة شعوره بالقلق من الغد ، وبالعبء الفادح الذى يثقل كاهله ، والذى يوجب عليه ان يعمل بلا توان كى يدفع ثمن قبعة الزوجة أو حذاء الطفل ٠٠ الى آخر « حيثيات » الحكم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة !

ولا أنكر أنى مغرم جدا بالمرأة التى اشركتها معى فى حياتى ، فهى رفيقة طيبة ومرحة ٠٠ مغـرم بها حتى حين أكون فى غرفة مكتبى فتدخل على بدفتر الحساب الرهيب كى تعرض (الميزانية) وأبواب العجز فيها – الكفيلة بأن تدخل اليأس فى نفوس أعضاء أية لجنة برلمانية ! – فلا أملك غير أن أصغى ٠٠!

نعم ٠٠ عدت الى باريس ، الى زوجتى ! وكان طبيعيا الا أذكر لها شيئا عن حياتى فى لشبونة ٠ وكنت قد تفاهمت مع ليز على أن ترسل لى بطاقة بريد مختصرة بمجرد عودتها الى باريس ٠ فلبثت انتظرها بكل لهفة الشاب العاشق ليلة موعده الغرامى الاول ! لكن زيف الموقف كان يشوب هنائى : فقد كانت ليز تجهـل أننى زوج ، وزوجتى تجهل كل شيء عن ليز !٠٠ وبالرغم من ذلك استطعت أن أنعم بساعات أحفل بالسعادة واللذة من كل ما مر بى فى ماضى حياتى ! وذات يوم قالت لى زوجتى : «منذ عودتك من لشبونة وأنت تبدو دائما كالمحلق فوق السحاب ٠ فيم تفكر ؟ » فاسكتها بجواب ملتو ، وعدت الى خيالاتى ! ولولا شدة كبتى لعواطفى لرقصت كالطفل !٠٠ ياللحب ، ان جميع متع الدنيا تتضاءل الى جانب أتفه سر من أسرار القلب العاشق ، أو خفقة من خفقاته !

- ٥ -

◆ أخيرا تلقيت بطاقة ليز الموعودة ، وانا خارج الى عملى فى الصباح ، فلم تقع فى يد زوجتى . وقراتها : كانت ليز تدعونى لتناول العشاء فى منزلها فى الليلة التالية ..

وبقلب خافق رحت اتسلق السلم فى الموعد المضروب .. وكانت ليز ترتدى ثوبا خفيفا جعل فرحتها تشع من ثناياه كضوء خاطف ! ولم تحاول ان تخفى سرورها بلقائى ، واحسب انها لم تكن لتحجم عن تقبيلى لولا خشيتها ان يصدم ذلك والديها ! .. واشترك البرد فى الخارج ، والدفء فى الداخل ، ونور المصباح ، فى خلق جو لم احسه قط من قبل !

ورغم ان بيتى لم يكن ليقل اسعادا لى لو دخلته بذات الروح والنفسية .. فانى كنت أحاول ان العب دورى فى الحياة من جديد . وكل الخيال الذى ذبل فى قلبى طوال العشرة اعوام اينع فجاة وازدهر ، كما تتفتح الوردة القرمزية !

وطوال شهر كامل عشت فقط من اجل مقابلاتنا !.. وكان حياء الحب ، وخلجاته ، تملأ تلك الساعات التى سرقناها من موكب الحياة ..

اما بالنسبة لى .. فلم اعرف سوى نظرات ليز ، ويديها الصغيرتين المضمومتين بين يدى ، ونجوانا الساذجة ! وانى حين اغمض الآن عينى اواسير فى الليل ، ما ازال اسمع صوتها يكرر كلمات التدليل العذبة التى تجعل الانسان يبتسم ، والتى تشهد على ان العشاق انما يعودون من جديد أطفالا !

.. فهل كان فى مقدورى بعد هذا ان اعود الى بيتى واستانف حياتى الى جوار زوجتى وطفل ؟.. وكيف كنت لاعيش هذه الحياة المزدوجة ، واقمع جذلى فى ساعة الجذل ، والمى فى ساعة الالم .. واخفى افراحى ودموعى وهمومى !

ولكن كيف كنت لاقوى ايضا على المضى فى الكذب على ليز ، التى لم تخف عنى افكارها قط ؟.. اننا لم نكن نتحدث عن المستقبل الا نادرا ، لان الحاضر كان يكفينا . ومع ذلك كانت ليز - ككل المخلوقات العاطفية التى يعذبها الشوق الى اليقين - تفكر احيانا فى الايام التى سوف نعيش فيها معا ، كلانا فقط ، فكانت آمالها السعيدة تطعن قلبى طعنات موجعة !.. ولكن لم تكن لى الشجاعة ولا القوة الكافيتين كى اصارحها بالحقيقة المريرة !

— ٦ —

.. حتى كان يوم احد ، فى أواخر مارس ، وكانت السماء مكفهرة والبرد قارسا .. وكانت ليز قداخبرتنى فىاليوم السابق انوالديها ينتظران بعض اقاربهم القادمين منالريف كىيقضوا عطلة الاحدعندهم .. فانتهزت تلكالفرصة كى «اتصدق» علىزوجتى وطفلى بنزهة فىطرقات باريس ، كمايفعلمتوسطو الحال فىيوم عطلتهم .. فظللنا ثلاثتنانسير علىغيرهدى .. وبدا الطفل يتعب ، والسماء تقذفنا بكرات ثقيلة منالثلج ، والريح تمزقنقاب الجليد الذى نشر نفسه فوقهامات الشجر .. فاخذالمارة يتصايحون وهم يهرعون نحو الافريز كى يحتموا داخل ابواب العمارات .. واقترحت زوجتى ان نستريح فى احد مشارب الشاى ، اما انافرايت منالاصوب اننعود الىالبيت !.. وبعد مناقشة عقيمة اصررت علىتنفيذكلمتى ، فيممنا شطر الطريق المؤدى الى البيت ..

وفجاة رايتها .. ليز !.. واقفة فىمنعطف الشارع تحت مظلتها ! فعرتنىرجفة .. وحتىاللحظة لااستطيع اناصف القوة التىلاتقاوم ، التىجعلتنى استحث خطاىصوبهاوانا ادرك انهاحماقة منىوجنون ، ولكن دون ان اقوى على العدول !.. وهكذا مضيت نحوها بلاوعى ، فتبعتنى زوجتى وطفلى اللذان لم يفهما سر هذا التعجل الفجائى !

وادركتها ، فلمست ذراعها وانا اهتف : «ليز..ليز ! » ، فاستدارتنحوى .. وتسمرت امامها تحت وابل الثلج المتساقط ، اشبه بالمتسول الذى يطلب صدقة !.. لكنها لم تجب أوتنطقبحرف ، وانماكنت انا الذى استانفالكلام : « ظننت انك لن تخرجى اليوم ؟ » .. فاجابت فىصوت فاتر : « هكذا كنت احسب انا ايضا » .. ثم لاذت بالصمت !

وفجاة ادركت انها فهمت كل شيء .. واننى اوشك ان افقدها الىالابد.. فقلت محاولا الفرار قبل أن تلحق بنا زوجتى : « الى اللقاء ياليز ! »

لكن زوجتى تقدمت منها فى نفس اللحظة قائلة : « مدموازيل .. انزوجى لم يقدمنا احدانا الى الاخرى ! »

◆ اقسم اننى لاأعرف ماحدث بعد ذلك .. كل ماأذكره من الموقف صورة طفلى وهو يتعلق بيدى ، وصوت زوجتى وهى تقول كلاما .. كلاما كثيرا لم اسمع منه حرفا !.. ثم شبح ليز تقاوم الريح بمظلتها .. وقد ابتعدت !

.. وانا ، بكتفين منحنيتين ، اكاد لااتقدم خطوة فىسيرى .. وكاني اجر جثة ميت فوق الجليد !

الجريمة.. والعقاب

المحاكمات الكبرى

في الماضي والحاضر

عزيزي القارىء ...

قدمت لك في الاعداد السابقة من كتابي طائفة من القضايا والمحاكمات الهامة ، هي على التوالي : محاكمة «جورجيت هودو» ملكة الجمال الباريسية.. فمحاكمة السفاحين «بيرك» و «هير» . ثم محاكمة فيلسوف اليونان العظيم «سقراط» .. ومحاكمة «آن بولين» ملكة انجلترا في عهد هنري الثامن .. فمحاكمة «دريفوس» .. واخيرا محاكمة «ستافيسكي»

واليوم اقدم لك فيما يلي هذه المحاكمة المفجعة التي تصور في حقيقتها مأساة الزواج بالاجنبيات ، وتنطوي على كثير من العبر والعظات .. كما تنطوي على نموذج رائع من نماذج العبقرية القانونية الفذة التي لا يملك القارىء الا ان يحني رأسه اجلالا لها ، ولو انها اهدرت في النهاية دم شاب مصري !

وفي الاعداد القادمة تقرأ معي باذن الله في هذا الباب مجموعة منوعة من القضايا والمحاكمات الكبرى التي احدثت دويا ، سواء في الشرق او الغرب، ومنها: محاكمة « فلورنس ماي بريك » ـ وهي المحاكمة التي تعتبر سبة في جبين القضاء الانجليزي .. ومحاكمة «الكابتن كيد» .. ثم مجموعة شائقة من المحاكمات الجنائية الاخرى التي لمع فيها نجم المحامي العالمي « مارشال هول» .. وعشرات غيرها

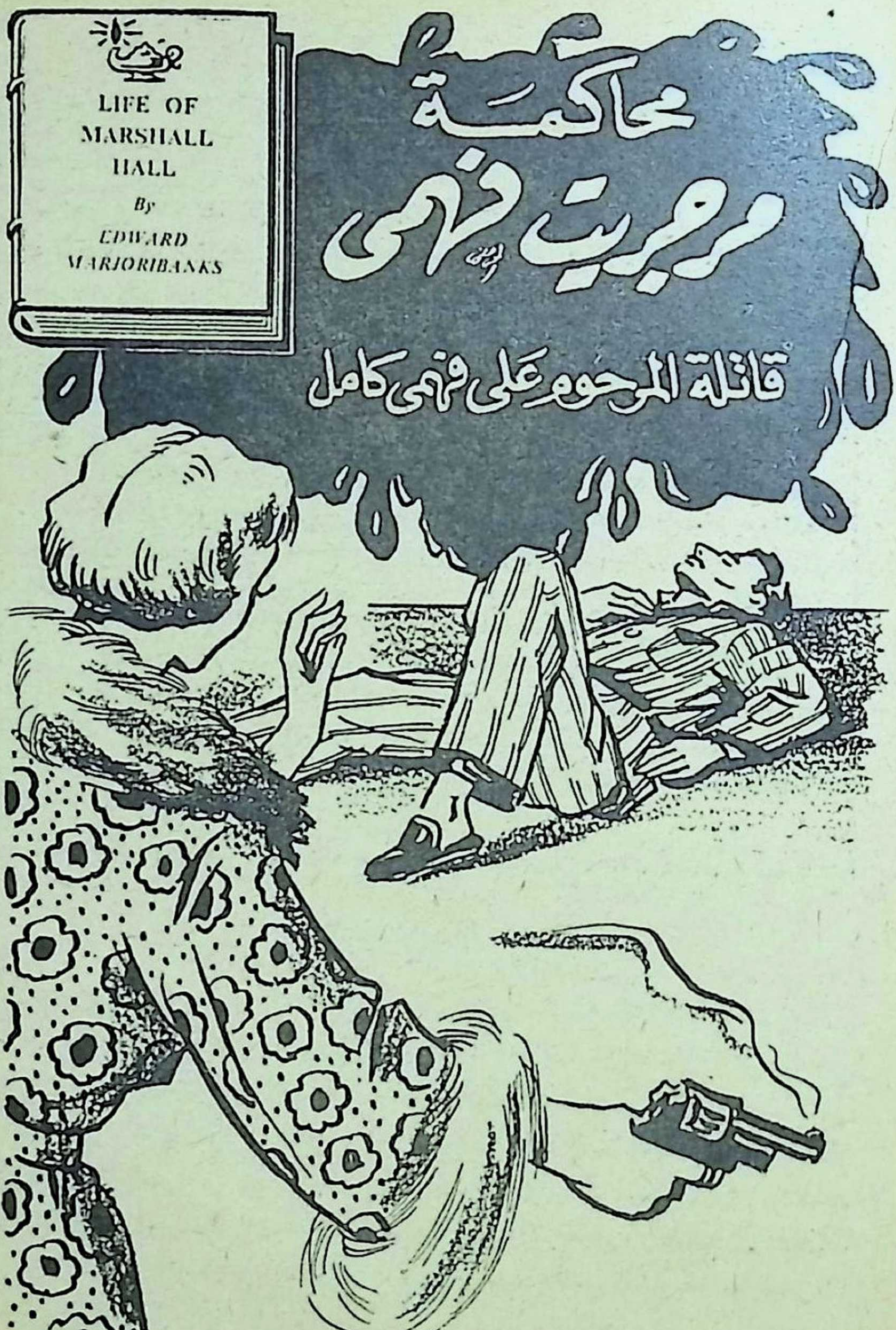
LIFE OF
MARSHALL
HALL
By
EDWARD
MARJORIBANKS
محاكمة
مرجريت فهمي
قاتلة المرحوم علي فهمي كامل

هذه المحاكمة ...

◆ فى ١٠ يوليو سنة ١٩٢٣ روعت أسرة مصرية كريمة بمصرع شاب من أفرادها فى زهرة شبابه وقمة ثرائه واقبال الدنيا عليه - هو المرحوم على فهمى كامل - بيد زوجته « الفرنسية » ، السيدة مرجريت الليبير ، (أو مرجريت فهمى كماصارت تدعى بعد زواجها منه) .. وقد احدثت الجريمة يومئذ ضجة تجاوبت بصداها ثلاث من العواصم الكبرى ، هى : لندن ، حيث وقعت الجريمة .. وباريس ، بلد الجانية .. والقاهرة ، بلد المجنى عليه ..

وقد صدر أخيرا فى لندن كتاب عن حياة المحامى الانجليزى الاشهر «سير ادوارد مارشال هول» ، تضمن سردا مفصلا لاطوار محاكمة «مرجريت فهمى» ، باعتبارها من أبرز المحاكمات التى خلدت اسم مارشال هول كمحام جنائى من الطراز الاول .. بل لقد اطلق عليه الكثيرون عقب مرافعته فى المحاكمة المذكورة : « اعظم محامى العالم ! »

ولايخفى أن الكتاب يسرد القضية بالطبع من وجهة نظر واحدة ، هى وجهة نظر محامى القاتلة .. فاذا كان فى التفصيلات التى تضمنها - والتى نلخصها هنا عنه بكل امانة - شىء يجانب الصواب ، من وجهة نظر اسرة المجنى عليه ، فنحن نرحب بنشر اى تصحيح للوقائع اوتعليق عليها يصلنا من اى شخص كان طرفا فى المأساة ..

ليلة عاصفة !

◆ فى منتصف ليلة ٩ - ١٠ يوليو سنة ١٩٢٣ اجتاحت مدينة لندن عاصفة عاتية اشتد فيها قصف الرعد وتوالى وميض البرق الخاطف الذى أضاء السماء اضاءة متصلة نحو ساعتين كاملتين ، بدت مبانى العاصمة ومعالمها خلالهما أشبه بالعمالقة المرعبة المزمجرة .. تتفجر فوق رؤوسها «كرات النار» وتتفتت الى ملايين الشهب الصغيرة التى تعشى الابصار وتصم الآذان ! .. فكانت تلك العاصفة أعنف ماعرفت لندن منذ سنوات

طوال ، أو على حد تعبير سير مارشال هول بعد ذلك أمام محكمة «أولد بيلى» : **ان تلك الليلة الليلاء الرهيبة كانت كأنما حفلت بأرواح الجن المخيفة والشياطين الغامضة المسحورة !** .. وكان من حسن الطالع أن العاصفة بلغت شدتها القصوى فى وقت كان فيه أكثر رواد المسارح والملاهى قد وصلوا الى بيوتهم آمنين ، والا لوقعت كوارث لا حصر لها ، سيما وان أحدا من سكان لندن لم يكن يتوقع ليلة عاصفة من هذا القبيل فى أعقاب يوم كان – على العكس منها تماما – حارا قائظا ، تشبه حرارته طقس المناطق الاستوائية !

فى تلك الليلة العاصفة وقعت المأساة .. وكأنما كانت الطبيعة طرفا فى المؤامرة التى حبكت خيوطها ، فأعارتها اطارا من الرهبة والكآبة والوجوم خليقا « بمسرحية » من مسرحيات «أخيل» أو مأساة من مآسى شكسبير !

والآن رجعة بنا الى الوراء ..

الباريسية الظامئة الى ماء النيل !

◆ **كان** قد هبط فندق «سافوى» الفاخر بلندن قبل تلك الليلة بأيام «ثلاثى» ممتاز ، يتألف من «الامير» المصرى على فهمى بك ، وزوجته الباريسية الحسناء «مرجريت» ، وسكرتيره وكاتم سره المخلص « سعيد عنانى » ..

وكان «الامير» ابن مهندس مصرى كبير .. وكان شابا فى الثانية والعشرين ، ورث عن والده ثروته الطائلة ، وأنعم عليه برتبة البكوية لكثرة تبرعاته السخية للاعمال الخيرية . وأثناء عمله كملحق بالمفوضية المصرية فى باريس ، تعرف هناك الى «سيدة » باريسية فاتنة ، من الطبقة الرفيعة ، تدعى مدام مرجريت لوران – وكان اسمها العذرى قبل زواجها الاول « مرجريت أليبير » – ولاندرى هل كانت مطلقة ، أو أرملة ، أو

منفصلة عن زوجها ! **وانما كل الذى نعلمه أن الاسباب قد اتصلت بينها وبين الشاب المصرى الثرى .. فلما دعاها الى زيارة مصر قبلت مرحبة ، وهناك عقدا زواجهما العرفى فى ديسمبر سنة ١٩٢٢** .. وكان الدافع لها الى الزواج من الشاب «الشرقى» ـ وهى التى تنتمى الى بلد من أعرق بلاد « الغرب » ثقافة ـ هو شوقها الى «الاستمتاع بحياة الاحلام مع ذلك الشاب الجذاب الذى يبدو غاية فى الرقة والدماثة من كل وجه ، والذى يحبنى حب اعزاز مكين» ـ على حد تعبيرها فى خطاب كتبته يومئذ الى صديقة انجليزية لها .. !

بيد أنها حين جلست بعد زمن الى مائدة الغداء مع زوجها الجديد وسكرتيره فى مطعم الفندق اللندنى الكبير ، كانت قد سلخت وطرحت وراءها أشهرا عديدة من التعاسة والشقاء ، لا من «حياة الاحلام» كما كانت تخال وتتمنى !

وكان قائد الاوركسترا فى الفندق يجهل بطبيعة الحال تلك الحقيقة الخافية ، فلما خطر له أن يكرم «الامير» المصرى وزوجته ، اتجه من فوره الى حيث انحنى للسيدة أمام الملأ وهى تتناول غداءها ظهر اليوم التاسع من شهر يوليو ، وسألها ان كانت ترغب فى أن يعزف لها لحنا معينا تفضله ؟.. فكان جوابها هذه العبارة الغريبة : « **أشكرك شكرا جزيلا ، لكنى لست متلهفة على سماع شىء من الموسيقى .. فان زوجى سيقتلنى فى مدى أربع وعشرين ساعة !** »

وكان الموسيقى المهذب قد ألف أن يسمع فى حياته الكثير من الاجابات العجيبة الشاذة ، فاكتفى بأن انحنى لمرجريت فى تأدب وهو يجيبها بدوره : «أتمنى أن نراك هنا غدا ياسيدتى ! »

الجريمة ..!

◆ **فلما** انقضت على انتصاف تلك الليلة ساعتان ، وكانت العاصفة العاتية فى عنفوانها ، كان أحد حمالى الفندق يدفع

فى رواق من أروقته تلك العربة الصغيرة المعدة لنقـــل متاع النزلاء ، حين سمع صوتا يعلو على هزيم الرعد القاصـــف ٠٠ صوت ثلاث طلقات نارية توالت سراعا !٠٠ **فلما خف الى مصدرها وجد «الامير» على فهمى ملقى على أرض حجرته ، فى « بيجامة » النوم ، والدم يتدفق من فمه بغزارة ٠٠ وقد ألفت زوجته على الارض مسدسا «أوتوماتيكيا» من طراز براوننج ، وعند قدميها ثلاث طلقات فارغة !**

فلما استدعى مدير الفندق الليـلى الى مكان الجـريمة ، ابتدرته السيدة صائحة بالفرنسـية : « ماذا فعلت ؟ ماذا سيفعلون بى ؟ آه ياسيدى ، لقد تزوجته منذ ستة أشـهر ، قاسيت خلالها عذابا رهيبا !»٠٠ وحين اسـتدعى الطبيب ـ الدكتور جوردون ـ على الاثر ، قالت له الزوجة بالفرنسية أيضا : « لقد جذبت الزناد ثلاث مرات !»٠٠ وكان معروفا أنها تحتفظ دائما فى حوزتها بمسدس محشو كى تستعين به عـلى حماية جواهرها عند اللزوم ٠٠

ووكلت مهمة الدفاع عن المتهمة ـ مدام فهمى ـ الى المحامى الشهير مارشال هول ٠٠ وأمام تلك الطلقات الثـلاث ، وما تفوهت به الزوجة بلسانها على أثر مصرع زوجها ، بدا موقف تلك المرأة الاجنبية الحسناء المتلبسة بقتل زوجها ، داعيـا الى الرثاء واليأس !٠٠ وكان الرأى السائد انها لابد قد عانت شقاء مروعا حتى تلجأ الى ارتكاب جريمة كهذه !٠٠ وقال آخـرون معلقين : «لقد نسيت أنها في بلد آخر غير باريس ، حيث كان يمكن أن تبرأ ساحتها بحجة أن الجريمة « عاطفية » مبعثهـا النزوة الطارئة !٠٠ أما فى لندن فلا مجال لمثل هذه الاعذار ! »

لكن مارشال هول لم ييأس مع ذلك أو يخلد الى القنوط ، بل عمد ومساعدوه الى تقصى ماضى الزوجين وقصة علاقتهمـا وزواجهما الكاملة ٠٠ وكلما أوغل فى هذا البحث ، كلمـا

تجمعت لديه الادلة على توافر ركن الاستفزاز والاستثارة من جانب المجنى عليه ، وانتفاء ركن القصد الجنائى من جانب المتهمة !.. ورغم أن مرجريت كانت وحيدة فى لندن فى تلك الايام العصيبة ، خالية الوفاض من المال ، فقد كان لها أصدقاء مخلصون ، تطوعوا بالمال والجهد للقيام باستقصاء كامل فى باريس وفى غير باريس عن أسرار حياة القتيل الخاصة !.. وقد جاءت هذه المباحث معززة من كل جهة للقصة المخيفة التى لا تكاد تصدق ، التى نسبتها المتهمة الى زوجها (ولم يذكر الكتاب كنه القصة بأكثر من هذه العبارة)

بل لقد أحضر الى لندن شابان كانت لهما صلة بالقتيل ، كى يكونا رهن اشارة المحكمة فيما لو قام أى شك بشأن خلق «الامير» الحقيقى .. وقد برر مارشال هول لجوءه الى هذا السلاح الشائك فى الدفاع عن موكلته ، بقوله : « نحن فى حل من سماع أية شهادة ، من أى انسان ، للوصول الى الحقيقة واثباتها بالدليل القاطع ، بغية انقاذ حياة هذه السيدة المعرضة للخطر ! »

البحث عن منفذ ..!

◆ **ولم** يدع المحامى الكبير بابا يمكن أن يفيد منه الدفاع وينفذ منه الى مبتغاه الا طرقه .. من ذلك أنه توجه الى أحد تجار الاسلحة فاقترض منه مسدسا من الطراز الذى ارتكبت به الجريمة ، وراح يفحصه بكل عناية ، فطالما كانت معاينة المسدس سبيلا الى هدم التهم الآخذة بتلابيب بعض المتهمين !.. كما انه أخذ يقلب أدلة الدفاع و «تكتيكه» على مختلف الوجوه ، ويعيد وزن كل منها بدل المرة مرات : **من قبيل ذلك أنه عثر فى عقد زواج المجنى عليه بالمتهمة على النص المطبوع الذى يعطيها العصمة فى يدها ، وقد «شطب» من العقد بناء**

على طلب الزوج !٠٠ فى حين بقى له هو حق تطليقها فى أى وقت ، بايقاع يمين الطلاق المألوفة ، لاتفه سبب ٠٠ وقد كانت هذه القرينة سلاحا ـ للدفاع أو الاتهام ـ ذا حدين : فهى من جهة بمثابة «ظرف مخفف» يدل على نوع «الفخ الابدى» الرهيب الذى وقعت هذه الزوجة «الغربية» فى شراكه ، ومدى القلق النفسى الذى عانته طيلة مدة الزواج !٠٠ لكن هذه القرينة نفسها ، ألا يجوز أن تعتبر على العكس ظرفا «مشددا» ، باعتبارها صورة من التعنت القاسى أمدت المتهمة «بالباعث» على القتل ، مع سبق الاصرار ٠٠ مادام القتل هو المهرب الوحيد لها من ذلك الزواج الذى يتمسك به الزوج ؟

بهذه الدقة ، والتمحيص ، والمثابرة ، جعل مارشال هول يقلب أساليب الدفاع على مختلف وجوهها واحتمالاتها ، منقبا بينها عن الاسلوب الصائب الذى ينقذ حياة موكلته من المشنقة !

المحاكمـــة ٠٠

◆ **وجاء** دور نظر القضية ، أمام دائرة الرئيس « ريجبى سويفت » ـ الذى كان فى الماضى من «تلاميذ» مارشال هول فى المحاماة ! ـ وجلس فى مقعد ممثل الاتهام مستر برسيفال كلارك ، وكان الجميع يغبطونه على قوة مركز الاتهام فى الدعوى٠ ومع ذلك فقد احتشد لمؤازرته وللادعاء بالحق المدنى نيابة عن أسرة القتيل نخبة من أقدر المحامين الانجليز ، الى جانب عدد من زملائهم المصريين الذين أوفدتهم الاسرة من مصر خصيصا للاخذ لها بثأر فقيدها والاقتصاص من قاتلته الاثيمة ٠٠ ثم لاتخاذ الاجراءات الكفيلة بحماية ذكرى الراحل وسمعته من كل تجريح قد يلجأ اليه الدفاع ، بغية انقاذ رأس المتهمة ٠ لكن مارشال هول لم يكن مستعدا فى هذه القضية بالذات لابداء أو قبول أى لون من ألوان المجاملة لزملائه المحامين الانجليز أو ضيوفهم المصريين ، ولو مراعاة لسمعة الفقيد !

ونودى الشاهد الاول «سعيد عنانى» ، سكرتير القتيل ، وكانت احدى صحف القاهرة قد رمزت اليه فى رسم كاريكاتورى بوصف أنه «ظل الضوء» - أوظل الفقيد - فأخذ مارشال هول يحاوره ويستجوبه عن قصة حياة سيده الحقيقية مع المتهمة ، أكثر من أربع ساعات متوالية :

- **لقد اعترفت للمفتش كروس بأنك حاولت أن تثنى الامير عن عزمه على الزواج منها ؟**

- نعم ..

- **ووصفته بأنه كان شرقيا ، حار العواطف ؟**

- نعم ..

- **وهل كان على فهمى مفتونا بالمتهمة فى تلك الفترة ؟**

- نعم ، كان شغوفا بها كل الشغف ..

وعندئذ تلا مارشال هول خطاب غرام صادر من على فهمى الى مرجريت يتضمن عبارات غزل وهيام حارة .. وفيه يناشدها أن تلحق به فى مصر : «**فان خيالك يلاحقنى بالحاح أينما اتجهت ، فأراك ياشعلة حياتى محاطة بهالة من نور ، وأرى رأسك مكللا بتاج أعددته لك هنا كى أتوجك به بمجرد وصولك الى هذا البلد الجميل ، بلد أسلافى الاقدمين !**»

ثم انتقل المحامي الكبير من تلاوة هذا الخطاب الفياض بالغزل الى شرح معاملة على فهمى لزوجته بعد الزواج ، فتلا فقرات من خطاب كتبه المجنى عليه الى أخت زوجته ، يقول فيه : «انى مشغول فى الوقت الحاضر بتعليمها وتهذيبها . وقد بدأت بذلك منذ أمس ، فلم أحضر للغداء أو العشاء ، ثم تركتها وحدها فى المسرح وخرجت ! وآمل أن تتعلم من هذه الدروس كيف تحترم رغباتى . فالانسان ينبغى أن يكون حازما قاسيا على النساء !» .. ثم دلل مارشال هول على أن هذا الثرى «المليونير» قد أرغم زوجته على ركوب الترام مع عامة الشعب ! .. وانتقل

من التذليل على اضطهاده المعنوى لهـا الى الاضطهاد الجسمانى الذى تبعه ! فاستأنف استجوابه لسعيد عنانى :

– هل وقعت بينهما مشادة عنيفة فى الحادى والعشرين من فبراير ؟ وهل تعلم أنه أقسم يومئذ على القرآن أن يقتلها ؟

– كلا ..

– وهل تعلم أنهـا كانت تخشى على حياتها ؟

– لم أعلم بشىء من ذلك قط !

– وفى الثالث والعشرين من فبراير ، هل أخذها فهمى على ظهر يخته الى «الاقصر» ، التى تبعد عن القاهرة عشرة أيام ؟

– نعم

– وهل كان على ظهر اليخت ستة من الخدم السود ؟

– نعم

– ألا تعتقد أن فهمى بدأ يسىء معاملتها ويقسو عليهـا منذ تلك اللحظة ؟

– لاأستطيع أن أسمى ذلك قسوة . كل مافى الامر أنه لم يكن «رقيقا» معها كما فى البداية ..

– ألا تقر بأن مدام فهمى التعسة الحزينة المحطمة التى عرفتها سنة ١٩٢٣ ، كانت امرأة أخرى تختلف كل الاختلاف عن مدام لوران المرحة الطروب الخلابة التى عرفها المجتمع سنة ١٩٢٢ ؟

– ربما ، فقد صارا يتشاجران دائما ..

– هل سمعتها تقول يوما انك أنت وعلى فهمى كنتما دائما ضدها ، وان الكفة لم تكن متعادلة ؟

ـ نعم

وهنا سأل مارشال هول الشاهد عما اذا كان سيده من أصحاب الميول الجنسية الشاذة ؟ فنفى ذلك بشدة ٠٠ وعند هذا انتهت شهادة سكرتير القتيل ، بعد أن أفلح الدفاع فى أن ينتزع منه أقوالا تثير فى نفوس المحلفين على الاقل شعورا «بالعطف» على المتهمة ، باعتبارها امرأة أوربية « هشة » وقعت تحت سيطرة مليونير «شرقى» عارم الشهوات !٠٠ ولئن كانت هذه النتيجة قد تكفى لتخفيف التهمة من القتل العمد الى القتل غير العمد ، فانها لم تكن تكفى لتبرئة المتهمة تماما كما كان يسعى هول !

الفكرة الجهنمية !

◆ **وكان** اليوم التالى موعد مناقشة خبير الاسلحة فى شأن المسدس الذى ارتكبت به الجريمة ٠ وكان مسدسا أوتوماتيكيا له خزان (مشط) ، ولابد فيه كى تصبح الرصاصة الاولى معدة للانطلاق أن تجذب ماسورته الى الخلف بيدك ثم تتركها ، ويكفى بعد ذلك أن تضع يدك على الزناد كى تنطلق الرصاصة الاولى، وتنتقل الرصاصة التالية من تلقاء ذاتها الى الوضع المعد للانطلاق ، وهكذا ٠٠

وأفاض مارشال هول فى مناقشة الخبير فى هذا الموضوع حتى أوضح للمحكمة تماما النظرية التى أعدها للدفاع بمقتضاها عن المتهمة ، وهى أنه اذا جذب صاحب المسدس ماسورته كى يصبح معدا للاستعمال ، يصبح فى وسع أى شخص جاهل بعد ذلك أن يطلق « فى الهواء » الرصاصة المعدة للانطلاق ، حاسبا بذلك أنه يفرغ الماسورة من الرصاصة التى بها ، كى يصبح المسدس آمنا بعد ذلك ٠٠ فى حين أنه بذلك يجعل الرصاصات التالية جميعا معدة للانطلاق على التتابع بمجرد الضغط على الزناد !

سر الشجار الاخير بين الزوجين !

◆ ثم نودى على أثر ذلك الدكتور جوردون ، الذى استدعى لفحص القتيل فور وقوع الحادث ، فأدلى بشهادة بالغة الاهمية من وجهة نظر الدفاع · فقد قرر أن المتهمة اعترفت له غداة مصرع زوجها بسبب شجارهما الاخير : قالت انه كان يلزمها أن تجرى لها عملية جراحية مؤلمة للغاية ، فرغبت فى اجرائها فى موطنها باريس · لكن زوجها أبى السماح لها بالسفر ، ولم يكن فى حوزتها من المال مايكفى لنفقات الرحلة والجراحة ·· **والانكى من ذلك أنه أزعجها بمطارداته وهى ماتزال فى نوبة ألم من جراء علتها التى تستدعى اجراء العملية ، فأصابها ذعر عصبى وشعور مفاجىء بالكراهية والفزع مما عرفت أنه يعتزم فعله** ·· وفى نوبة هذا الفزع المميت من قسوة زوجها وشذوذه تناولت المسدس فأطلقت منه رصاصة من النافذة كى تفرغ ماسورته ـ حسبما ظنت ـ ثم صوبته نحو زوجها وهو يتقدم نحوها ، وهى لاتنوى الاخافته ، بعد أن صار المسدس فى ظنها خاليا عديم الخطر ، ولكنها لاتدرى بعد ذلك كيف انطلقت الرصاصات منه فأردت زوجها !

ثم أضاف الطبيب ان حالة المتهمة عند فحصه اياها كانت تعزز مانسبته الى زوجها من مسلك شاذ ·· كما قرر انها قالت له فى هذا الصدد « اواه ياسيدى ، لو تعلم العذاب الرهيب الذى قاسيته خلال الستة أشهر التى انقضت على زواجنا !» ·· وكان المحلفون قد بدأوا يدركون طرفا من ذلك العذاب ، سيما وقد كان بينهم ثلاث نساء ···

المرافعة ··

◆ **وفى** الجلسة التالية استهل مارشال هول دفاعه عن مرجريت فهمى فاستغل « نعرة » الشرق والغرب أبرع استغلال، وأبشعه ! ·· أبرعه من وجهة نظر واجب المهنة المقدس بصفته

محاميا يبحث لموكلته عن مخرج ينقذ رأسها ٠٠ وأبشعه من وجهة نظر الحق والعدالة والمساواة بين الاجناس ٠٠

فقد تحدث هول أول ماتحدث عن الزهو الشديد الذى يحسه الرجل الشرقى حين يمتلك امرأة غربية ! (كذا) ٠٠ وندد بضعة وقسوة هذا الشرقى الذى أراد من زوجته طاعة كطاعة العبيد ، وعاملها بوحشية متواصلة « منظمة » ، انتهت بها الى أن صارت حطاما عصبيا !٠٠

ثم أبرز هول للمحكمة خطابا ، من مجهول ، تلقته مرجريت أثناء اقامتها فى فندق سافوى قبل الحادث بأيام ، وقد جاء فيه : « **حذار من أن تقبلى العودة مع زوجك الى مصر ، فقد يعنى ذلك انتهاء حياتك بحادث غامض ، أو سم مدسوس فى برعم زهرة ، أو ما الى ذلك من غوامض أسلحة القتل فى الشرق ! ٠٠ فلتحرصى على البقاء فى باريس بين القوم الذين يحبونك والذين سوف يحمونك !** »

ثم أخذ المحامى الكبير يصف للمحلفين كيف كان يحلو للقتيل أن يطلق مسدسه فوق رأس زوجته ، كى يرهبها ٠٠ وكيف كان يقيم عليها الحراس والرقباء من الزنوج العمالقة ، وعلى رأسهم عملاق مخيف يدعى «كوستا» كان يدين لسيده بفضل انقاذ حياته فى احدى المناسبات ، وكانت مرجريت تخشى ذلك العبد المفزع بصفة خاصة !

• يحاول خنقها !

وانتقل هول من ذلك الى وصف ماحدث ليلة الجريمة : كيف وقف الزوج يلوح أمام ناظرى زوجته بحزم الاوراق المالية التى تلزمها للسفر الى باريس واجراء الجراحة التى تخلصها من آلامها ٠٠ وكيف أبى أن يعطيها المبلغ المذكور الا اذا رضخت لرغبته الشاذة !٠٠ ثم كيف هددها فى تلك الليلة ذاتها

بالقتل ، بل وقبض على رقبتها فعلا فى أحد أطوار الشجار !٠٠

ثم ختم مارشال هول هذه المقدمة التمهيدية لدفاعه بالقول : ان المرأة التعسة التى قاست من وحشية زوجها ماقاست ، وما دفع بها الى هاوية اليأس ٠٠لم يخامرها شك حين جرؤت على تحدى رغبته ، فى أنه سينفذ تهديده الذى طالما جابهها به ، فيخنقها بيديه فى التو واللحظة ٠٠!

المتهمة تروى قصتها ٠٠

◆ **وعند** هذا الحد من المرافعة نوديت مدام فهمي لتسمع المحكمة أقوالها ٠ وكانت امرأة سمراء البشرة ، دقيقة التكوين، ذات حسن وجاذبية ، ومظهر «أرستقراطى» ٠٠ وبدأ هول يسترجع معها ــ مستعينا بمترجم ــ مراحل حياتها الشقية مع زوجها ، مرحلة مرحلة :

فمنذ الاسابيع الاولى التى قضتها فى ضيافته فى مصر ، وقبل حتى أن تتزوجه ، ودت أن تتركه وتعود الى فرنسا ٠ «فقد بدأت أدرك أنه غير مخلص فى حبه لى !» ٠٠ **وفى شهر يناير ، خلال « شهر العسل » ، تناول فهمى القرآن فى يده وأقسم عليه أنه سوف يقتلها ذات يوم ، وستموت بيده !٠٠ وبعد ذلك بأسابيع كتبت مرجريت الى محاميها فى فرنسا تقول انها تحمل على ذراعيها طابع « رقة » زوجها البالغة !**

ثم جاء أوان معاينة المسدس ، فقررت المتهمة بشأنه أنها لم تطلق رصاصة فى حياتها قبل تلك الليلة المشئومة ٠ وان

زوجها كان قد أعطاها ذلك المسدس يوما كى تستعين به عند اللزوم لحماية جواهرها ، وقال لها انه محشو و « معد للاطلاق » .. فلما حاول ليلة الحادث أن يخنقها ، تناولته لتدافع به عن نفسها . لكنها كانت تنوى أن تخيفه به فقط ، لا أن تقتله .. وفيما هى تعبث به بين يديها ، وهى فى تلك الحال من الاضطراب ، لمست أصابعها الزناد دون قصد .. فانطلقت منه الرصاصة الاولى ! واذ ذاك تنفست الصعداء ـ اذ حسبت أن ماسورته صارت خالية من الرصاص ـ فصوبته نحوه مطمئنة ، بقصد تهديده فقط واثنائه عن عزمه .. واذا بالرصاص ينطلق بالفعل ، فيردى زوجها عند قدميها صريعا !

وانخرطت مرجريت في البكاء بحرقة تثير الرثاء ، وهى تروى تفاصيل حياتها الرهيبة مع زوجها ، التى انتهت بمحاولته الاخيرة أن يعتدى عليها .. وهنا سألها محاميها :

ـ لماذا قبلت الحضور مع زوجك الى لندن ، وأنت على هذه الدرجة من الفزع منه ؟

ـ اضطررت للمجىء لاسباب عائلية ، كى أرى ابنتى المقيمة فى مدرسة بالقرب من لندن . ولم أكن قد قطعت الامل فى أن يتغير زوجى ، سيما وانه فى كل مرة هددته فيها بهجره كان يبكى مستغفرا ويعدنى بأن يصلح من حاله !

ثم انتقلت مرجريت الى « المشهد الاخير » من مأساتها ، فقالت تصوره وهى تقطع كل عبارة بشهقة منتحبة من نشيجها :

« .. وتحفز للانقضاض على ، وهو يقول لى متوعدا « سأقتلك ! » .. فرفعت ذراعى بالمسدس ، ودون أن أنظر الى أمام ، ضغطت الزناد .. ولست أدرى كم مرة انطلق المسدس ، ولا عرفت وقتئذ حقيقة ما حدث .. حتى رأيت فهمى ملقى على الارض أمامى ، فركعت على ركبتى بجواره ، وتناولت يده أهتف به كالمجنونة : « حبيبى ، تكلم .. أواه ، بربك كلمنى ! » وفى هذه

الاثناء أقبل الحمال على صوت الطلقات ·· لكنى كنت فى حال من التأثر والانفعال لم أفقه معها من الامر شيئا ! »

وسألهاهول : «عندما مددت ذراعك نحو زوجك بالمسدس، ماذا كنت تخشين ؟ »

ـ خشيت أن ينقض على ، فقد كان منظره مفزعا · وكنت قد نجوت مرة من موقف مشابه ، فتملكنى الذعر وهو يعيد ويكرر : « سأقتلك ، سأقتلك !» ·· أوه ، كم كان الامرفظيعا !

وهنا نهض محامى المدعين بالحق المدنى يستجوب المتهمة :

ـ سيدتى ، ألم تكونى ـ قبل زواجكما ـ تطمحين الى أن تصيرى زوجته ؟

ـ أطمح ؟ كلا ، بل لقد أحببته حبا قويا فأردت أن أعيش معه !

ثم واصل المحامى الخصم استجوابها بشأن خبرتها باستعمال السلاح ، قاصدا التدليل من ذلك على أن المتهمة قد أطلقت الرصاصة الاولى من النافذة ، لا لتفرغ الماسورة من الرصاص كما زعمت ، وانما لتتأكد من صلاحية المسدس للاستعمال قبل أن تطلقه على زوجها !

الوصية السرية

◆ **وكان** مارشال هول قد ادخر لهذه المرحلة من المحاكمة «مستندين» على أكبر نصيب من الخطورة : أولهما برقية أرسلتها المتهمة فى الساعة التاسعة من مساء ٩ يوليو الى باريس تقول فيها انها ستعود الى عاصمة وطنها فى اليوم التالى !·· والمستند الثانى وصية سرية كتبتها موكلته فى مصر بتاريخ ٢٢ يناير وأودعتها لدى محاميها المصرى ، على أن لاتفتح الا فى حالة وفاتها ·· وفيها تقول بالحرف الواحد :

« انا مارى مرجريت اليبير ، اقرر ـ وانا مالكة لقواى العقلية تماما ـ اننى فى حالة مصرعى بالعنف ، او وقوع اى مكروه لى ، اتهم رسميا زوجى

« على بك » بأنه قد ساهم فى اختفائى من الحيـاة !٠٠ ذلك أنه ، فى الساعة الثالثة من بعد ظهر أمس (٢١ يناير سنة ١٩٢٣) ، تناول القرآن ولثمه ثم وضـع يده عليه ، وأقسم بأن ينتقم لنفسه منىذات يوم - سواء غدا ، أو بعد أسبوع ، او شهر ، أوثلاثة أشهر ٠٠ المهم أن أختفى من الارض بيده !٠٠ وقد اقسم زوجى هذا القسم دون ادنى سبب مفهوم ، سواء من غيرة ، أوسـوء سلوك ، أو مشهد عاصف من جانبى ٠٠ لذلك فانى أرغب بل وأطالب بانصاف ابنتى واسرتى من عواقب فعلته ، والثأر لى منه ! »

فلما أقسمت المتهمة على صحة هذه الوثيقة ، بناء عـلى طلب الدفاع ، تركت منصة الشهادة آخر الامر ، بعداستجواب شاق استغرق نحو سبع ساعات متواصلة ٠٠!

الشرق فى أوهام الغربيين !

◆ وفى الجلسة التاليـة التى عقدت بعد ظهر اليوم الرابع من أيام المحاكمة ، سمعت شهادة كل من شقيقة المتهمة وسائق سيارتها الخاص ، وقدشهدكلاهما طبعا بمايؤيدقسوة القتيل على زوجته !٠٠

ثم نهض سير مارشال هول فاستهل الجـزء الختامى من مرافعته بقوله : **«حضرات المحلفين ، حضرات القضاة ٠٠ اذا كانت هذه المرأة ، الماثلة أمامكم ، قد ارتكبت خطأ واحداجسيما ٠٠ فهو انها تزوجت من رجل شرقى !٠٠ فلئن كانت المدنيـة المصرية القديمة من أقدم حضارات العالم وأعرقها وأعظمهـا ، فانك اذا جردت الشرقى من طلاء الحضارة الخارجية ، بقى لك منه الجوهر الشرقى الاصيل ٠٠!»**

ثم أفلح هول فى بعث القشعريرة فى أجساد سامعيه ، حين أخذ فى وصف الكيفية التى استدرج بهـا فهمى تلك الحسناء الغربية الى « جنته الشرقية » - وان بدت كلمة «الجنة» رهيبة غريبة على الاسماع بعد الاقوال والادلة التى سـمعتها

المحكمة فى هذا الصدد ! - ثم استطرد المحامى الكبير : « ولا تنسوا ذلك العملاق الاسود الضخم الذى يدين لسيده بحياته ، والذى كان يخف اليه كل يوم ليتلقى منه أوامره !٠٠ ترى لماذا كانت هذه المرأة خائفة مذعورة ؟ ان اللعنة التى تلقي ظلها على هذه القضية لهى ذلك « الجو » الذى يتعذر علينا أن نفهمه ٠٠ الشعور «الشرقى» بامتلاك المرأة ٠٠ شعور التركى وسط حريمه ٠٠ وانه لجو غامض لا قبل لنا باحتماله !

« ثم تصوروا أثر تلك العاصفة العاتية التى هبت ليلة الحادث ، على أعصاب امرأة سقيمة النفس ، انقضت عليها أشهر ستة وهى تعيش على تلك الصورة الموجعة : مهانة ، مستباحة ، مهيضة الانوثة ، مسلوبة الكرامة والحرية والحقوق جميعا ٠٠!»

موقف دراماتيكى !

◆ **واذ** بلغ «هول» فى مرافعته مرحلة تصوير كيفية اطلاق الرصاص ، قام بأعجب عرض تمثيلى أداه فى حياته كمحام ٠٠ فقد أخذ يقلد تحفز «الذئب» للانقضاض على فريسته : « **وفيما هو يتحفز للمرة الاخيرة ، يتحفز كوحش ، يتحفز كشرقى ، ثم ينكص على عقبيه لآخر مرة كي يقفز قفزة جديدة الى الامام٠٠ اذا اليأس يدفعها هى الى أن تتناول المسدس فتصوبه نحوه ٠٠ ولفرط ذعرها ينطلق الرصاص منه دون أن تقصد !»**

وفيما هو يتكلم صوب المحامى المسدس نحو المحلفين ٠٠ وحين وصف كيف سقط القتيل على الارض تريث لحظات ، ثم أسقط السلاح الثقيل من يده ٠٠ فأحدث ارتطامه بأرض القاعة ضوتا كالذى لابد أحدثه سقوطه على الارض فى فندق سافوى ! وان الكلمات لتعجز عن تصوير الاثر القوى الذى أحدثه هذا العرض التمثيلى والاداء «الدراماتيكى» البارع من جانب مارشال

هول ، فى نفوس شهود الجلسة والمحلفين ٠٠ وان يكن هو قد كرر القول بعد ذلك فى كل مناسبة ، بأن سقوط المسدس من يده انما حدث عفوا ولم يكن مقصودا ٠٠!

ثم جاءت الخاتمة البليغة للمرافعة ، التى أشار فيها المترافع لا الى مأساة عطيل ـ ولو انها ماكانت لتكون خارجة عن الموضوع ـ بل الى قصة عصرية واسعة الرواج والانتشار : « انكم تذكرون جميعا ولاشك تلك القصة الخلابة التى كتبها روبرت هيتشنز ، وأطلق عليها (بيلا دونا) ، وتذكرون المنظر الختامى فيها ، الذى تخرج فيه المرأة من أبواب الحديقة الى الليل الحالك فى الصحراء ٠٠ **فياحضرات المحلفين ، أنا أريدكم أن تفتحوا الابواب التى تستطيع هذه المرأة أن تخرج منها ، لا الى ليل الصحراء الحالك البهيم ٠٠ وانما الى حيث تعود لاصدقائها ، الذين يحبونها برغم نقائصها ، وسوف يسرون باستقبالها ٠٠ بل تعود الى طفلتها التى تنتظرها بذراعين مفتوحتين !٠٠** انكم ستفتحون الابواب ، وتدعون هذه المرأة تعود الى نور الشمس ٠٠ شمس حضارة الغرب الآلهية العظيمة ! »

وفيما هو يتكلم رفع هول بصره مشيرا الى السماء ، حيث كانت شمس سبتمبر المشرقة تتدفق الى قاعة المحكمة ، فتملؤها دفئا واشراقا ٠٠ وبهاتين الحركتين البليغتين ـ حركة اسقاط المسدس وحركة التطلع الى الشمس ـ جمع مارشال فى خطاب واحد أبلغ أساليب خطيبى مجلس العموم الخالدين « بيرك » و « بيت » !٠٠ وأخيرا التفت مارشال هول الى قضاة المحكمة ومحلفيها ، وقال لهم الكلمة المأثورة عن أحد أسلافه العظام : «لست أطلب «. منكم » البراءة ، ولكنى أطلب «لكم» أن تأتى البراءة على أيديكم ! »

ثم عقب ممثل الاتهام على مرافعة الدفاع مكررا المطالبة برأس المتهمة !٠٠ وفى النهاية لخص القاضى ظروف القضية

ومطالب الدفاع والاتهام بايجاز ، موضحا للمحلفين أن عليهم اصدار قرارهم فى القضية بما لايخرج عن احتمالات ثلاثة : ادانة المتهمة باعتبارها مرتكبة جريمة القتل العمد ، أو ادانتها من أجل جريمة القتل غير العمد ٠٠ أو اعتبارها « غيرمذنبة » ، أى تبرئتها ٠٠!

المداولة ٠٠ والحكم !

◆ **وخلت** هيئة المحلفين للمداولة أكثر من ساعة ، انشغل خلالها مارشال هول بالتحدث الى ممثل الاتهام فى اهتمام ، وهو يعبث فى يديه بمسدس مدام فهمى ٠٠ **ثم عاد المحلفون الى أماكنهم فوقف أحدهم يعلن قرارهم بتبرئة المتهمة !٠٠ واذ ذاك ضجت قاعة الجلسة بالهتافات الصاخبة بحياة العدالة ، بينما غلب على المتهمة الانفعال فدفنت وجهها بين يديها ٠٠ وقدر محاميها مشاعرها فتسلل من القاعة فى هدوء دون أن يتحدث اليها بكلمة !** لقد كان هو بدوره مضنى من الارهاق ، متصبب الجسم بالعرق الى حد اضطره الى ابدال ثيابه جميعا قبل أن يبرح المحكمة ٠٠ وبعد الظهر توجه الى كوخه الريفى بضاحية « بروك » كي يأخذ قسطا من الراحة ، وهناك تلقى فى المساء برقية من موكلته الممتنة تقول له فيها : «من أعماق قلبى أعرب لك عن عرفانى الخالص بجميلك ـ مرجريت أليبير » ٠٠ ثم لم تكد تأوى الى مخدعها فى فندق «برنس هوتيل» حتى كتبت الى محاميها فى الليلة ذاتها خطابا قصيرا هذا نصه : **«سيدى الاستاذ ٠٠ فى غمرة السعادة القصوى التى أحسها ، تشوب فرحتى غصة واحدة ، هى أنى لم أستطع أن أشد على يدك وأقول لك : شكرا !٠٠ فقد كان انفعالى من العنف بحيث أرجو أن تغفر لى أننى أغمضت عينى وتركتهم يأخذونى الى خارج القاعة ! ـ الشاكرة الممتنة «مرجريت فهمى»** ٠٠ وقد

أجاب هول على رسالتها برسالة شكر غاية فى الرقة ، تمنى لها فيها أن تعوضها الايام عماقاست فى عامها الاخير ..

لكن مرجريت لم تلبث أن قابلت مارشال هول بعد ذلك بأيام وشكرته بشخصها .. وقبل أن تغادر انجلترا عائدة الى وطنها كتبت اليه رسالة أخرى قالت فيها : «لست أريد أن أبرح لندن بغير أن أعرب لك عن مبلغ زهوى بأننى قد عرفتك .. ولن أنسى صنيعك !» .. ومنذ ذلك التاريخ لم تكن مرجريت تهبط لندن حتى تخف الى زيارة محاميها العظيم ، وفى احدى المرات تناولت الشاى معه فى « تمبل جاردن» .. كما استمرت تراسله فى كل مناسبة ..

وفى اليوم التالى لانتهاء المحاكمة ـ يوم الاحد ١٦ سبتمبر سنة ١٩٢٣ ـ احتفل مارشال هول بعيد مزدوج : العيد السادس والستين لمولده .. وعيد اضافته نصرا جديدا الى قائمة انتصاراته القضائية الرائعة !.. ولم تقتصر رسائل الشكر والاعجاب التى تلقاها على ماوصله من موكلته ، بل لقد انهالت عليه آلاف البرقيات ورسائل التهنئة من كافة أنحاء العالم ، من أشخاص غرباء يحيون فيه عبقريته وتفانيه فى أداء واجبه فى القضية التى كانت « ميئوسا منها » !

مصر تحتج !

◆ **ولكن** الاعجاب لم يكن الشعور الوحيد الذى أثارته مرافعة مارشال هول ودفاعه الحار عن موكلته .. فهذه مصر تغلى بالاستياء للهجة التى استعملها المحامى الكبير فى الكلام عن المصريين والشرقيين بصفة عامة ، كما نقلتها الصحف المصرية يومئذ فى برقياتها .. وهذا نقيب المحامين المصريين يرسل برقية احتجاج مطولة الى النائب العام البريطانى ، يشكو اليه فيها سير مارشال هول « الذى سمح لنفسه بالتعميم فى

الحديث عن مصر والشرق كله .. فى حين لايخفى على محام عظيم مثله أن من الظلم والتجنى الحكم على شعب بأسره من أجل مسلك فرد واحد .. لذلك تحتج نقابة المحامين المصريين بكل قوتها على المبدأ الظالم المحزن الذى التزمه سير مارشال هول فى دفاعه .. » - وقد أجاب النائب العام الانجليزى من فوره ، نافيا التهمة عن المحامى الكبير : « وانى لعلى يقين من أن سير ادوارد مارشال هول لايمكن أن يعمد الى جرح شعور أى شعب أجنبى ، فان له من خلقه وخبرته عاصما من تجاوز الحدود المتعارف عليها لصيانة حقوق موكلته .. ولهذا أرجح أنكم قد كنتم ضحية لتلخيص صحفى ملتبس .. »

يتراجع ويعتذر ..

غير أن مارشال هول لم يكد يعلم بالاحتجاج المصرى حتى سارع الى الكتابة الى النائب العام الانجليزى ، مؤكدا أنه لم يقصد بتلك النعوت - التى استقاها من مصادر «مصرية» - الا شخص المجنى عليه ، دون المصريين عموما كشعب .. ثم أضاف قوله : « والشىء الوحيد الذى قد يساء فهمه فيماقلت ، هو اشارتى الى الخطأ الذى ارتكبته تلك المرأة الغربية بزواجها من رجل شرقى يعتبر حقوقه على زوجته حقوق « تملك » لا تعاون متبادل .. فاذا كنت قد اندفعت بتأثير حرارة الدفاع وحماسة الموقف ، فانزلق لسانى بأية عبارة يمكن أن تشتم منها مهاجمة المصريين كشعب ، فانى أول من يستنكر هذا المعنى ، ويأسف لوروده على لسانه ! »

وبذلك اعتبر « سوء التفاهم » منتهيا عند هذا الحد ..

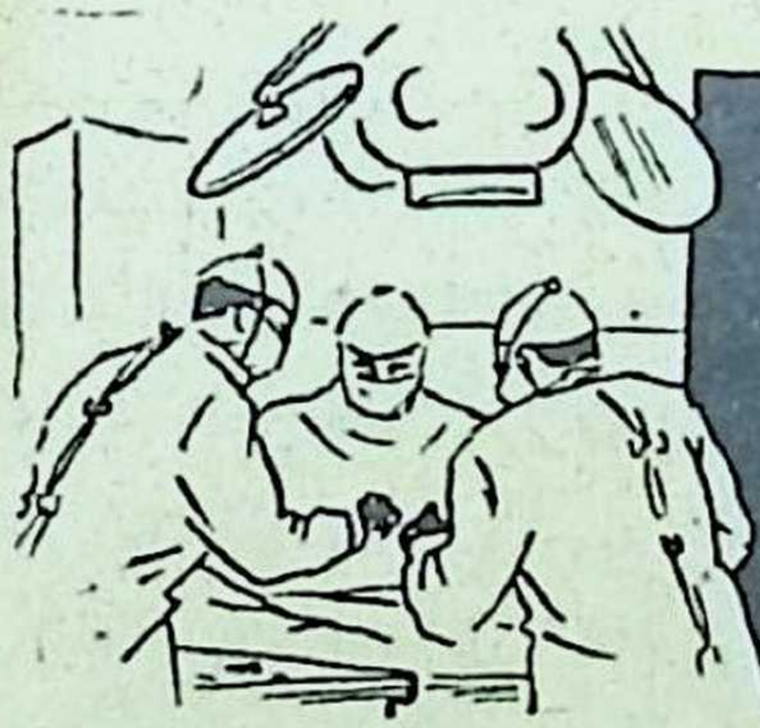

شخصيات تحتذى ..

الأخوان «مايو»

رسولا الرحمة فى عصر المادة

◆ فى هذا « الركن » اعتزم ان اقدم اليك فى كل عدد شخصية عالمية ـ سواء مشهورة او مغمورة ـ تستحق ان تعتبر قدوة لشباب الجيل ونموذجا يحتذيه كل مكافح طموح ..

والشخصية ـ المزدوجة ـ التى تقرأ قصتها فيما يلى هى شخصية الاخوين الجراحين تشارلس و وليم «مايو» ، صاحبى مستشفى مايو المشهور بأمريكا ، الذى يعتبر اليوم اعظم مستشفيات العالم على الاطلاق .. وقد جاء فى بعض الانباء أن احد الشقيقين المذكورين يعكف منذ زمن على كشف طبى جديد ينتظر ان تكون له نتائج خطيرة ودوى كبير :

◆ واول مايطالعنا من سيرة هذين الطبيبين ، أن اكتشافهما الخطير ـ الذى ينتظر ان يكون من اعظم الاكتشافات المثيرة فى تاريخ الطب ـ ماكان ليتم ، لولم يدمر اعصار مروع بلدة صغيرة من بلدان ولاية « منيسوتا » منذ حوالى نصف قرن !

اما البلدة التى دمرها الاعصار فهى تدعى « روشستر » ، وقد صارت لها الآن شهرة عالمية ، بحكم انها موطن الشقيقين مايو ، اللذين يعتبران من اعظم جراحى العالم المعاصرين !

واما الاكتشاف الطبى الخطير ، الذى مايزال يعكف على اعداده احدالشقيقين (الدكتور تشارلس مايو) فهو دواء لمعالجة الجنون ، يحقن به المخبولون وضعاف العقول فتتغير دورة الدم ويسترد المريض ادراكه السليم !

واذا اردت ان تعرف مدى اهمية هذا الاكتشاف بالنسبة للانسانية فعليك ان تتدبر الحقائق الآتية ثم تحكم بنفسك :

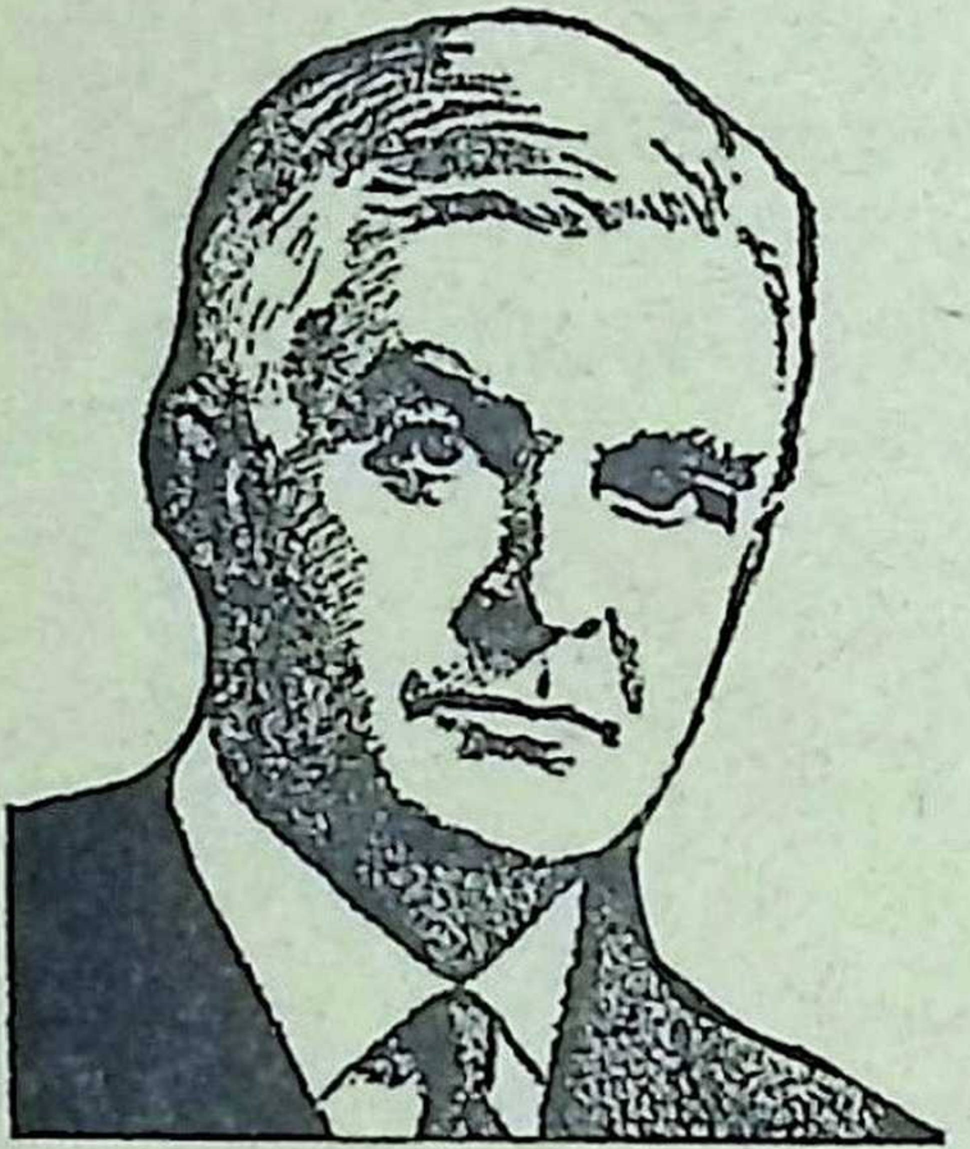

دكتور تشارلس مايو

يبلغ عدد المرضى بامراض عقلية ، فى هذا العصر الحديث ذى الحضارة المعقدة ، أكثر من عدد المرضى بكل الامراض الاخرى مجتمعين – هذا فى الولايات المتحدة على الاقل ! – فبين كل ستةعشر من طلبة المدارس هناك ، طالب واحد على الاقل سوف يقضى جانبامن عمره فى مصحة عقلية . وهناك احتمال يواجه كل شخص بنسبة واحد فى العشرين ، انه سيقضى سبعة اعوام من حياته فى مصحة من تلك المصحات !.. ذلك أن الامراض العقلية قد تضاعفت فى الحقبة الاخيرة ، فاذا استمرت هذه النسبة المفجعة قرنا آخر ، فسوف يبلغ نزلاء المصحات نصف عدد السكان .. وعندئذ يتعين على النصف الآخر ان ينفقوا اعمارهم واموالهم فى الانفاق عليهم ، بواسطة الضرائب الكبيرة التى ستضطر الدولة الى فرضها لمواجهة نفقات مرضاها !

٦٠ ألف مريض كل عام !

والشقيقان اللذان ينفقان الآن عمريهما واموالهما فى سبيل التوصل الى اتمام هذا الاكتشاف الخطير ، يستقبلان كل يوم عددا من الاطباء القادمين من لندن ، وباريس ، وبرلين ، وروما ، ولننجراد ، وطوكيو – وكافة اركان المعمورة – بغية الجلوس عند قدميهما للتتلمذ عليهما !.. وفى كل عام يحج الى مستشفى الشقيقين المشهور الذى انشآه ببلدة روشستر ، نحو ستين الف مريض ميئوس من شفائهم ، يتعلقون بآخر اهداب الامل فى ان يفلح الشقيقان فيمافشل فيه اطباء مختلف بلاد العالم !

◆ وكان والد الشقيقين ، الدكتور مايو الاب ، قد استقر فى روشستر منذ خمس وسبعين سنة ، وقت ان كان سكان البلدة لايزيدون عن الفى نسمة !.. وكان اول مريضين عالجهما : بقرة مريضة وحصان مريض !.. فلما نشبت فى ذلك الاقليم حروب الهنود الحمر ، حمل الدكتور مايو بندقيته وقاتلهم ببسالة

مشهود بها ٠٠ وعندما سكن غبار المعركة مضى الطبيب يتفقد ميدانها ، فيدفن فى طريقه الموتى ويعالج الجرحى ، مسافة خمسين ميلا وسط البرارى ٠٠ وكان بعض اولئك المصابين فقراء لايملكون اجر الطبيب ، لكن الدكتور مايو الطيب كان احيانا يقضى الليل كله فى الطريق ، كى يخفف آلامهم ويضمد جراحهم ٠ واحيانا كانت تصادفه زوابع مروعة بحيث لايرى يده فى ضوء النهار !

جزاء المروءة !

وكان للطبيب ابنان ـ هما وليم وتشارلس ـ قضيا فى البداية فترة تمرين فى صيدلية البلدة ، ثم التحقا بكلية الطب ٠٠ وذات يوم وقعت «الكارثة» التى غيرت تاريخ الطب ٠ فقد هب على روشستر اعصار دمرها عن آخرها واحالها حطاما واكواما ، ونثر على ارضها ثلاثة وعشرين قتيلا ومئات من الجرحى ٠٠ فقضى الدكتور مايو وولداه اياما يضمدون الجراح ويعالجون المصابين ويجرون لهم مايلزم من الجراحات ٠٠ وبلغ من تفانيهم فى هذه الرسالة ان لمس مسلكهم قلب « الاخت الفريد » رئيسة دير راهبات القديس فرانسس ، فعرضت عليهم ان تشيد لهم مستشفى خاصا اذا قبلوا ان يتولوا ادارته ، فقبلوا ٠٠ وحين افتتح المستشفى فى عام ١٨٨٩ كان الاب قد بلغ السبعين ، ولم يكن الابنان قد تلقيا الدراسة والتمرين الكافيين ٠٠ فاخذا على عاتقهما ان يواصلا جهودهما فى هذا السبيل بهمة لاتعرف الكلل !

واليوم يعتبر الشقيق الاكبر « وليم » اعظم حجة فى العالم فى مرض السرطان ، وان حرص كل منهما على اعتبار شقيقه الآخر هو الاعظم ٠٠ والحقيقة انهما كليهما قد حازا شهرة عالمية كابرع وادق جراحين فى العالم ! وهما يبدآن عملهما كل يوم فى السابعة صباحا ، فيزاولان جراحاتهما لمدة اربع ساعات متوالية ٠ بحيث انهما منذ سنوات طويلة يقومان يوميا بمايتراوح بين ١٥ و٣٠ جراحة !٠٠ ومع ذلك فهما لايزالان يواصلان الدرس بغية بلوغ حد الكمال ٠

وبلدة روشستر تقوم باسرها اليوم من اجل مستشفى مايو وبفضله ٠٠ فلايسمح فيها بمرور عربات الترام اطلاقا ، ولاتعطى رخصة لخط اتوبيس الااذا كانت سياراته لا تحدث صوتا مسموعا اثناء سيرها ٠ حتى الناس فى الشوارع يتحدثون همسا !

الخالدات

شهيرات النساء

عزيزى القارىء ...

فى الاعداد السابقة من « كتابى » قدمت لك فى بابى « أنبياء الوطنية » و « عظماء فى غير السياسة » قصص حياة : « ديفاليرا » .. و «غاريبالدى» .. ثم « لويس باستير» .. و « اميل زولا »..و«ماركونى»..و«تشايكوفسكى» .. ثم مصطفى كمال (اتاترك) ، وهم من هم من اعلام السياسة ، والطب ، والادب ، والاختراع ، والموسيقى ..

وفى كتابى السابع قدمت لك فى هذا الباب «الشقيق» سيرة ملاك الرحمة «فلورنس نايتنجيل» .. واليوم اقدم لك فيما يلى هذه السيرة الخالدة على مر الزمان ، سيرة المرأة التى فاقت الرجال فى مضمار العلم والكفاح النبيل من اجل تخليص الانسانية من مرض وبيل من اخبث امراضها ، هو «السرطان» ..

وفى الاعداد القادمة من كتابى اعتزم ان اقدم لك بعون الله فى هذا الباب باقة عطرة من سير نساء خلدت اسماؤهن وتفوقن على الرجال ، فى شتى ميادين الخلود والتفوق ، ومنهن : كليوباترة .. تيودورا .. جان دارك .. مارى ملكة اسكتلندا .. كريستينا .. مدام دى بومبادور .. شارلوت برونتى .. نيل جوين .. «جورج» اليوت .. اليزابيث باريت براونن‍ج .. سارة برنار .. ايزادورا دنكان .. مدام شيانج كاى تشيك .. مسز روزفلت .. الخ

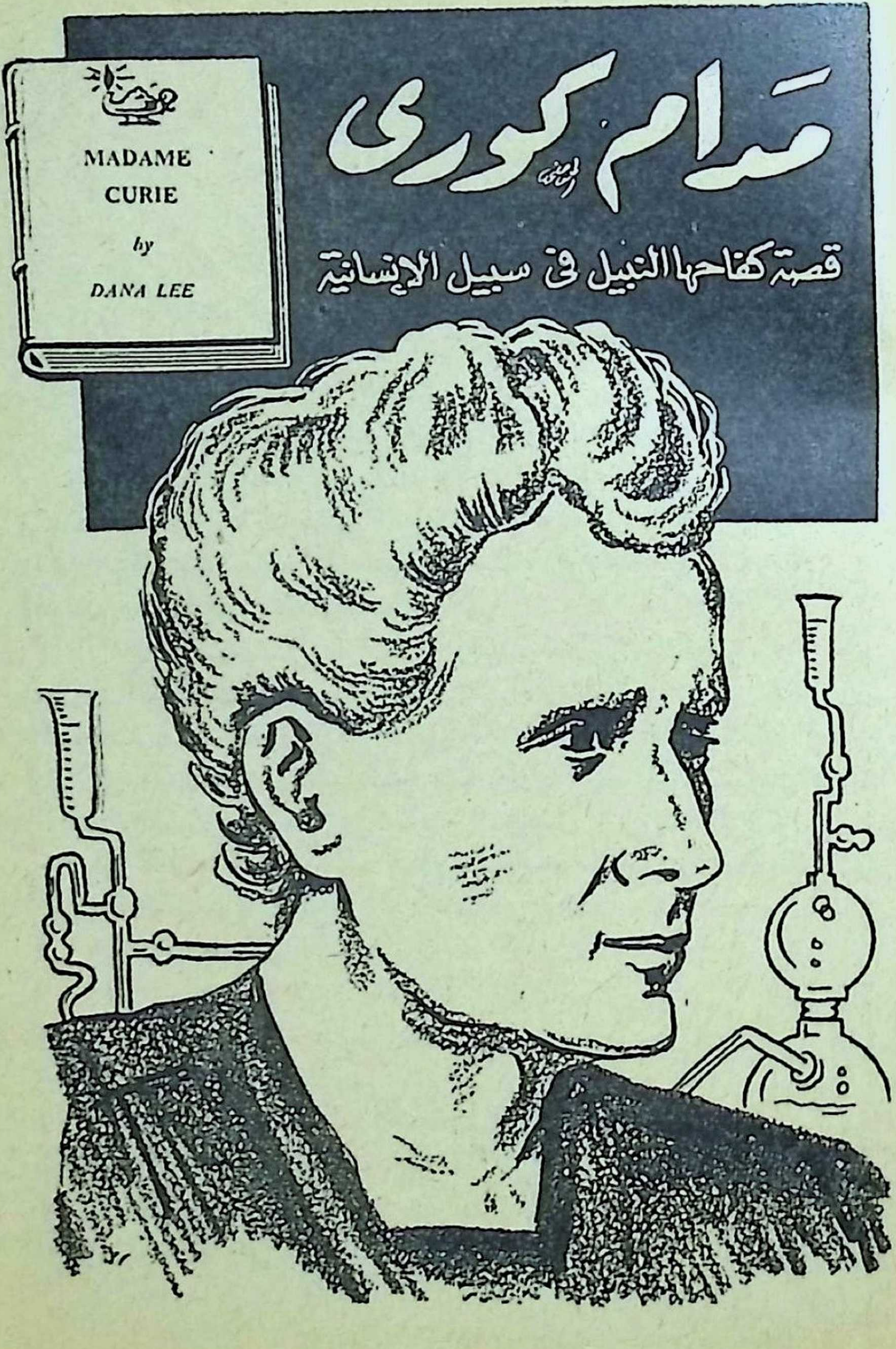
مدام كورى
قصة كفاحها النبيل فى سبيل الانسانية
MADAME CURIE
by
DANA LEE

شهرة مجنونة !

◆ فى سنة ١٩٠٣ كانت أشهر امرأة فى العالم هى «مدام كورى» ، التى نالت فى تلك السنة جائزة (نوبل) للعلوم الطبيعية ـ بالاشتراك مع زوجها بيير كورى ! ـ فوثب اسمها بين يوم وليلة الى عناوين الصفحات الاولى من صحف الدنيا بأسرها ، وراحت تهبط على رأسها طوفانات مختلفة جارفة من رسائل التهنئة .. وتوسلات طلاب التوقيعات .. ودعوات قاعات المحاضرات فى شتى آفاق الارض .. **بل ما أكثر الرسائل التى انهالت عليها ـ بواسطة الوسطاء الروحانيين ـ من أرواح أموات رحلوا عن هذا العالم !**

أما ألقاب التشريف ، والدعوات الى المآدب ، وتزاحم عشاق الطرائف وهواة جمع آثار العظماء ، ثم المخبرون الصحفيون والمصورون .. فلم يكن لذلك كله عدد أو حصر فى كل مكان تذهب المسكينة اليه .. وكأنها قد أصبحت فجأة محور «اعصار» صاخب من ضجيج المعجبين ، وتطفل الفضوليين ! **.. بل لقد جاءها صاحب حظيرة لتربية الجياد يطلب منها الاذن فى اطلاق اسمها الكريم على حصانه المفضل الذى يعده للجرى فى حلبات السباق !**

وقد ظلت الاضواء مسلطة على مدام كورى سنوات طويلة ، باعتبارها أشهر شخصيات العالم قاطبة .. حتى نزلت عن هذا العرش ذات يوم لشخصية أخرى !

فمن هى هذه الشخصية التى فاقت مدام كورى فى المكانة العظمى من اهتمام الجماهير ؟

هل هى اينشتاين ؟ هل هى غاندى ؟ هل هى شارلى شابلن ؟ هل هى برناردشو ؟

كلا كلا ٠٠ لم يكن أحد من هؤلاء هو المحظوظ بتلك الشهرة الهائلة ، ولم تكن مدام كورى نفسها تعرف من يكون ٠٠ حتى وصل بها القطار ذات يوم الى محطة برلين ، فاذا جمهور غفير على رصيف المحطة ، لكنه غافل عنها ! ولاول مرة رأت نفسها ليست قبلة الجمهور الغفير ٠ بل لقد نزلت من القطار وخرجت من المحطة دون أن يلتفت اليها أحد منهم ٠٠ لان الجميع كانوا قد هرعوا للقاء شخص آخر كان مستقلا نفس القطار ، هو بطل العالم فى الملاكمة يومئذ : «جاك دمبسى» !

◆ **والواقع** أن مدام كورى كانت تكره كل مظاهر الشهرة والمجد ٠ وكانت تعتبر نفسها كالاسيرة المقيدة بالاصفاد والاغلال، يسوقونها للعرض على الجماهير فى مواكب النصر التى تقام للغزاة الفاتحين !٠٠ ولهذا كانت تهمل القبعات والارواب الجامعية ، كما تهمل الالقاب والانواط بمجرد حصولها عليها ! **وكان الشىء الوحيد الذى تحرص عليه من كل هذه المظاهر ، هو قوائم الطعام التى توزع فى المآدب التى تقام لها ـ والتى كانت تحضرها باحساس «الشهيدة» المذعنة ! ـ ذلك ان هذه القوائم كانت تصنع من ورق سميك مقوى يلائم كل الملاءمة تسجيل المعادلات الرياضية على ظهورها البيضاء !**

ولقد صدق أشد مشاهير العالم تواضعا ، وهو العالم « ألبرت اينشتاين » ، حين قال عن أشد مشاهير النساء تواضعا ـ مدام كورى ـ انها الشخصية العظيمة الوحيدة فى العالم ، التى لم تفسدها الشهرة !

طفولة حزينة

◆ **ولدت** مدام كورى ـ عام ١٨٦٧ ـ باسم « مانيا سكلودوفسكا» ٠٠ فهى تنحدر من أرومة بولندية ، من أشرف عائلات الفلاحين فى تلك البلاد ، وقد استطاع والداها أن

يرتفعا فوق طبقتهما الكادحة فى الارض ، بالتحليق فى أجواء التعليم العالى والتربية الراقية ، فكان أبوها أستاذا للعلوم الطبيعية فى « مدرسة (وارسو) العليا » ، كما كانت أمها عازفة من أبرع العازفات على البيانو ٠

وقد ورثت مانيا عقل أبيها وأنامل والدتها ، فأظهرت استعدادا باكرا للعلوم التجريبية ، بيد أن والديها لم يسمحا لاحد من أطفالهما الخمسة بأن يتبحر فى الدراسة ، أو يستغرق فيها ، لان الاسرة كانت مصابة بلوثة صدرية ، واستعداد لمرض السل ، فكلما كانت مانيا الصغيرة تنسى نفسهابين دفتى كتاب ، كانت أمها تضع يدها على رأسها برفق وتقول لها : «اذهبى لتلعبى فى الحديقة يامنيوشا ، فالجو فى الخارج بديع رائع » ٠٠ فقدكانت الام ذاتها مصابة بداء الصدر ، وفى كل مساء كانت صلاة الاطفال تتضمنهذه العبارة التقليدية الختامية : «نتوسل اليك يارب أن ترد على والدتنا صحتها ٠ »

ولكن شاءت ارادة الله غير ماشاءوا وماطلبوا ، فأخذ الى جواره تلك الام ، تاركة من ورائها أربعة أطفال - بعد أنمات الخامس قبلها بمرض التيفوس ٠٠

وكان عمر مانيا حين فقدت أمها عشر سنوات !

◆ **وصارت** الاسرة التى تجتمع حول مائدة الطعام بعد وفاة مدام سكلودوفسكا أسرة حزينة ، رقيقة الحال ، سيما وقدطرد الاب فى تلك الاثناء من وظيفته فى المدرسة العليا بسبب حماسته الوطنية وتشيعه لتحرير بولندا من نير روسيا القيصرية ٠٠ ففتح على أثر ذلك مدرسة داخلية ، لم تصادف نجاحا يذكر ٠٠ حتى لقد أضحى القيام بأود هذه الاسرة عبئا ينوء به كاهل عائلها المسكين ٠٠ كيف لا وفى رعايته أربعة أفواه تطلب القوت ، وأربعة أجساد نامية تطلب الثياب ، وأربعة عقول متفتحة تريد التعليم ؟

واضطر الرجل الى توظيف مدخراته القليلة فى مشروعات مالية ، على أمل أن يستطيع بذلك مواجهة نفقات الاسرة المتزايدة ‥ لكنه باء فى هذه العمليات أيضا بفشل ذريع ، فسدت فى وجهه أبواب الآمال ‥!

ذكاء ‥ وتمرد !

ولكن لئن قسا الدهر على آل سكلودوفسكا ، فان أبناء الاسرة الاربعة كانوا أكفاء لمصارعة الخطوب ، بما زودتهم به الطبيعة من ذكاء خارق وعزم صادق ‥ فلم يلبثوا أن تغلبوا على المحن بجلدهم الذى استمدوه من التربة البولندية نفسها ، تلك التربة التى استطاعت أن تقاوم الطغيان وتحفظ فى أعماقها بذور الثورة والتمرد أجيالا طويلة ، حية لاتموت ، مطمورة فى بطون الجليد !

وورثت «مانيا» عن أبيها تمرده كما ورثت توقد قريحته ‥ وكان فى طريقها الى المدرسة تمثال أقامه طغاة الروس المحتلون ، وكتبوا عليه « تحية للبولنديين الذين أخلصوا الولاء لامبراطورهم » ـ أى الذين خانوا قضية وطنهم ! ـ فكانت مانيا تتعمد أن تبصق على هذا التمثال كلما مرت به فى ذهابها الى المدرسة أو أوبتها منها ‥ وكم من مرة نسيت ذلك وتجاوزت التمثال مسافة طويلة ، فلما تذكرته عادت أدراجها لتفى «بنذرها» ، معرضة نفسها بذلك لعقاب التأخر عن موعد المدرسة !

بيد أن هذا التمرد لم يحل دون حصولها على النوط الذهبى للتفوق فى نهاية دراستها الثانوية ، سنة ١٨٨٣ ، فقد كان الفوز به «تقليدا» متأصلا فى بيت سكلودوفسكا ‥ وحين حصلت مانيا على ذلك النوط ، كانت قد سبقته الى حوزة الاسرة ثلاثة أنواط !

وتنبه الوالد الاريب الى الخطر الذى يتهدد صحة مانيا ، بسبب لوثة داء السل التى أطاحت بأمها وهى فى عنفوان الشباب ، فقال لها حين جاءته بنوطها مزهوة فخورة : « كفى الآن دراسة ، ولتذهبى الى الريف لتقضى فيه عاما تعيدين فيه بناء جسدك النامى ٠٠ »

واستجابت مانيا لرغبة والدها عن طيب خاطر ، لانها كانت فتاة تعشق اللعب وتقبل عليه كما تعشق العمل وتستغرق فيه ٠٠ فأسلمت روحها وجسدها لمتعة التراخى والكسل ، تقطع الوقت بالتجوال بين الاحراش والغابات ، والاستحمام فى الماء ، وفى أشعة الشمس ، وصيد السمك ٠٠ على أن هوايتها المفضلة كانت : الرقص ! ٠٠ فقد كان فى جسدها النحيل جنى مارد مولع بهذا الفن ٠ ولم يلبث أبناء الفلاحين من الشبان أن اكتشفوا فيها راقصة حاذقة لا يشق لها غبار ، فكم من ليلة أحيتها ترقص حتى الصباح ، متنقلة مع مواكب الراقصين من ضيعة الى ضيعة ٠٠ وكم من مرة أشرق الفجر عليها وهى لاتزال ترقص ، كالمحمومة ، تلك الرقصة القومية البديعة ـ رقصة المازوركا البيضاء ـ حتى تضطر فى النهاية الى الاستغناء عن حذائها الرقيق ، لان كعبيه قد أتت عليهما رقصاتها المتوالية !

◆ **فلما** انتهى العام عادت مانيا من الريف الى وارسو ، لتواجه فى خضمها مستقبلا غامضا ! فهذه أختها الكبيرة «برونيا» تتطلع الى اتمام دراستها فى السوربون بباريس ٠ وكانت هذه أيضا أمنية مانيا ، ولكن أين للاسرة ما يكفى لنفقات واحدة منهما ، فضلا عن اثنتين ؟

مشكلة تستعصى على الحل ، بيد أن مانيا ـ عالمة المستقبل ـ كانت منذ مطلع حياتها حلالة للمشاكل ٠٠ فقالت لاختها الكبرى : «**سأشتغل مربية للاطفال كى أعينك براتبى على اتمام الدراسة فى جامعة باريس ، حتى اذا حصلت على اجازة الطب**

حل دورك فى مد يد المساعدة الى كى أتم بدورى علومى فيها كما أتحت لك أن تتميها ٠٠ »

يالها من خطة شاقة !٠٠ ولكن مانيا خلقت للمشاق ، وهى انما تدين بتكوين شخصيتها وصرح مجدها لتلك المشاق !

وقد كانت مخدومتها الاولى « مدام ب » امرأة قاسية ، شرسة ، سليطة اللسان ٠٠ فكانت حياة الخادم المربية فى بيتها لاتطاق ! ومع هذا فقد تحملت مانيا على مضض ، وراحت تبحث عن عمل مماثل فى بيت آخر ٠٠ حتى وجدت ضالتها أخيرا عند سيدة لا تقل عن الاولى شراسة وسوء طبع ، وان قلت عنها جهلا واسفافا ٠٠ وكان فريق من أطفالها العديدين ظرفاء ، فأنست مانيا اليهم ، وتحملت الحياة فى ذلك البيت من أجلهم ٠٠

حب ٠٠ فاشل !

٠٠ **ولاسيما** الابن الاكبر ! الذى كان طالبا فى جامعة وارسو ، عاد الى بيت الاسرة فى اجازة من اجازات الجامعة ، بقصد الراحة والاستجمام ، فوجد نفسه غارقا حتى أذنيه - وبغير سابق انذار - فى اشكال متعب جدا ، وان كان يجد فيه لذة لاتعدلها لذة ٠٠ فقد أحب المربية اللطيفة مانيا ، وكانت الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يتحدث اليه حديث العلم والعقل والثقافة ٠٠ **ولكن الامتع من كل هذا والاهم ، ان ذلك العقل البديع الراقى كان له جسم من أبدع الاجسام وأبرعها فى الرقص ٠٠ فسرت الحمى فى جسد الطالب الجامعى الشاب مسرى النار فى الهشيم ٠٠**

وكانت مشكلة !٠٠ وكانت فضيحة !٠٠ وأبت الاسرة الكريمة ذات الثراء أن يصاهر ابنها البكر آل سكلودوفسكا ، لان مانيا ليست الا مربية فقيرة ! ونسيت الام أنها كانت يوما ما مربية أطفال حماتها المرحومة ، ثم تزوجت بعد ذلك ابن البيت!

وفكرت مانيا فى الانتحار !٠٠ ولكنها لم تكن من طينة المدللين الخرعين الذين يقدمون على ذلك المهرب السخيف المبتسر ، مهما اشتدت قسوة الحياة ٠٠ وهكذا سرعان ماطوت أضلاعها على جرحها الغائر ، وراحت تبحث عن بيت آخر ، لايكون الابن الاكبر فيه طالبا فى الجامعة تفتنه العقلية الناضجة ، والجسد الذى تتوقد فيه الحيوية ٠٠!

واستطاعت أن تجد عملا ، وأن تواصل مد يد المعونة الى أختها برونيا التى تناضل فى قاعات السوربون للحصول على السبق العلمى ، متحملة فى سبيل ذلك الجوع ، والبرد ٠٠ البرد الذى لاعاصم لها منه من دفء ، أياكان مصدره ٠٠ سواء أكان دفء الطعام، أو دفء الثياب، أو دفء المسكن العامر بالوقود!

وفازت برونيا أخيرا بالدرجة الجامعية ، وفازت فى الوقت نفسه بزوج كان زميلا لها فى دراسة الطب ، فاستقرت فى باريس ٠٠ ثم بعثت الى أختها الصغرى تستدعيها لتؤدى اليها نصيبها من عقد الاتفاق الغريب الذى عقدتاه معا منذ سنوات !

حياة معتمة ٠٠ فى مدينة النور !

◆ **هذا** هو السوربون أخيرا ٠٠ وهذه هى قاعات المحاضرات والمعامل فى كلية العلوم ٠ وهذه مارى سكلودوفسكا، النحيلة ، الشقراء ، ذات الثلاثة والعشرين ربيعا ، تجلس فى الصف الاول ٠٠ لا تكلم أحدا !٠٠ حتى اذا انتهت المحاضرة تلاشت كما تتلاشى الاطياف ، الى حجرة متواضعة فى الطابق السادس من منزل عتيق فى أحد الاحياء الفقيرة ٠٠ حجرة عارية من الاثاث تقريبا ، وخالية من النور والوقود والماء ٠٠ وهناك تستذكر دروسها ، على زاد لايتجاوز كسرة من الخبز وقطعة من الزبد وبضعة فناجين من الشاى ٠ وبين الحين والحين تسمح لنفسها ببيضة واحدة ، وشىء من الفاكهة لايتجاوز النزر اليسير ٠٠

لقد رفضت أن تعيش مع أختها وزوج أختها ، وقبلت الحياة فى ذلك الجحر ، تسهر الى الثانية صباحا فى برد باريس القارص ، تملأ الصفحات تلو الصفحات بالارقام والمعادلات ، وقد كادت أناملها تتجمد من البرد !

وذات يوم نقلت زميلة بولندية الى أختها أن مانيا أغمى عليها فى قاعة المحاضرات !.. فأسرع زوج أختها الى حجرتها ، وظل يلح عليها حتى اعترفت بأنها لم تتناول شيئا من الطعام منذ بضعة أيام . وبعد الحاح شديد قبلت أن تنزل ببيت أختها فترة من الوقت .. ولكنها ماكادت تسترد عافيتها شيئا ما حتى عادت الى حجرتها الباردة ، حيث الجوع والوحشة ، وصفحات الكتب ..!

ولم يفت أساتذتها فى السوربون استعدادها الخارق ، فكانوا يلاحقونها بالتشجيع الحماسى ، ويستحثونها على ارتياد أكثر من موضوع واحد للبحث . فتشجعت ذات يوم وأعلنت عزمها على أن تتخصص فى فرعين فى وقت واحد ، لتحصل على درجة مزدوجة للاستاذية : فى العلوم الطبيعية والرياضيات !

وقد وفت بماعاهدت عليه نفسها .. فكانت الاولى بين الناجحين فى اجازة العلوم الطبيعية فى سنة ١٨٩٣ ، ثم كانت الثانية فى نتيجة اجازة الرياضيات سنة ١٨٩٤ !

حبها الثانى ..

◆ **وهرعت** الى وطنها بعد ذلك النصر المزدوج ، تقضى بين ربوعه فترة استجمام قصيرة .. عادت بعدها الى باريس ، والى مغامرتها الغرامية الثانية !

كانت بعد تجربتها الاولى الفاشلة فى دوامة العواطف الحارة قد انطوت على نفسها ، وأقسمت أن تكرس بقية حياتها لعاطفة واحدة : حب العلم .. فماعاد فى دنياها مكان للرجال !

وكان يعيش فى باريس فى ذلك الوقت شاب ـ يدعى بيير كورى ـ لا مكان فى حياته للنساء !٠٠ فلقد كرس هو الآخر حياته للبحث العلمى ٠٠

وذات يوم التقيا فى مسكن أستاذ بولندى للطبيعة يدعى كوفالسكى ٠٠ فكتبت مارى عن ذلك اللقاء : **« عندما دخلت ، كان بيير كورى واقفا بقوامه الطويل بقرب باب يؤدى الى الشرفة ٠٠ فبدا لى ريان الشباب ، رغم أنه كان فى الخامسة والثلاثين ٠٠ وأعجبنى فيه من فورى تعبير عينيه الصريحتين ، ومسحة « عدم المبالاة » التى كانت طابعه الظاهر ٠ وأحببت فيه لهجته البطيئة المتأنية ، وبساطته ، وابتسامته : التى كانت تفيض رزانة وشبابا فى وقت معا !٠٠ وبدأنا نتحدث فى مسائل علمية ٠٠ وقبل أن ندرك الامر جيدا كنا قد صرنا صديقين ٠ »**

وكان بيير كورى ابن عالم فرنسى ، حصل على بكالوريا العلوم فى السادسة عشرة ٠٠ وعلى درجة الاستاذية فى علوم الطبيعة وهو بعد فى الثامنة عشرة ! وكان حين التقائه بمارى مديرا لمعمل التجارب فى مدرسة باريس للطبيعة والكيمياء ٠٠ وكانت أبحاثه السابقة تحله فى الصف الاول من علماء الطبيعة فى فرنسا ٠ بيد أن مرتبه بالرغم من هذه الجهود الناجحة لم يكن يتجاوز اثنى عشر جنيها فى الشهر !

وفى خجل شديد من ضآلة هذا المرتب ، تقدم كورى الى الآنسة سكلودوفسكا خاطبا ٠٠ وفى خجل مماثل ، قبلته هى !

وتم الزواج على نحو غريب ٠٠ تم دون أن يتدخل فيه كاهن الكنيسة ، أو محام يمثل القانون ، أو مسجل عقود يمثل الدولة !٠٠ لقد كان زواجا متحررا على سنة المفكرين الاحرار ٠٠ وكان شهر العسل عبارة عن جولة فى اقليم «ايل دى فرانس» على دراجتين ! ورب ليلة قضاها العروسان على قارعة الطريق فى ظل شجرة باسقة ، أو فى خان حقير !

وأخيرا عاد الزوجان الى باريس ، ليشرعا فى عمل تضامنى كتب له أن يجلب لهما شهرة عريضة ، وينفع بهما آلاف المنكوبين فى أنحاء الارض ٠

زوجة ٠٠/وأم ٠٠ وباحثة !

◆ **وكانت** مارى تدير شئون البيت ، وترضع طفلتها الاولى ، ثم طفلتها الثانية ، وتجرى أبحاثا عن المجال المغناطيسى لمعدن الفولاذ ٠٠ حتى اذا عاد زوجها من عمله اشتركت معه فى أبحاثه التجريبية بالمعمل ٠٠

وكان لهذا الاجهاد نتائجه الحتمية ، فأنذرها الاطباء بوجود بوادر خطيرة فى رئتها اليسرى ، ونصحوها بالاخلاد الى الراحة بعض الوقت فى مصحة للامراض الصدرية ٠٠ بيد أنها لم تأبه لذلك ، فقدكانت مشغولة بالتحضير لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة ٠٠ وكان ذلك يقتضيها أن تعد بحثا علميا مبتكرا فى موضوع لم يطرق من قبل ثم تكتب تقريرا عنه ٠ وكانت المحافل العلمية مشغولة فى تلك الآونة بمحاولة حل لغز علمى أفضت اليه أبحاث عالم يدعى « هنرى بيكريل » ٠ وهذا اللغز هو معرفة السبب الذى يجعل معدن « اليورانيوم » يشع اشعاعات غامضة من الضوء تنفذ خلال الورق الاسود السميك وسواه من الاسطح المعتمة غير الشفافة !

ووجدت مدام كورى فى هذا اللغز ضالتها المنشودة ، فعكفت على اجراء أبحاثها فيه للتقدم بتقرير عنه تنال به درجة الدكتوراه ٠ **وكانت تلك بداية المغامرة العلمية العظمى التى توغلت فيها مع زوجها فى مجاهل الكيمياء ، حتى انتهت منها الى اكتشافها العلمى الخطير ٠٠ بل لقد كان ذلك أول عهد العالم بقدرة « الاشعة » غير المنظورة على اختراق الاجسام الى ماورائها !**

وقد بدأت مدام كورى أبحاثها أول الامر بتجربة جميع

العناصر ومئات المعادن المعروفة ، لترى اذا كانت تشع بدورها تلك الاشعاعات الغامضة التى يشعها اليورانيوم ، أم أنه ينفرد وحده بهذه الخاصية ؟٠٠ وكم كانت دهشتها حين فوجئت أثناء تجاربها بقوة اشعاع تفوق بكثير النسبة المنتظرة من كمية اليورانيوم الموجودة فى العينة التى كانت تجرى عليها تجاربها وقتئذ ! ومعنى ذلك أن العينة المذكورة ليست من اليورانيوم الخالص ، وانما هى مختلطة بمادة أخرى يفوق اشعاعها قوة اشعاع اليورانيوم ٠ ولما كانت لم تجد أثناء تجاربها على جميع المعادن المعروفة معدنا آخر له قوة اشعاعية ، اذن فلابد أن العينة تحوى جزءا من عنصر أو معدن « جديد » مجهول !

◆ وتشعب البحث ، وغدا شائقا ممتعا ، فقد أدركت مدام كورى وزوجها أنهما على عتبة كشف علمى جديد ٠٠ ولكن كيف يتجاوزان هذه « العتبة » الى ماورائها ؟٠٠ هنا اضطر الزوج بيير كورى الى أن يترك تجاربه الخاصة الاخرى ليشارك زوجته أبحاثها الهامة ٠٠ وبعد أشهر من العمل المتواصل **ألقى الزوجان « قنبلة » فى الاوساط العلمية كان لها دوى كبير ، فقد أعلنا أنهما بسبيل اكتشاف معدن جديد تفوق قوة اشعاعه قوة اشعاع «اليورانيوم» مليونى مرة !٠٠ معدن تستطيع أشعته أن تخترق الخشب ، والحجر ، والفولاذ ، والنحاس ، ولا يقف فى طريقها غير حاجز سميك من الرصاص !٠٠** وأطلقا على معدنهما الجديد أومعجزتهما الخارقة اسم «الراديوم» (المشتق من كلمة RADIO-ACTIVITY ومعناها : الاشعاع)

لكن دوائر العلماء قابلت بالشك والارتياب نبأ هذا الاكتشاف الذى يقلب رأسا على عقب نظرياتهم التى اعتنقوها قرونا من الزمان !٠٠ وارتفعت الاصوات تطالب المكتشفين باثبات اكتشافهما بالدليل المادى ، بتقديم «عينة» نقية خالصة من المعدن الجديد ، كى يجرى عليها اختباراته كل من يشاء !

صراع شاق !

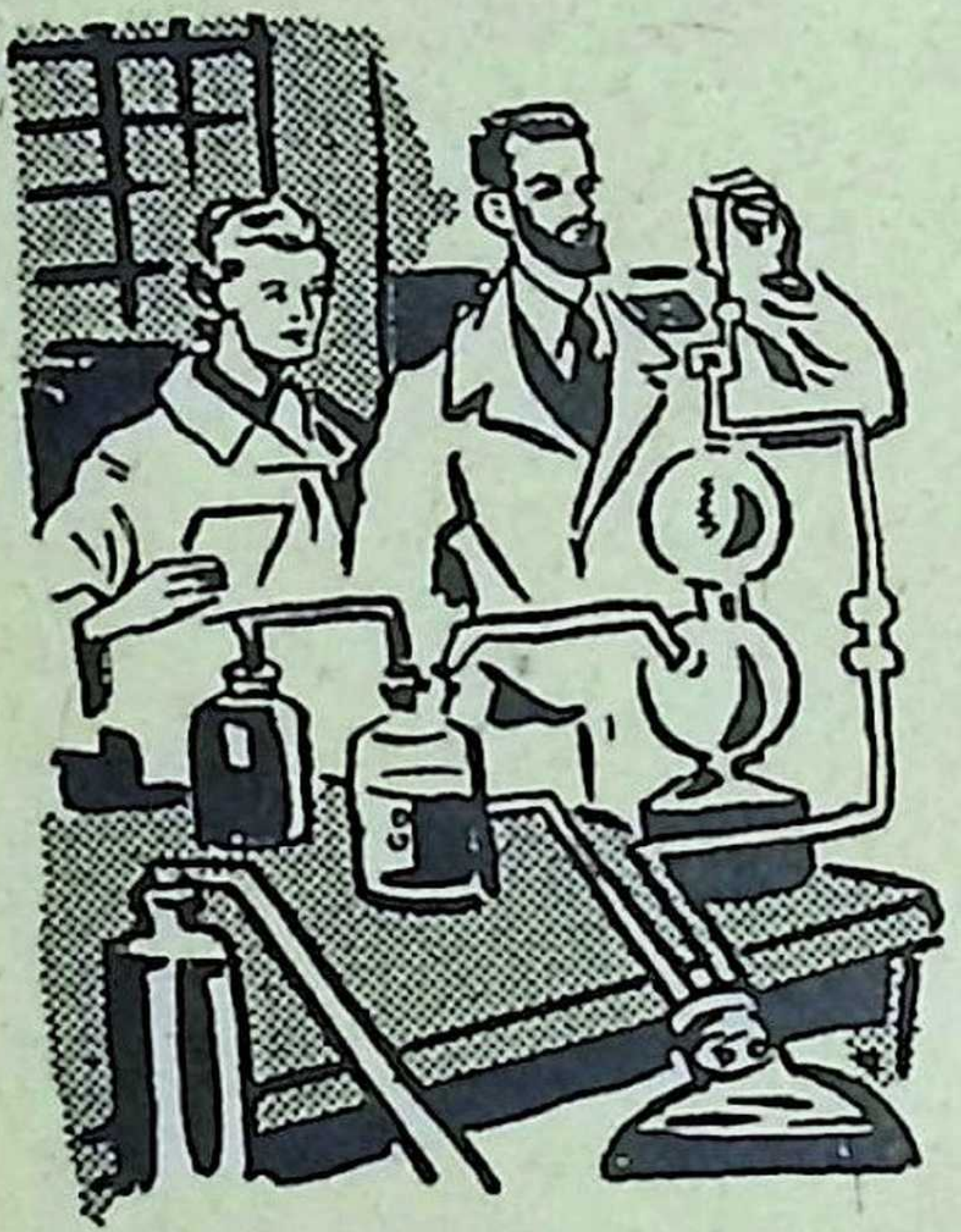

واستجابت مدام كورى وزوجها للتحدى ، فعكفا طيلة السنوات الاربع التالية (١٨٩٨ - ١٩٠٢) على اجراء التجارب الشاقة لاثبات «وجود» الراديوم !٠٠ **واصلا العمل أربع سنوات بلا هوادة كى يقدما للعالم « عشر » جرام من المعدن الجديد لايزيد حجمه عن نصف الحمصة الصغيرة !**

فهل تعرف كيف استخلصا هذه « العينة » الضئيلة ، وماذا كلفتهما من مجهود ؟

كان التراب المعدنى الخام الذى يستخلص منه معدن اليورانيوم ، والذى رجحا من تجاربهما أنه مختلط بذرات من المعدن الجديد المجهول ، يوجد حقا بكثرة فى مناجم بوهيميا٠ لكنه غالى الثمن ، لاحتوائه على أملاح اليورانيوم التى تستعمل فى صناعة الزجاج ٠٠ فمن أين لهما اذن بالاطنان الكثيرة التى تلزمهما لاستخلاص معدنهما الجديد منها ، وهو الموجود فيها بنسبة ضئيلة جدا ؟

بدت لهما المشكلة غير قابلة للحل !٠٠ لكنهما وجدا لهاحلا : اذا كان المعدن الجديد معدنا مستقلا لاصلة له باليورانيوم ، فلماذا لايحاولان استخلاصه من الفضلات المتخلفة بعد استخراج اليورانيوم ، وهى الفضلات العديمة القيمة ، التى لن تكلفهما تقريبا اكثر من نفقات نقلها ؟

وهكذا بدأ هذان العالمان «المتهوسان» - فى نظر الناس -

يستوردان بالسفن من مختلف الجهات ، الاطنان بعد الاطنان من تلك الفضلات الزهيدة القيمة ، فلا تكاد تصل الى معملهما المتواضع حتى يلقيا بالجوال منها بعد الجوال فى «قزانات» ضخمة تغلى على النار ، ثم يستخلصا من كل كمية جديدة قدرا صغيرا يجريان عليه تجاربهما لاستخراج النسبة الضئيلة من « الراديوم » الموجودة فيه ، والتى لم تكن تزيد على جزء من «مليون» من فضلات ذلك التراب المعدنى الخام !

وفى أى مكان وأية ظروف كان العالمان يعملان ؟

فى « سقيفة » خشبية مهجورة ، أرضها غير مرصوفة وسقفها متداع لايحمى من مطر أوبرد !٠٠ وفى مواجهة أفران يتصاعد منها دخان القطران المغلى والمواد الكيمائية فيجعل العين تدمع والحلق يشرق والنفس يتضايق !٠٠ **أربع سنوات استمر البائسان يعملان فى ذلك الجوال التعس ، حتى أوشك الزوج أخيرا أن يفقد صبره وتتداعى عزيمته فيكف عن كفاحه الشاق ٠٠ لكن زوجته أبت أن تستسلم لليأس وأصرت على الاستمرار** ٠٠ حتى وصلا آخر الامر الى بر السلامة فحصلا على عشر الجرام من الراديوم النقى ٠٠ وأعلنا للعالم انتصارهما العظيم !

المجد الخالد !

◆ **واهتزت** الدنيا للكشف الجديد ، ومنحت مدام كورى وزوجها جائزة نوبل العلمية لعام ١٩٠٣ ٠٠ وارتفعت المرأة المجاهدة الى قمة المجد والشهرة العالمية ـ كمارأينا ـ ولم يلبث الطب أن استعان بالمعدن الجديد على مكافحة مرض السرطان ٠٠ **وهنا تعرض المكتشفان للمحنة الكبرى : صار عليهما أن يختارا بين أن ينعما بالثراء الفاحش أو يقنعا بالمجد العلمى فى ظل العيش المتواضع نسبيا !٠٠** فقد اشتد الاقبال على الراديوم من جانب المستشفيات والاطباء والمرضى فى أربعة أركان المعمورة ٠

ولم يكن فى العالم من يعرف سر استخلاصه سوى مكتشفيه ، فكان فى وسعهما أن يختصا نفسيهما بحصيلة عن كل مثقال ذرة من انتاجه ، قبل أن يبوحا بسره الى المصانع والمعامل والشركات التجارية ٠ وماكان أحد ليلومهما لو فعلا ، فعوضا بذلك عناءهما الطويل وأمنا مستقبل بنتيهما ٠٠ بل كان فى وسعهما على الاقل أن يستعينا بذلك المال على انشاء معمل مريح يواصلان فيه أبحاثهما ٠٠ سيما وان الجرام الواحد من الراديوم يباع بمائة وخمسين ألفا من الجنيهات !

زهد ٠٠ خليق بالانبياء !

◆ **ولكن** ٠٠ ممايجدد ويوطد ايمان المرء بعنصر الخير فى الطبيعة البشرية ، أن نعلم أن مدام كورى أبت أن تتقاضى درهما واحدا من المال جزاء اكتشافها الخالد ، وقالت فى ذلك عبارتها الاكثر خلودا : « **لو تقاضيت عن اكتشافى مالا لكانت فى ذلك مجافاة لروح البحث العلمى ٠٠ فضلا عن أن الراديوم سوف يستخدم فى مكافحة المرض ، فهو أداة من أدوات الرحمة ملك لكل مواطن من سكان العالم ، ومحال أن أتقاضى عن ذلك أجرا !** »

وقد جرت العادة أن يذهب الفائزون بجائزة نوبل الى مدينة ستوكهلم لتسلمها بأشخاصهم فى حفل كبير ٠٠ لكن آل كورى كانا فى حالة من الارهاق والتعب الناتجين عن مجهودهما المضنى بحيث عجزا عن السفر ، فبقيا فى باريس يوفران القدر الضئيل الذى بقى لهما من عافيتهما ، وينفقان دخلهما المتواضع كله على مواصلة تجاربهما ، متناسيين كل نفع شخصى أو مصلحة خاصة ، فى تواضع ٠٠ وبساطة ٠٠ وانكار للذات خليق بالرسل والانبياء !

بل انهما ، بنفس الروح التى رفضا بها الثراء والربح الحلال جزاء كفاحهما الشاق ، رفضا الاوسمة وآيات التكريم ! .. كل ماطمعا فيه من العالم الذى منحاه ذلك الاكتشاف الرحيم أن يمنحهما «معملا» مريحا مجهزا يواصلان فيه أبحاثهما العلمية .. فلما كتب عميد «السوربون» الى بيير كورى يبشره بأن الوزير قد رشحه للانعام عليه بوسام « فرقة الشرف » ، أجابه هذا – بموافقة زوجته مارى – بهذا الجواب المفجع : **«رجائى اليك ياسيدى أن تتكرم فتشكر الوزير وتخبره بأنى لاأشعر بأدنى ميل أو حاجة الى أن أحلى صدرى بالاوسمة . لكننى فى أمس الاحتياج الى معمل أواصل فيه أبحاثى »**

الفرار من الشهرة ..!

ونجح بيير كورى كما نجحت مارى فى جهودهما المضنية « للفرار » من الشهرة .. فكانت هى «تتنكر» أحيانا كى تنعم بين الحين والآخر بيوم راحة تقضيه فى الريف .. وكان من العسير على انسان أن يصدق أن تلك المرأة الشابة التى ترتدى ثوبا بسيطا أسود من ثياب الفلاحات ، هى بعينها أشهر امرأة فى العالم ، والحائزة على جائزة نوبل العلمية !

وكان طبيعيا اذن أن تكره مارى « رائحة » الصحفيين .. وقد حدث مرة أن صحفيا أمريكيا راح يتشمم أخبارها حتى علم أخيرا أنها تقيم فى قرية صغيرة من قرى الصيادين على ساحل مقاطعة (بريتانى) .. فتوجه الى تلك القرية وسأل عن الطريق الى كوخ آل كورى . وهناك وجد على الباب امرأة عادية المنظر تجلس على عتبة الباب حافية القدمين ، فحسبها مديرة البيت أو رئيسة الخدم ، فدار بينهما الحوار التالى :

– هل أنت مدبرة البيت ؟

– نعم .

- **هل السيدة فى الداخل ؟**
- كلا ، انها فى الخارج ٠
- **هل تتوقعين عودتها عاجلا ؟**
- لا أظن ٠

فجلس الصحفى الى جوارها علــى درج السلم المنخفض وقال لها : « **هل لك أن تخبرينى بشىء طريف عن حياتهـــا الخاصة** »؟ ٠٠ فأجابته مارى قائلة : «لاشىء ، ســـوى أن مدام كورى كلفتنى أن أبلغ الصحفيين هذه الوصية الهامة : « **قللوا من اهتمامكم الفضولى بالناس ، لتزيدوا اهتمامكم بالمبـــادىء والافكار !** »

ذات صباح مطير ٠٠!

◆ ومع هذا فقد سعت الشهرة وآيات التكريم الىالزوجين ، برغمهما ٠٠ وقبل بيير فى المجمع العلمى ، فصار اخيرا زميلا معترفا به بين زملاء أقل منه جدارة وكفاءة ، وهم لذلك أشـــد مايكونون غيرة منه وحسدا !٠٠ لكن عضويته فى المجمع عادت عليه بنفع واحد ، فقد أتاحت له أن يعين أستاذا بالسوربون ٠٠ وترتب على هذا التعيين حصوله على معمل كامل الاســـتعداد للابحاث العلمية ٠٠ وبذلك تحقق أخيرا حلم آل كورى الـــذى طال عليه الامد !

ولكن ٠٠ ذات صباح مطير من أبريل سنة ١٩٠٦ ، غادر بيير البيت ليزور ناشر كتبه العلمية ٠٠ غادره عـــلى قدميه ، ليعود الى زوجته بعد ساعات جثة هامدة محمولة على الايدى ٠٠ فقد انزلقت قدمه فوق الرصيف الذى بللته الامطار ، فسقط تحت عجلات ناقلة بضائع ثقيلة ، فتتت جمجمته ونثرت مخه فوق أرض الطريق !

وكان ذلك آخر عهد «مارى» بالسعادة .. لكنه لم يكن آخر عهدها بالعمل ، فقد عينت فى مكان زوجها ـ أستاذة بالسوربون ـ فكانت أول مرة فى تاريخ التعليم الجامعى فى فرنسا يسمح فيها لامرأة بتولى كرسى الاستاذية !

واستأنفت أبحاثها فى معمل بيير الجامعى الجديد ، الذى صارت الآن مديرته .. وكان عليها فضلا عن ذلك أن تعنى بتربية طفلتيها ، وأن تدبج المقالات العلمية والتقارير عن نتائج أبحاثها ..

الرسائل الباكية ..

وكان عليها شىء آخر : أن تخلو كل ليلة الى نفسها قبل أن تنام ، لتسجل خواطر اليوم وأحداثه فى صورة خطابات الى زوجها الراحل ، وكأنها تكتب الى انسان مايزال على قيد الحياة :

« لقد عرضوا على ياعزيزى بيير ان اخلفك فى مقعدك بالجامعة ، فقبلت .. ولست ادرى اذا كنت قد اصبت ام اخطات ؟.. »

« حبيبى بيير .. انى افكر فيك بلا انقطاع ، وراسى يحترق وعقلى يكاد يختلط .. لااستطيع ان افهم او اصدق اننى ساعيش منذ الآن بدونك ... »

« ياصفيرى بيير .. ان شجرة «اللابرنم» قد ازدهرت .. اما السوسن ، و «الوستاريا» ، واللبلاب ، فقد بدات براعمها تتفتح .. وقد كنت انت تحب كل ذلك .. »

« ماعدت احب الشمس او الازهار ، بل ان مرآهما يجعلنى الآن اتالم .. وقد صرت احس بقسط اكبر من الراحة فى الايام المكفهرة ، كيوم موتك .. واذا كنت لم اكره الاجواء الصافية بعد ، فلأن أطفالى فى احتياج اليها .. »

.. ومن أجل أطفالها ، ومن أجل الانسانية ، واصلت العمل .. متحملة مزيدا من العناء ، للتخفيف من آلام البشر !.. وحين منحت جائزة نوبل للمرة الثانية ـ سنة ١٩١١ ـ قبلتها فقط باعتبارها فرصة أخرى تعينها على التوسيع من نطاق أبحاثها .

وكان مجال بحثها الجديد الآن هو مفعول الراديوم فى تمكين الجروح من الالتئام .. !

ملاك للرحمة

◆ **وحين** اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ ، جهزت وأشرفت بنفسها على اعداد وحدات متنقلة لعلاج الجرحى بالاشعة ، وراحت تجوب بها ميادين القتال فى طول البلاد وعرضها ، ملاكا للرحمة تحمل العافية للمرضى ، وتخفى أحزانها وآلامها الخاصة وراء نقاب من وجهها الجميل الشاحب ، وابتساماتها المشجعة ، وكلماتها الرقيقة ، وأناملها التى أكلتها الاحماض !

وكان الجرحى المفزوعون يسألونها حين يرون جهاز الاشعة الضخم : « هل سيؤلمنا ؟ » .. فتجيبهم مطمئنة : « البتة .. لن يزيد الامر عما لو كنت ألتقط لكم صورة ! »

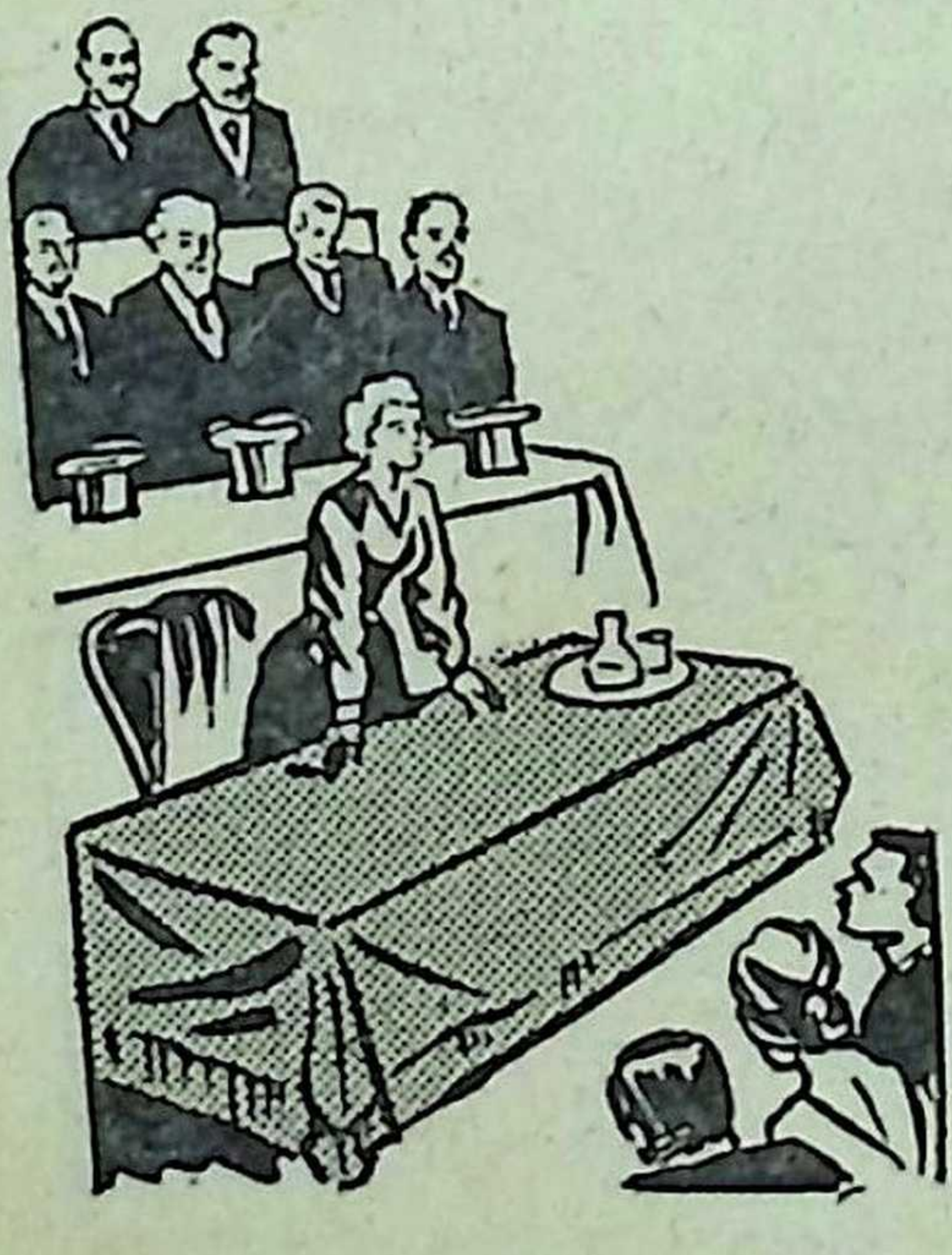

وانتهت الحرب، فاستأنفت مدام كورى رحلاتها لالقاء المحاضرات .. وفى كل مكان كانت تستقبل بالاوسمة والحفلات ، والاحاديث الصحفية، والمآدب التى تتصدر فيها الموائد .. **ولكن بقلب بارد وروح فاترة ، وبعزوف لايتبدل عن مناعم الثراء !.. أو على حد قولها : «ان الحالمين لايستحقون الثراء ، لانهم لا يشتهونه ..»**

نهاية الطـــريق ٠٠!

ودنت نهاية حلمها ، ذات يوم من عام ١٩٣٤ ٠٠ عادت فى ذلك اليوم من معملها تحس تعبا واعياء شديدين ٠ وفى الصباح التالى لم تستطع النهوض من فراشها ٠٠ وعجز الاطباء الذين فحصوها عن تشخيص دائها ! كان فى أعراضه يشبه الانفلونزا ، والسل ، وفقر الدم ، لكنه لم يكن واحدا من هذه الامراض الثلاثة !٠٠ وظل بالفعل لغزا لم يحل الا بعد موتها : لقد ماتت «بالتسمم الاشعاعى » ، أوالتحلل التدريجى لاجهـزة الجسم الحيوية نتيجة للافراط فىالتعرض لاشعاع الراديوم !

وهكذا ماتت مدام كورى شـــهيدة رسالتها العظيمة ٠٠ فكانت كالشمعة التى أضاءت جانبا من ظلام الكون ، ولكن بثمن باهظ جدا ٠٠ هو احتراقها !

أنانية الغنى !

◆ ذهب غنى بخيل الى رجل حكيم من رجال الدين ، يشكو اليه افتقاره الى « الراحة النفسية » ٠٠ فقـــاده هذا الى النافذة وسأله :

– ماذا ترى ؟

– أناسا ٠٠

وعندئذ قاده الى مرآة فى الحجرة وسأله :

– والآن ماذا ترى ؟

– أرى نفسى ٠٠

فقال له الحكيم : « النافذة من زجاج والمرآة من زجاج ، والفارق الوحيد بينهما أن زجاج المرآة مغطى من الخلف بطبقة من الفضة ٠٠ وهكذا لاتكاد الفضة تلوح وراء النافذة حتى تكف عن أن ترى الناس ، ولا تعـــود ترى غير نفسك !»

امكثى !

قصيدة للشاعر الرومى الكبير " ترجنيف "

امكثى !

كمـــا أراك الآن ، أمكثى فى ذاكرتى الى الابد .. !

لقد أفلت النغم الاخير من شفتيك ، فكفت عيناك عن اشعاع بريقهما النورانى .. وغامــت عليهما ظلال السعادة ، والشعور المبارك بالجمال ، الذى افلحت فى التعبير عنه ، وأطلقت وراءه ذراعيك ، كأنما لتطارديه !

اى نور ، ارق وانقى من نور الشمس ، يشع ويفيض من اعطافك ، واعضائــك .. ويخترق ثنايا ثوبك الشفاف الهفهاف ! ؟

اى اله قد طرح على كتفيك ، بأنفاسه المعانقة ، خصلات شعرك المبعثرة الفاتنة .. ؟

ان قبلته تحترق على جبينك الوضىء ، الناصع كالمرمر .. وفى هذه اللحظة يتبدى فنك الخالد !

لكن كل شىء سوف يمضى ، ولن يتبقى منك غير حفنة من تراب .. ولكن فيم يضيرك هذا ، انت التى سوف تكونين فى تلك الساعة محلقة فى الاعالى فوق كل ما هو زائل وموقوت ..

فلتقف هذه الدقيقة الحاضرة ، ولتكف عن الانقضاء ولتمكثى .. ولتمنحينى هبة مشاركتك فى خلودك . ولينعكس شعاع ابديتــك على نفسى ، ويغــوص فى اعماقى .. !

ألا امكثى .. ثم امكثى .. !

حدث ذات يوم

من قصص التاريخ ومآسيه

عزيزى القارىء ...

فى هذا الباب اعتدت ان أطوف بك فى سياحة فكرية شائقة نزور خلالها شتى البلاد والعصور ، كى نلم من كل منها بقصة .. ونشهد فى كل منها دراما من صميم الحياة والواقع

وهكذا مضينا معا فى عدد سابق الى ايطاليا ، حيث التقينا بسليلة السفاحين «لوكريشيا بورجيا» .. ثم تركناها لنغوص فى بطن الزمن ، فنلتقى بقيصر روما القديمة «تيبريوس» .. ومن هناك عدنا الى فرنسا فى عصر نابليون ، فعرفنا عشيقته البولونية «مارى فاليفسكا» .. ثم عبرنا القنال الانجليزى الى انجلترا ، حيث شهدنا مأساة ملكتها كارولين ، زوجة الملك جورج الرابع .. ومنها الى فينا ، عاصمة النمسا والغناء والخمر والنساء، حيث عشنا مع الاميرة العاشقة التى كانت لها قصة اغرب من أخصب خيال .. !

واليوم ننتقل الى باريس القرن السابع عشر ، لنعاصر هذه القصة الممتعة ، قصة امراة وملك !

وفى الاعداد القادمة اقدم لك بمشيئة الله من قصص التاريخ ومآسيه : مأساة النسر الصغير (ابن نابليون) .. سبايا بيزنطة الجميلات .. نهاية الماريشال «ناى» (اشجع الشجعان) .. فاجعة جوانا ملكة اسبانيا .. الخ

امرأة.. وملك

قصة مدام مانتنون..
ولويس الرابع عشر

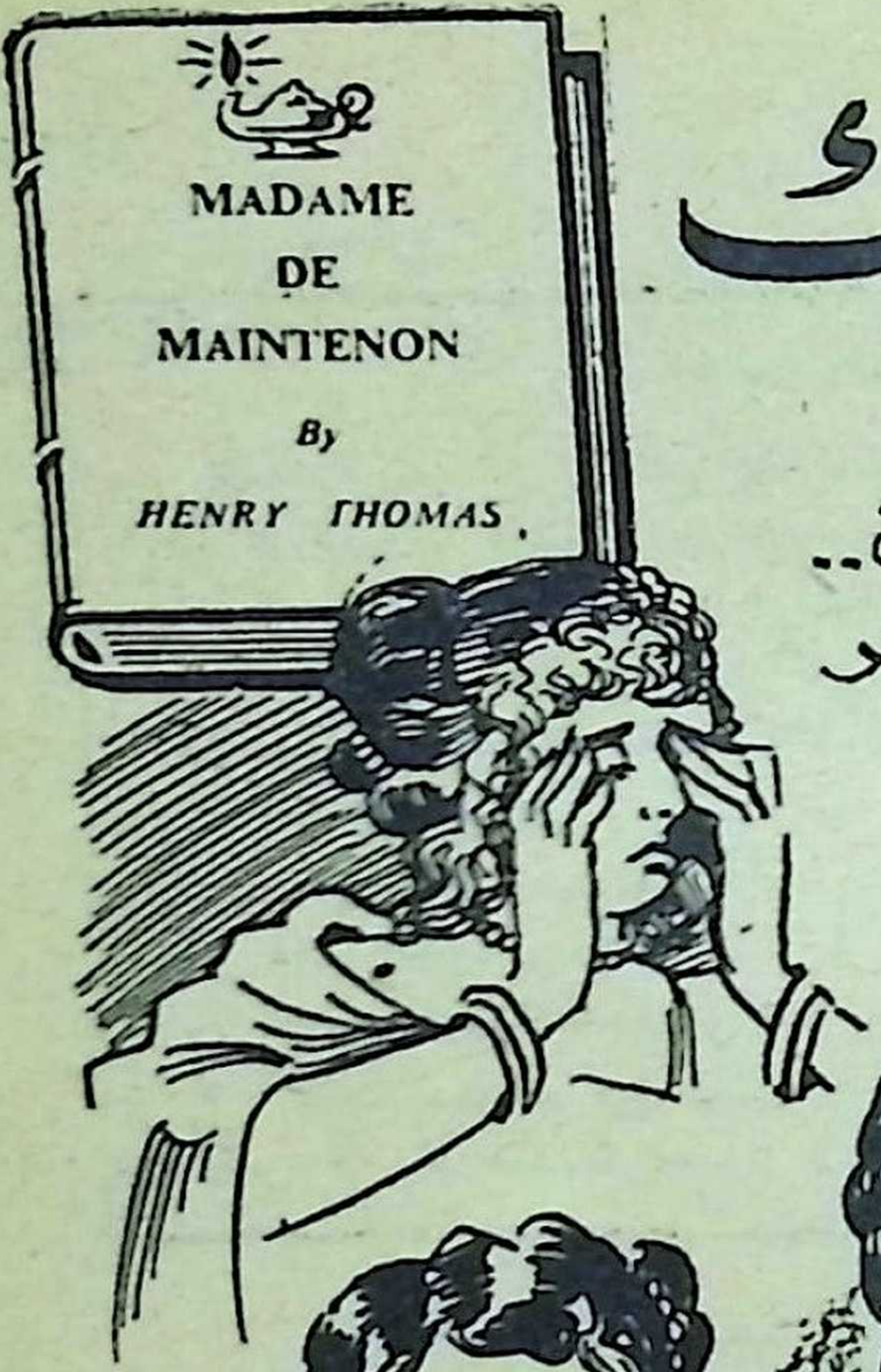

هذه القصة ..

◆ ماكان يمكن ان تقع هذه القصة الا فى فرنسا ، فرنسا القرن السابع عشر ، حيث كانت الثروات والارواح تنتزع وتبعثر بايماءة من راس لويس الرابع عشر !.. فرنسا التى ارتدت شعر النبلاء المستعار فوق أكتاف الفلاحين المعذبين !.. كان الدهماء يجبرون على أن يزحفوا على بطونهم ، فى الوقت الذى كانت فيه حياة الفئة القليلة من المحظوظين .. جنة على الارض !

وحلقت فى سماوات «لويس الرابع عشر » حفنة من نساء بلغن اعلى قمم الحظوة والمجد ، وتربعن على عرش السحاب .. كالطواويس التى اعطيت فجاة القدرة على الطيران !

قالت « مدام دى مانتنون » مرة : « لو ذكرت كل الحقيقة عن حياتى .. لما صدقها احد ! »

شهر العسل .. فى السجن !

◆ **بعض** النساء تبدأ حياتهن فى ظروف مرضية وتنتهى فى السجن .. أما « فرانسواز دوبينييه » فقد بدأت حياتها فى السجن وانتهت فى ظروف مرضية !... وكانت حياتها مخالفة لمنطق تعاليم الاخلاق : فقد ولدت فى زنزانة ـ دون ذنب جنته ! ـ وعاشت الثلاثين عاما الاخيرة من حياتها فى قصر ملك ، دون فضيلة تستحق من أجلها ذلك !

كان جدها « تيودور أجريبا دوبنييه » صديقا مقربا الى الملك هنرى الرابع ، وكان خليطا من : البارون ، والاميرال ، والدبلوماسى ، والمؤرخ !.. أما والدها « كونستانتين » فكان « دائرة معارف عالمية » للرذائل : ارتكب جريمة القتل .. ووشى بسياسة أبيه لدى الملك ثم استولى على جميع ممتلكاته وأراضيه !.. وزيف النقود فحكم عليه بالسجن فى بوردو.. ثم ، **لكى يختم سلسلة مغامراته ، احترف نظم الشعر الغرامى فظفر بيد ابنة سجانه ، التى اجتذبتها أشعار هذا الافاق الالمعى**

فتزوجته .. ودخلت السجن طائعة كى تقضى معه شهر العسل !.. وكلما نقل من سجن الى آخر كانت تتبعه ، تنفيذا لحكم الهوى ..!

وفى سجن « نيورت » ، الملحق بسراى وزارة العدل ، ولدت ابنتها فرانسواز .. فأخذها بعض أقربائها من بين جدران السجن القاتمة الى حيث سهروا على تربيتها فى ضيعة جدها ، فقضت فرانسواز سنى حداثتها فى قصر « مورساى » .. وتعلمت أن تقرأ على احدى درجات السلم الكبير الذى فى مدخل القصر هذه العبارة : « من الصعب أن تنهض وترتقى الى أعلى ! » .. فكانت عينا الطفلة تتطلعان الى قمة السلم وساقاها تجاهدان جهادا عنيفا كى تتسلقاها .. ولم تنس ذلك الشعار قط فى حياتها المستقبلة !

نشأة ثقافية ممتازة !

◆ **وحين** أطلق سراح أبيها « كونستانتين » من السجن أبحر ومعه أسرته الى جزيرة « المارتنيك » حيث حصل على عمل لا بأس به .. وهناك نشأت فرانسواز واخوتها فى رعاية أم تمرست بالآلام التى قاستها مع زوجها فصارت لا تسمح لهم بأن يقرأوا غير كتب المؤرخ « بلوتارك » أو يتناقشوا فى موضوع يخرج عن محتوياتها.. وهكذا ألفت الآنسة الصغيرة أن تعيش على غذاء ذهنى من اللون الذى يتناوله الرجال، مادته : يوليوس قيصر ، وتيميستوكل ، واسكندر المقدونى !.. الخ

وبعد بضع سنوات أخذ كونستانتين أسرته عائدا الى فرنسا، حيث عاش من احسان بعض الموسرين البروتستانت الذين كانوا يحفظون لابيه أحسن الذكرى .. ولم يمض زمن قصير حتى وافته منيته ..!

ولم تذرف عليه دمعة واحدة .. وتذكر الناس العبارة التي

قالها يوما « ريشليو » لوالدته مدام دوبنييه : « أن أجل خدمة أستطيع أن أؤديها لك يا سيدتى هى أن أحتفظ به فى السجن!» .. أما وقد رحل الآن فقد صار بمنجاة من اللوم والتثريب !.. وأخذت ابنته فرانسواز ـ سليلة البيت النبيل الذى تلوث وافتقر ـ من بين أحضان أمها المتحجرة القلب وطـرحت فى أحد الاديرة ، مثل قطعة من متاع السفر تركت فى محطة من محطات السكة الحديد ولم يعد صاحبها ليسأل عنها ..!

◆ **ولكن** لم يمض زمن حتى حل « الطرد المهجور » وثاقه بنفسه ، وتحرر من قيوده ليستمتع بمحتوياته .. واذا الفتاة الصغيرة الخجولة قد تفتحت عن آية من آيات الجمال ، تجلس الى أشغال الابرة هادئة كالفـــأرة .. لكن كل عين من أعين الموجودات فى الدير كانت تستدير كى تتأمل الجوهرة الجديدة التى تألقت فى المكان .. وحين بلغت فرانسواز الرابعة عشرة أطلقوا عليها « الهندية الحســناء » ! والا فأين فى غير جزد الهند الغربية ، بشمسها الساطعة ، ونجومها الاستوائيـة ، يمكن أن تنضج مثل هذه البشرة ، والطلعة ، والجلال ؟!

ينظم الشعر .. ويسحق القلوب !

◆ **كانت** باريس فى تلك الآونة سوقا لاغرب « عينات » الجنس البشرى من الفنانين البوهيميين.. وكان أكثرهم حظوة بالاعجاب شاعر يدعى « بول سكارون » ، شاب مرح ، حاضر البديهة لاذع الدعابة ، كالسيف الذى يلمع ويجرح .. بارع فى العزف على العود مثل براعته فى اللهو والعبث بالنساء !.. يلقى أشعاره فى الهواء مثل كرات البللور ، ويسحق القلوب تحت كعب حذائه فى غير مبالاة .. لكن تهتكه ومجونه انتهيا به الى الشلل والعجز عن تحريك ســاقيه ، فلم تبق له غير دعاباته الساخرة .. صار يجلس على « صندوق ذى عجلات »

ويتحدث عن مأساة حياته ، فيجعل من مرارة نفسه مادة للفكاهات .. وينظم خيبة أمله فى أشعار شائقة ، ويحيل آلامه ضحكا ومرحا !

وجذبت شخصيته الباهرة - رغم تمرغها فى الوحل - أسماع أذكى شخصيات المملكة وأبرعهم فى الدعابة ، فالتف حوله من الادباء موليير ولافونتين .. ومن رجال الجيش الجنرال كونديه والجنرال تورين .. ومن النساء نجمة المجتمع اللامعة « مدام سكوديرى » والممثلة « نينون دى لونكلو » ... ثم انضمت الى الجماعة عمة « فرانسواز دوبينييه » وأخذت معها الى ذلك الوسط البوهيمى الذى تحفل جلساته « بالهذيان » ، ابنة أخيها الشاحبة المتهيبة ..!

أدار بول سكارون عينيه - وكانا الجزء الوحيد السليم من جسمه ! - نحو فرانسواز .. وللفور سرت فى بدنه الضئيل المعتل قشعريرة ، لحظتها عين العمة الواعية فلم تجد فى الامر غضاضة .. وأى بأس فى أن تجمع الظروف بين فتاة فقيرة لا تملك بائنة ، ورجل مشلول ذى نفوذ فى أكبر المجتمعات وأعظم الاوساط ؟.. ان المتسولات لا يملكن فرصة فسيحة للاختيار ، والشاعر الكسيح يعرف الكثيرين من علية القوم ، بله الملوك !

الزواج .. أو الدير !

وذات يوم باح العاشق بمكنون عاطفته لفرانسواز . وكانت المساومة بينهما سجالا .. قال سكارون للحسناء : « فى مثل موقفك يا عزيزتى فرانسواز لست أرى غير احتمالين : أن تقبلى أحد الرجال زوجا لك ، أو تعودى الى الدير .. فاذا كنت لا تبغين أن تصيرى راهبة ، واذا كنت - بالرغم من وجهى وهيئتي وعجزي - تقبلينني زوجا لك ، فاني أعدك بأن أفعل

كل ما فى وسعى كى أسعدك ·· وأضمن لك - مقدما - انك اذا بكيت يوما فى بيتى فلن يكون ذلك الا يوم موتى !

وتم الاتفاق بين الاثنين ·· بين الشاعر النبيل - الذى كان أبوه زعيما من زعماء البرلمان - والحسناء النبيلة التى ورثت كرم المحتد عن جدها العظيم خدين الملك ·· وتزوجت فرانسواز الحسناء من الرجل الذى « كان جسمه أشبه بمشنقة علق فيها الشيطان روحا ! » ·· **وفيما كان المسجل يحرر عقد الزواج سأل بول سكارون عن « المهر » الذى سوف يقدمه الى زوجته، فأجاب ملك المهرجين : « الخلود ! »**

◆ **وطيلة** ست سنوات ظلت فرانسواز ساهرة على تمريض الزوج المقعد فى صبر وجلد ·· وقاست معه نزوات مجده المجنونة ، ونوبات آلامه الجسمية والنفسية ·· كان بول سكارون قد أضحى معبود باريس بأسرها ، وبلغ من تزاحم الجماهير على مشاهدة مسرحياته الرائعة أن البعض كان يلاقى حتفه مسحوقا تحت أقدام النظارة المتزاحمين على الباب !

وكان يحدث أحيانا ، فى غمرة القائه نكاته الصاخبة التى كان ضيوفه يضجون بالضحك منها ، أن تفاجئه احدى نوبات الالم العنيف فيصرخ فى لوعة مستغيثا ·· حتى قال عن نفسه : « انى خلاصة كل الشقاء البشرى ! » ·· ورغم ذلك فقد كان يبدد ما تبقى له من صحته الواهنة بمثل الاستهتار والاسراف اللذين كان يبدد بهما ثروته الطائلة ! فقد انهال عليه المال وجرى بين أصابعه كرمل الصحراء ، بلا حساب ، حتى أطلق الناس على « اوتيل دي تروى » حيث كان يقطن مع زوجته : « فندق الاسراف ! » ·· **وعاشت فرانسواز فى رفاهية تامة ، يقابلها السهر على تمريضه والعناية به ، كضريبة تدفعها عن هذا الترف !·· كانت تطعمه « الافيون » وتجلس الى جواره فى سكون الليل حين لا تبقى ثمة حاجة الى ارتداء قناع الضحك··**

وكانت الصفقة عادلة ، حتى لكأن لسان حاله هو يقول : « لقد جئت الى جوار فراشى بعينين كبيرتين ، ووجه جميل ، ويدين رائعتين ، ودخل قدره أربعة جنيهات .. وأعطيتك أنا مقابل ذلك : العلم باللغة اللاتينية ، والايطالية ، والاسبانية والثقافة العامة ، والمركز الاجتماعى .. وأكثر من ذلك أعطيتك ماضيا يساوى كل أموال المملكة ! »

ست سنوات من التمريض والرعاية .. وحين اقتربت الساعة الاخيرة هتف بول سكارون مهللا : « أخيرا سأشفى من عذابى ! »

ودفن فى قبر متواضع، فقد ترك وراءه تلا من الديون، وزوجة جميلة أعدها لمستقبل رائع .. لقد سهرت على ازالة الوحشة عن قلب كسيح .. ولكن لن تمضى سنوات حتى تسهر على ازالة الوحشة عن قلب ملك ! .. فان الاقدار تعد العدة كى تقذف ذكرى بول سكارون بسخريتها الاخيرة اللاذعة !

قديسة فى .. باريس !

◆ **وتزاحم** الرجال على الارملة الحسناء يعرضون عليها مغرياتهم ! .. لكنها أبت أن تتزوج ثانية ، فان « الرأس الاسمر الجميل » لا يصيبه الدوار بسرعة .. وهو رغم صغر حجمه ملىء بالحكمة : سعى أحد المعجبين بها الى التواعد معها يوما على لقاء ، فمنحته موعدا .. وحين ذهب الى مكان الخلوة المتفق عليه وجد فيه، بدلا من مدام سكارون : زوجته هو وأولاده .. وكانت الماكرة قد أرسلتهم اليه امعانا فى السخرية منه !

وآثرت فرانسواز أن تنزوى فى أحد الاديرة ، كطالبة ممتازة .. وهناك قضت وقتها تقرأ الفلسفة وكتب الدين ، فقد كانت الى حكمتها امرأة متدينة . كانت لا تفتأ تقول : « **منذ زمن لم أكن وجدت على سطح الارض .. وبعد بضع سنوات لن أعود موجودة .. فهل يحق لمخلوق هذه حدود حياته أن يتمرد على الله ؟** »

حداد الزوج المخدوع !

ورغم أن أرملة بول سكارون عاشت فى عصر المغامرات ، فانها لم تكنَ امرأة مغامرة ·· كان لها وجه « فينوس » ، لكن قلبها كان من ثلج ·· صاغها الله من نار ، ثم أعطاها أنفاس ريح صرصر باردة !

كانت بصيرة بأمور الدنيا ، وكتومة ·· وكان لها أصدقاء وصديقات فى بلاط لويس الرابع عشر ·· وبين حين وآخر كانت تدعى الى العشاء فى دور العظماء ، فتلتقى فيها بصفوة نساء فرنسا ، وعلى رأسهن **« مدام دى مونتسبان » خليلة الملك ، التى تنبه زوجها - المركيز دى مونتسبان - آخر الامر الى صلتها بمولاه ، فما كان منه الا أن ارتدى ثياب الحداد وألبسها لجياده وعربته ، ثم أرسل الى أصدقائه بطاقات يدعوهم فيها الى جنازة زوجته ، فانها كانت قد ماتت فى نظره !**

لكن هذا كله لم يكن قد حدث فى الوقت الذى نحن بصدده·· كانت الصلة مجهولة الا من فئـــة قليلة ، لم يكن الزوج بين أفرادها !·· وكانت الخليلة توشك أن تضع طفلا ، فاقتضى الامر اختيار دار فى بقعة منعزلة لتنشئة الطفل ·· ومربية كتومة لتربيته وتعهده بالرعاية ، بدلا من أمه ·· ومن هنا وقع اختيار مدام دى مونتسبان على مدام سكارون ·· وذات يوم من أيام الربيع وصلت فرانسواز الى حيث وضعت الحامل حملها·· ثم تسللت بعد حين من باب جانبى متخفية وتحت معطفها طفلة وليدة ، الى حيث كانت عربة خاصة تنتظرها أمام الباب كى تقلها الى الدار التى اختيرت لسكناها مع المولودة ··

◆ **ومنذ** ذلك اليوم عاشت فرانسواز حياة مزدوجـــة ، تسللت خلالها خمس مرات من الباب الجانبى لمسكن مدام دى مونتسبان كى تعرض الطفلة على والديها ثم عادت بها من حيث أتت !·· وكانت لا تفتأ تحدث نفسها : « أنا لست خاطئة··

انى أقوم بهذه المهمة بدافع الاحترام لمليكى ، ولان قسيسى الذى أعترف على يده يرى فى ذلك عملا طيبا • وقد خيل الى فى البداية انه لن يمضى العام حتى تثور نفسى اشمئزازا ، لكنى شيئا فشيئا أسكت عواطفى وندمى •• **ان المرأة التى تلد الطفل غير الشرعى هى امرأة غير فاضلة ، أما المرأة التى تتولى تربية ذلك الطفل فهى ليست أكثر من امرأة كتومة !** »

وكانت كلمة فرانسواز فى الدار بمثابة القانون ، تسرى على : ممرضتين وخادمة ، وطبيب ، وساع ، وساقيين ، وحوذى وسائس ، وطاهيين !•• كما زودت بعربة فاخرة صارت تأخذ فيها الطفلة وأشقاءها غير الشرعيين كل اسبوع الى « سان جرمان » ليراهم والدهم الملك•• وهكذا أصبحت مدام سكارون تتناول العشاء مع الاسرة المالكة ، وتجلس فى العربة الملكية ، وتبحر باليخت الملكى ••!

وبلغ من حسن تربيتها للاطفال الذين عهد بهم اليها أن زوجة الملك ــ الملكة ماريا تريزا ــ لم تملك نفسها من الاعجاب بالتربية التى غرستها مدام سكارون فى نفوس الصغار ، فقالت لها فى احدى المناسبات التى التقيا فيها : « آه ، مدام سكارون •• ليتك تعهدت بالتربية أولادى أنا أيضا ! »

وذات يوم ذهب الملك لويس ، على غير انتظار ، الى الدار التى يقيم فيها أولاده مع مربيتهم فى الضاحية النائية •• واذ تسلل الى باب مخدع الصغار ووقف يتأمل ما يجرى فى الداخل ،

وقع بصره على لوحة تمثل الحنان الانسانى فى أبلغ صوره : رأى المربية - مدام سكارون - جالسة بجوار فراش ابنه « الدوق دى مان » الذى كان مريضا بالحمى ، تتحسس جبينه بيدها .. وباليد الاخرى تهز أرجوحة ابنته الطفلة « مدموازيل نانت » .. وعلى حجرها رقد ابنه الثانى « الكونت دى فيكسان » ..!

وكان المشهد ، الناطق بالتفانى والاخلاص ، يستحق فى نظر الاب مكافأة .. فأمر الملك بمنح المربية الوفية ضيعة «مانتنون»، وهى تضم دارا ريفية جميلة مشيدة على الطراز القوطى ، أمر ببنائها أحد سادة عصر الاقطاع فى عهد الملك فيليب ثم أعيد تكبيرها وتزيينها فى القرن الخامس عشر .. كما خلع الملك على المربية لقب « المركيزة دى مانتنون » !

لنعومة البشرة .. سلطان !

ولم يمض زمن حتى بدأ الملك لويس يشعر نحو المربية بأكثر من شعور العرفان بالجميل!.. لقد وقع تحت سطان «الاعجاب بنعومة بشرتها » ، شأنه شأن كل من عرفها من نبلاء فرنسا وقتئذ !.. وكان قد سرى بينهم شبه اجماع على أن « جمالها يصنع المعجزات ، بحيث أنه لا بد ينطوى على عنصر خارق للطبيعة ! » .. وسرعان ما تداول رجال البلاط اشاعة مؤداها أن فرانسواز قد تعلمت من احدى ساحرات جزر الهند الغربية سر اعداد جرعة من شراب سحرى يمنحها قوة السيطرة على أى رجل تشاء، ويحرمه هو من القدرة على مقاومة فتنتها !.. وتهامس مروجو الاشاعة قائلين : « ان الهندية الجميلة لن تلبث أن تأخذ طريقها الى مخدع لويس ! »

لكن حملة الناس كانت ظالمة ، فان فرانسواز صارت تخفض عينيها كلما التقتا بعينى الملك ! وسرعان ما أدرك لويس أن عليه

مهمة اغراء امرأة متدينة ، لا غانية مستهترة .. وهو الذى كان يعتقد أن الخلق القويم وقف على النساء القبيحات ! **وكانت تجاربه قد عودته أن ما من امرأة تستطيع أن تقاوم رغبته .. فما بال هذه تستعصى عليه ؟.. وبدأ يحس انه هو الذىسوف يعجز عن مقاومتها ، وانه قد يضطر الى اتخاذها .. لا عشيقة، بل زوجة له !**

ولم لا ؟.. ونقبت المرأة فى سجلات أسرتها فاكتشفت أن عراقة نسبها ترجع الى سبعة عشر جيلا مضت ، منذ أسس « جفروا دوبينيبيه دانجو » أسرة كانت من أعرق أسر النبلاء فى فرنسا .. وتصدى بعض الساخرين لهذه الرواية زاعمين أن فرانسواز أخطأت فى ارجاع نسبها الى جفروا دوبنيبيه ، وأن ذلك الجد الاعلى لا يمت بصلة الى جدها الادنى تيودور دوبنيبيه، الذى هو أول وآخر رجل عريق فى سلالتها !.. لكنها هزت كتفيها-هازئة بهذه الحملات .. وأقنعت نفسها ان الله قد اختارها لمهمة خلقية سامية ، رسالة اصلاح مقدسة : انها قد هذبت أولاد الملك لويس ، فلم لا تهذب أخلاقه هو الشخصية ؟ وبدأت بمناشدته أن يتخلى عن عشيقته مدام دى مونتسبان ويهجرها !.. وفى أثناء ذلك أمر لويس بتعيينها وصيفة « للدوفينة » ، زوجة ولى العهد ، فطغت جاذبيتها وفتنتها على مولاتها !.. كانت قد أشرفت على الخمسين ، لكن نضارتها جعلتها تبدو كأنها فى الثلاثين ، وكلما تقدمت الايام كانت تزداد شبابا وحسنا ، لا كهولة وذبولا ..!

.. فى الطريق الى مخدع الملك !

وبدت أحلام فرانسواز فى الزواج من الملك بعيدة التحقيق.. كانت الملكة ما تزال على قيد الحياة ، ومدام دى مونتسبان ما تزال متمتعة بالحظوة لدى الملك .. أما هى فلا تعدو كونها « وصيفة » ..!

ولكن فجأة .. تموت الملكة « ماري تيريز » ، أتعس شخصية مهجورة في قصر لويس !.. ويهجر الملك مدام دى مونتسبان، مدفوعا بتفاقم شكوكه وانطفاء رغبته فيها ! وهكذا ، فى اليوم الثانى عشر من يناير سنة ١٦٤٨ ، وفى كنيسة قصر فرساى ، يتخذ لويس الرابع عشر « مدام دى مانتنون » زوجة شرعية له ... سرا !

وهكذا تصبح فرانسواز دوبينييه ، أرملة بول سكارون ، ملكة من « البوربون » .. !

مجد زائف !

◆ ومن يكون أفراد أسرة البوربون الذين انتمت اليهم الآن - قانونا - مدام دى مانتنون ؟

انهم بضعة أفراد لا يمتازون فى ذواتهم بشىء ، بل لعلهم ينقصون عن سواهم فى أكثر من شىء :

فمنهم شقيق الملك ، الذى كان شغوفا بتزيين رقبته بعقد ، كالنساء !

ومنهم الدوق دى بوربون ، صهر الملك ، الذى كان نحيلا.. معوج الساقين .. أحدب الظهر .. قصير القامة .. أحمر العينين بحيث يصعب على من يراه أن يميز أيهما العين السليمة وأيهما التى أصيبت فى حادث ؟

ومن البوربون كان الكونت دى سواسون ، صاحب البشرة الشاحبة والفم الصغير المحشو بالاسنان التالفة المتآكلة ... والساقين المعوجتين الى الداخل ، حتى ليبدو كالببغاء !

حتى ابن الملك - ولى العهد ووريث العرش - لم يكن ممتازا سواء فى مظهره أو باطنه ، علاوة على انه كان « نهما مفرطا فى الشراب والطعام ، حتى ليبدو كأنه يوشك أن يغرق فى لجج شحمه ولحمه !.. ولم يكن يتكلم فى غير موضوع الطهى والصيد

والقنص .. أما خلقه فكان يتصف بالعناد والضعة والنذالة.. وفي صباه كان يغضب حين تمطر السماء على غير ارادته ! ويحطم الساعات التى تدق معلنة حلول موعد دروسه .. وحين كبر صار على قدر من الكبرياء والغطرسة بحيث ينظر من علياء سمائه الى الناس العاديين كما لو كانوا مجرد ذرات من جنس لا يمت اليه بصلة ! ».

على أنه ـ فى هذه الصفة الاخيرة ـ لم يكن غريبا عن أبيه.. فان لويس الرابع عشر كان بدوره يعتبر نفسه « الآدمى الوحيد الذي يمثل الشمس الوحيدة فى السماوات ! » ... ولم يكن يطيق أن يتكلم أحد عن غير شخصه ، فاذا انتقل الحديث الى أى موضوع آخر كان يتثاءب ويذهب الى فراشه ..!

مليون جنيه .. لتبديد الضيق !

◆ على أن مدام دى مانتنون كانت تضيق أحيانا بأبهة الملك، فتمضى الى الريف حيث تستطيع أن تختلط ببعض الفلاحين السذج .. وفى احدى المرات وصفتهم بقولها « انهم لا يحسنون الكلام مثلنا ، لكننا نحن لا نحسن الفعل مثلهم ! »

وأخيرا ، وكمهرب من الجو الذي لا تميل اليه ، قررت أن تنشىء مدرسة للبنات ، بنات الضباط الذين فقدوا حياتهم فى الحروب ، يتعلمن فيها دروسهن فى ظل مبادىء الاخلاق والدين، ثم يزودن بالازواج الصالحين حين يبلغن سن العشرين !.. وقال الملك ـ الذى لم يكن يرفض لزوجته طلبا ـ فى وصف هذا المشروع « انه مشروع جدير بالتنفيذ ! » وفعلا أنفق نحو مليون جنيه لبناء تلك المدرسة فى سان سير .. وحين تم البناء شيد جناحا خاصا داخل نفس الاسوار كى تصلى فيه الفتيات من أجله اذا هزمت جيوشه، وينشدن أناشيد الفرح حين تنتصر تلك الجيوش !.. لكنه اشترط أن تظل التلميذات وراء أسوار

مدرستهن جاهلات بالدنيا حتى سن العشرين ٠٠ وقال فى هذا : « أريد من آنسات سان سير أن يكرهن الدنيا ويحببن الدولة!»

وفى تلك المدرسة النموذجية تجلت مواهب مدام دى مانتنون الفذة فى التربية ، حتى غدت « سان سير » أكاديمية فرنسا الارستقراطية ، تتعلم فيها التلميذات علاوة على برامجهن آداب اللياقة الجديرة بقصور الملوك ٠٠ وسئل الشاعر المسرحى « راسين » الذى كان قلمه يفيض بآيات الشعر الكلاسيكى ، أن يكتب مسرحية جديدة خصيصا لاجل تلميذات سان سير ، فوضع دراما رائعة بنى حوادثها على قصة الملكة استير المشهورة الورادة فى التوراة .

وحين مثلت الرواية الجديدة على مسرح المدرسة لقيت نجاحا هائلا حتى لقد بكى ولى العهد تأثرا وصفق الملك من فرط تحمسه مرارا ، ولم يتحدث فى موضوع آخر طيلة فترة العشاء فى تلك الليلة ٠٠!

لكن مجد الاكاديمية كان قصير العمر ، فقد اعترضت سلطات الكنيسة على التمثيل فى المدرسة بحجة « انه ليس مهنة صالحة لفتيات المستقبل » ، فاضطرت مدام دى مانتنون تحت ضغط رجال الدين الى تحويل الاكاديمية الى دير للراهبات ٠٠

تصحب الجيش الى ميادين القتال !

● والزوجة الوفية تجد من واجبها عادة أن تمضى فى ركاب زوجها الى المجد ، ولو خلال نيران الجحيم ٠٠ وهكذا اضطرت مدام دى مانتنون فى كثير من حملات الملك الحربية الى مرافقة الجيش داخل عربتها الخاصة ، والى اقامة الولائم فى المناسبات، أثناء انهماك الجنود فى القتال ٠٠ بل لقد كتبت فى مذكراتها أثناء الحرب التى شنها زوجها على دوق مارلبورو تقول : **« ان المعركة التى كسبناها فى ايطاليا تقتضى منى أن ارتدى**

خير ثيابى .. واذا سقطت برشلونه فمعنى هذا أن أرتدى ثوبا أخضر .. واذا وقع الارشيدوق فى الاسر ، فينبغى أن أرتدى ثوبا ورديا .. الخ »

لكن دفة الحرب تنقلب ، فتخسر جيوش الملك المعارك واحدة بعد الاخرى .. ويطلق لويس على جنوده فى نوبة غضبه وصف « الحمقى » .. ويفقد هؤلاء ايمانهم بتعضيد الله لخطى مليكهم ومشروعاته .. وحتى مدام دى مانتون ، زوجة الملك المتدينة تفقد فجأة ايمانها بالله وباغاثته لفرنسا !

لكن ايمانها لا يلبث أن يعود الى مكانه من قلبها ، فان الملك يعقد مع دوق مارلبورو صلحا يفقد به بعضا من أرضه وكرامته، لكنه يحتفظ بعرشه .. وتعود الحياة فى فرساى الى سابق عهدها وبذخها !

تحت رحمة الجماهير ..

ولكن ذات يوم ، أثناء نزهة « المدام » فى عربتها خلال طرقات باريس، **تلتف الجماهير الجائعة حولهـا وفى عيونهم نظرات غريبة جوفاء تنطوى على شئ من التهديد . ترى هل ينطقون أخيرا بعد صمت دام قرونا؟.. ومضت لحظات حرجة أحست المرأة خلالها ان حياتها ليست آمنة..** وتصايح الناس باسمها صاخبين .. هذه هى المرأة التى أدى اسرافها وترفهـا البالغان الى حرمانهم من لقمة الخبز .. **هذه هي المرأة التي حاول أعظم**

مهندسى الدولة أن يحولوا مجرى نهر من مكانه اطاعة لامرها ، بغية أن يغذى النهر نافورات قصر فرساى ٠٠ وقد سحقت أجسام ألف من الرجال فى تلك المحاولة !

لكن أحدا من المتظاهرين لا يمس المرأة بسوء فى هذه المرة ، فانها تفلح فى اقناعهم ببراءتها ٠٠ وان مائة عام لا بد أن تنقضى قبل أن تقع امرأة أخرى فى نفس المأزق وتعجز عن اثبات براءتها ، فتساق الى المقصلة !٠٠ لكن « مارى انطوانيت » التعسة ارتدت عقدا براقا من الماس وهى تشق طريقها وسط الجماهير الجائعة الى آلة الاعدام ٠٠ أما مدام دى مانتنون المتدينة الورعة فكانت ترتدى ـ وقت أن حاصرتها الجماهير ـ ثوبا أسود متواضعا !

« شهرزاد » فرنسا !

◆ قال فرنسى ساخر : « ما من خادمة مطبخ فى فرنسا لا تحسب نفسها قديرة على ادارة دفة سياسة الدولة ! » ٠٠ لكن مدام دى مانتنون أدهشت حتى الفرنسيين أنفسهم : **ففى سن الخمسين تزوجت ملكا يصغرها بأربع سنوات ، ومع ذلك فقد استطاعت الاحتفاظ بقلبه طيلة ثلاثين عاما !٠٠ فى الوقت الذى لم تكن أجمل شابات المملكة يستطعن فيه الاحتفاظ بقلب لويس ثلاثين ليلة !**

وكانت فرانسواز وهى فى سن الستين ترقص فى حفلات الرقص المقنع وتخرج فى رحلات الصيد ، رغم اصابتها بآلام فى جميع مفاصلها !٠٠ وفى سن السبعين فقدت بصرها وسمعها وأسنانها ، ومع ذلك استمرت تخرج مع الملك فى زوارق الجندول ٠٠ وفيما كانت آلات الكمان تعزف فى فرساى كانت

هى تتمتم بين نوبات النعاس التى تعتريها : « ما أنا الا هيكل عظمى حى ! »

وفى الثمانين كانت ترافق الملك فى رحلاته السريعة بالعربة .. الرحلات التى كان يحاول أن ينسى بها انه بدوره قد بلغ السادسة والسبعين ..!

حب الدين .. وحب المرأة !

وخلال جميع فترات حياتها الحافلة بالمشاغل ، كتبت « مدام دى مانتنون » الكثير من النكات وعبارات الدعابة الخالدة فى اللغة والادب الفرنسيين حتى اليوم .. لكنها فى النهاية ودت لو تترك وشأنها كى تستريح فى قصرها الخاص بضـــيعة دى مانتنون .. ورغم ذلك فقد بقيت فى فرساى !.. **زعمت لنفسها أن عليها « رســالة مقدسة » هى أن تهـدى الملك المحتضر الى الله ، ولو عن طريق جعل لويس يتعلم كيف يحب الدين خلال حبه للمرأة التى وهبت نفسها للدين « فما المرأة الا المخلصة الخالدة للرجل ! »**

وكانت قد صارت أشبه بالشبح تنقل من فراش الى فراش ومن محراب الى محراب .. تقرأ لزوجها الانجيل فى ساعات ألمه وعذابه .. وليس أحوج الى الخلاص ، أو أشبه بالطفل الذى يستحق الرثاء ، من الرجل الذى ظل سيدا على جميع الناس ، عدا نفسه !

همس لها يوما وهو على شفا الموت :

ـ ماذا سيكون مصيرك ؟ لم يبق لك شىء !

فرسمت علامة الصليب وأجابت :

ـ انى لا شىء .. فكر فى الله وحده !

أدت رسالتها ٠٠!

◆ **وانزوت** فى دير سان سير ، الذى شيدته !٠٠ ان الدور الذى لعبته قد انتهى ٠ كانت قد بدأته وهى ترتدى ثياب الترمل السوداء ، وأنهته وهى ترتدى ثياب الترمل السوداء أيضا ٠٠ **قبل ثلاثين عاما رفعت الستار عنها وهى تدفن شاعرا ٠٠ واليوم أسدلت الستار عليها وهى تدفن ملكا !٠٠ ولم تضحك الا قليلا فى الفترة التى استراح خلالها حفارو القبور ٠٠!**

ورغم ذلك فحين زارها بطرس قيصر روسيا ـ خلال رحلة له فى ربوع فرنسا ـ وهى على فراش الموت ٠٠ سألها مواسيا :

ـ بأى مرض تموتين يا سيدتى ؟

ـ بالضحك ٠٠!

حيلة ملك

◆ كان ملك انجلترا هنرى الرابع مولعا بسن القوانين الاستثنائية الغريبة ٠٠ فسن قانونا يحرم على النساء ارتداء الذهب والمجوهرات !٠٠ لكن القانون بقى غير نافذ ، بسبب امتناع النساء عن طاعته ، فما كان من الملك الا أن شفعه بملحق يستثنى فيه من أحكامه العاهرات والنشالات ، ويجيز لهن التزين بالحلى !

وفى اليوم التالى لم تبق فى انجلترا امرأة تخالف القانون وتتحلى بالجواهر !

أقسى عقوبة !

◆ سأل أحد كبار المستشارين الانجليز زميله اللورد (راسل أوف كيلوين) : « ما هى أقسى عقوبة ممكنة على تعدد الزوجات ؟ »

فأجابه اللورد على الفور : « أن تصير للزوج حماتان!»

غرور دزرائيلى

◆ كان أحد المعجبين بالوزير الانجليزى الشهير دزرائيلى يغالى فى مدحه فى حديث له مع المتحدث اللبق جون برايت ، فقال مستطردا : « انك تستطيع أن تثق من كفاءته التى لانظير لها ، فانه عصامى قد خلق نفسه بنفسه ! »

فأجابه مستر برايت : « أعلم ذلك ، وهو يعبد خالقه ! »

«تشنيع» الابناء !

◆ تحدث أحد أبناء رئيس الجمهورية الامريكية القديم «تيودور روزفلت » فقال يصف أباه : «كان أبى يبغى دائما أن يكون محور انتباه الجميع ، فكان اذا حضر حفلة زفاف تمنى لو كان هو العريس ·· واذا حضر جنازة تمنى لوكان هوالميت ! »

غرور النساء

◆ ذهبت فتاة الى القس هيلى ، أحد مشاهير رجال الدين فى ايرلندة ، كى تعترف على يديه بخطاياها ·· فقالت له انها قد ارتكبت خطيئة الغرور !

فسألها القس : «وما الذى جعلك تعتقدين ذلك ؟»

فأجابته الفتاة الحسناء : « لانى فى كل صباح أنظر الى المرآة وأعجب بجمالى ! »

فقال لها القس ملاطفا : « اطمئنى يا ابنتى ، فليست هذه خطيئة ·· بل خطأ ! »

شعوب العالم وكيف تعيش - ١

تعال معى .. الى اسبانيا

هذه السلسلة ..

◆ ماذا تعرف عن العالم الذى تعيش فيه ؟.. عن بلاده ، وشعوبه ، واحوالهم ، وعاداتهم ، وآلامهم ، وآمالهم ؟ اننا لكى نتجوب مع اخواننا من البشر فى كافة انحاء الارض ، ولاسيما فى هذا العصر الذى صرنا جميعا فيه عالما واحدا ، نقطعه من اقصاه الى اقصاه فى يوم اوبعض يوم .. ينبغى أن نعرف عن البرازيل ، والهند الصينية ، واستراليا ، وبلادالاسكيمو ، وغابات الكونغو ، والنمسا ، وهولندا ، والسويد ، وامريكا الجنوبية .. الخ - مثل مانعرف عن بلادنا سواء بسواء ..!

فتعال معى نبدأ اليوم طوافنا حول العالم ، بهذه الرحلة الى .. « اسبانيا »

وهى فى الحقيقة رحلة مزدوجة ، بل رحلتان : احداهما الى المدينة الاسبانية ، وترويها لنا الكاتبة الانجليزية « جين جريجور » .. والثانية الى الريف الاسبانى ، وترويها لنا الرحالة العالمية « مرجريت ستين »

١ - نافذة تطل على اسبانيا

◆ كان الفندق الذى اخترته لاقامتى يقع فى حى متواضع من احياء مدينة (...) التى تمثل أكثرية المدن الاسبانية .. وكانت لغرفتى شرفة صغيرة من الطراز العتيق ذات قضبان

حديدية . أما الشارع الذى به الفندق فضيق - مثل الطابع الغالب على شوارع اسبانيا - بحيث لو وقفت فى الشرفة ومددت ذراعى لاوشكت ان ألمس المنزل المواجه !.. وهو منزل له خمس نوافذ صغيرة ، لاتحجبها ستائر . ومن ثم كان فى وسعى ان ارى خلالها حياة الاسبان على حقيقتها .. وقد يكون من غير اللائق أن أتطلع الى ماوراء النوافذ العارية ، لكنى لااستطيع مقاومة الاغراء !

ان البيت يبدو نظيفا ، وعاريا .. فالارض لايغطيها شىء من سجاد او ابسطة ، وخشب النوافذ غير مطلى باى دهان .. وفى وعاء ارى بضع ثمرات ذابلة من الطماطم .. والفراش غير مرتب .. والى جوار مقعد « هزاز » عتيق يقبع قط هزيل .. وفوق الفراش قد علقت مروحتان زاهيتا الالوان .. وبالقرب من النافذة تمثال صغير من الجبس لقديس الاسرة الحارس .. وهناك آنية عتيقة للازهار يرتفع منها غصن قرمزى واهن من « الجرانيوم » ..

ويقفز القط من النافذة الى السطح المنحدر ، وعند ركن السطح ارى بداية سلم حجرى عريض يؤدى .. الى أين ؟ فلأذهب لارى بنفسى ..

شعب متدين ..

◆ كان السلم يقود الى ميدان الكنيسة . وكانت الكنيسة قاتمة المنظر ، لكنها مليئة بالمصلين . وامامها جمع غفير - كخلية النحل - من المتعبدين ، الذين ضاقت بهم فجاءوا بمقاعد صغيرة من عندهم وجلسوا خارجها هكذا منذ السابعة صباحا حتى الآن ، الثامنة مساء !

فاذا مضيت الى أقصى الميدان وصعدت بضع درجات السلم الذى امامك ، وجدت نفسك فى الشارع الرئيسى ، المزدحم بالحوانيت .. بين حانوت يعرض فى واجهته حمالات البنطلون ، وآخر يعرض الشموع الطويلة التى تستعمل فى الافراح والجنازات .. وصيدلية تعلن على بابها : « هنا يباع البنسلين بالسعر الرسمى ! »

ثم يمتد الشارع بين صفين من المنازل الحجرية الغبراء القديمة ، والمقاهى الصغيرة .. وهنا وهناك مقاعد مستطيلة قرمزية ، تحف بها « براميل » نصفية مدهونة بنفس اللون ، زرعت بها شجيرات نصف ذابلة .. وقد جلس على هذه المقاعد عمال فى رداء العمل الازرق الكالح ، وعلى رؤوسهم « البيريه » .. لكن

على رؤوسهم الطير ايضا ، فهم صامتون ، منهوكو القوى من فرط التعب ٠٠ ولكن ليس الى الدرجة التى تجعلهم لايلاحظون امراة عابرة !

وهنا يقودك الشارع الى المركز الرئيسى للحركة التجارية ، وفيه ـ كما فى جهات اخرى من المدينة ـ تندر السيارات ، بل والدراجات ، وتكاد تقتصر حركة المرور على عربات الترام الحمراء والبيضاء ٠٠ التى تبدو اشبه بعربات اليد التى تباع عليها المثلجات !

لكن الاهالى يستعيضون عن نقص وسائل المواصلات بالمشى ٠٠ فهم يمشون ويثرثرون ٠٠ الفتيات الحسان فى ارديتهن الحريرية الزاهية ، والى جوارهن الرجال الذين يرافقونهن ـ والذين رايتهم اطول واقل سمرة مما توقعت ! ـ ثم الاطفال ، الذين مازالوا مستيقظين ، نشطين كوالديهم ، رغم ان الساعة الآن قد جاوزت التاسعة والظلام قد هبط منذ حين ٠٠

تذكارات اسبانيا التقليدية

◆ وتبدو المدينة اشبه بحديقة حيوان ازدحمت بالقردة والببغاوات ٠ والضجيج يتضاعف عشر مرات حين تضاء اقواس النصر بالاضواء الملونة ٠٠ لقد كنا فى اسبوع عيد من الاعياد الشعبية « الموسمية » كما ذكر لى صاحب الفندق من قبل ٠٠

وسواء اكان هناك عيد ام لا ، فان اكثر الحوانيت ماتزال مفتوحة ٠٠ ومن ثم ابتعت مقدارا من بسكويت « البتى فور » ، ومروحة جميلة ـ قرمزية مذهبة ـ سوف يحسدنى عليها نساء وطنى زمنا ، حتى بعد ان يزول اثر القبلات التى طبعتها شمس اسبانيا على وجنتى !٠٠ كما ابتعت « طرحة » عجزت عن مقاومة اغراء تطريزها المزخرف ، وبعض تحف خزفية رايت فى دقة صنعها وجمالها صدى لمجد اسبانيا وثرائها الغابرين !

ثم ينقطع التيار الكهربائى فجاة فتنطفىء جميع الانوار و « الزينات » ، وتتوقف حركة العيد نحو ربع ساعة ، ثم يعود التيار ٠٠ وتساورنى رغبة فى شراء حذاء احمر ، فانه يبدو انسب مايكون لاسبانيا ٠٠ واخيرا اعود ادراجى ، وذراعاى محملتان بالطرود والمشتريات ، نحو الفندق الذى اقيم فيه ، عبر

الطريق الضيق المزدحم .. فقد حانت الساعة العاشرة ، ساعة العشــاء فى اسبانيا . وأمر فى طريقى على عشرات من الحوانيت الصغيرة كالكهوف ، وقد جلس فيها ، على ضوء مصباح بترول صغير ، حائك يخيط ثيابا ، او اسكاف يدق نعلا ، او خياطة تلضم ابرتها .. الخ

واحس بخجل من ذراعى المحملتين .. يبدو لى حراما ان يشترى المرء مفاتن هذه البلاد الجميلة ، الفقيرة ، ويحملها كالغنيمة « المساوبة » من قوم يعجزون عن اقتناء التحف الجميلة التى يصنعونها !

بلاد غير مضيافة !

◆ وفى الفندق اشتبك فى مشادة صغيرة مع رئيس الخدم ، الذى يبـدو عليه الضيق والاستياء حين اذكر له رقم غرفتى باللغة البرتغالية التى اتقنها .. ويخيل الى ان اسبانيا ليست البلاد المضيافة التى تغالى فى الترحيب بزائريها .. ويعز على ان اكشف تامثمى فى اللغة الاسبانية لذلك المخلوق المتعجرف الذى تفيض نظراته احتقارا ، ومن ثم اطلب عشائى اخيرا بالانجليزية ، فى عـدم مبالاة ، تاركة اياه هو يتلعثم فى بضع الكلمات التى يعرفها من لغتى !

وبعد العشاء اصعد الى غرفتى ، لاجلس قليلا فى شرفتها .. ان المقهى القريب فيه جوقة موسيقى تعزف اللحن الرائع « فى سوق فارسية » .. لكن نصف المناضد ، المتناثرة تحت اشجار النخيل ، خالية من الرواد !.. واحاول ان انفق الوقت بمراقبة جيرانى فى المسكن المقابل .. هاهى امراة حافيـة القدمين ، ترتدى معطفا ، منهمكة فى غسل الاطباق . انها تبدو مكتئبة ، محطمة من التعب .. واحس فجاة بالندم على مشاكستى لرئيس الخدم اثناء العشاء !

◆ الليل يكاد الآن ينتصف ، وجوقة الموسيقى فى المقهى الموحش تعزف اغنية « ترى من الذى يقبلها الآن ؟ » .. وفى الشارع تحت شرفتى صبيان من صبية الطريق يطاردان احدهما الآخر على الرصـيف المتآكل ، وقـد استخفهما المرح ..

هواء الليل محمل بالرائحة الراكدة للمنازل العتيقة ، المليئة بالمعانى الانسانية ، وبرائحة الغبار الذى يتخلف فى الجو بعد نهـار قائظ من ايام اغسطس فى اسبانيا .. وتقبل فتاة تخفق خطواتها السريعة على ارض الطريق

.. ثم اسمع خفقاتها تصعد السلم الخشبى للمنزل المواجه ، واراها تشعل شمعة ، وبعد حين تاوى الى فراشها ، وتصلى .. لعلها احدى بائعات الحوانيت اللواتى عاملننى الليلة بغير ترحيب اومبالاة .. ومن يلومها على ذلك ، اذا كانت هذه هى حياتها ؟

ومن نهاية الشارع يحمل الى الهواء انغام ناى بعيد .. والى جوار مصباح من مصابيح الشارع نثر ضوءه الشاحب على سلة حديدية للمهملات ، وقفت فتاة من فتيات الليل ، فى ثوب ضيق من الساتان البنفسجى ملفوف على ردفيها باحكام .. كانت ماتزال يافعة ، يثير شبابها الاشفاق . وعلى ضوء المصباح الشاحب بدت حزينة ، وحيدة بين براثن الليل ...

وقدرت ماساتها .. انها فى رايى ترمز الى اسبانيا ذاتها .. الجميلة ، المعوزة ، الابية .. التى تمقت نفسها من اجل فقرها وحاجتها ، ولا تعزى نفسها باتخاذ خطوة ايجابية تخفف ما بها ، وانما تقنع بالانتظار .. تحلم بامجادها الغابرة ، وتنتظر ان تعود اليها من جديد !

ومرة اخرى ، لااملك نفسى من الشعور بانى محظوظة ، محظوظة لانى لااعيش هنا ، فى اسبانيا اليوم ، حيث الحياة قاسية ، والفقر يضاعف من وطاته قرينه ورفيقه الملازم : الاباء !

٢ - بلاد المفارقات العنيفة !

◆ والآن ، تعال معى نزور الريف الاسبانى ، بصحبة « مرجريت ستين » .. فنقرا معا هذا التحقيق الشامل الذى كتبته على اثر عودتها من بلاد الشمس الساخنة والعواطف الحارة :

كانت اول ملاحظة خرجت بها من رحلتى فى ربوع اسبانيا ، هى انها بلاد المفارقات الحادة والمتناقضات « العنيفة » .. فبين آلاف الافدنة من الاراضى القاحلة - التى كان الرى كفيلا بان يحيلها الى مناجم من الذهب - تقوم بضع المدن الكبرى المعدودة « كعلامات تعجب » او واحات ناشزة وسط القحط والعدم .. وفى ساعة واحدة بالسيارة تستطيع ان تنتقل من منطقة حارة « استوائية » الى منطقة شبه قطبية يكسوها الجليد ! وبين هذه وتلك تمر فى الطريق بقطعان الخنازير التى يرعاها غلمان حفاة ، وبالعربات البدائية التى

تجرها الثيران والبغال .. ثم اذا انت وسط مزارع الزيتون الشاسعة اليانعة ، وفجاة « تمزق » هذه المزارع المنبسطة منطقة صخرية ترتفع وسطها «كلدمل» ، وتقوم على كلا سفحيها مدينة صغيرة أشبه بالقلعة ، تتوجها كنيستها ذات القباب العالية .. فاذا خرجت من هذه المنطقة وجدت نفسك فى سهول تعلو وتنخفض ، كبحر لانهاية له ، تنتشر على امواجه هنا وهناك جماعات من الناس ، ثم تعود المساحات المجدبة الموحشة ، التى لاتعمر ارضها غير قطعان الماعز ، وسماءها غير اسراب النسور ..

◆ وانت تجد نفس المفارقة العنيفة فى اختلاف الطقس بين منطقة واخرى ، وبين فصول السنة فى المنطقة الواحدة ، فالشتاء غالبا قاس لكنه قصير الامد ، ولا وجود فيه للامطار والضباب والريح والسحب ، التى تعرفها البلاد الاوربية الاخرى ..

ثم تجد نفس المفارقة بين القسم الجنوبى من البلاد ، بنخيله ، وماشيته ، وزراعاته – التى تنتج احسن ليمون فى العالم ، فضلا عن الفواكه الاخرى الممتازة كالبرتقال والعنب – وبين الشمال بصناعاته الكبيرة الناشئة ، وصناعاته الصغيرة التقليدية ، كصناعة الشيلان المطرزة والامشاط التى هى من « لوازم » الغجريات والراقصات !..

بل ان لغة اهل الشمال تكاد تكون غير لغة اهل الجنوب ، وكلا الفريقين يعتز بلغته ويحتقر لغة الآخر !

فقر .. موجع !

◆ والمفارقة التالية التى تصدمك فى اسبانيا هى ان هذه البلاد ذات الثراء الخيالى الفاحش فى الماضى – ولاسيما أيام الفينيقيين وتجارتهم الزاهرة ومجدهم الغابر – هى بعينها اسبانيا التى تعيش اليوم فى فقر موجع ، محرومة من كل اسباب الترف .. فثلاثة ارباع اهل اشبيلية مثلا لايزيد دخل الفرد منهم على دولار فى اليوم .. وفى الريف قد تعيش المزارعة الاندلسية عاما كاملا لاتاكل اللحم خلاله اكثر من مرة ! وهى تعتمد فى غذائها الرئيسى على الحشائش المغلية وحبوب اللوبيا الجافة ، ثم (الكمثرى) التى تزرع هناك بكثرة .. واولادها يجرون عراة كالمتوحشين ، لكنهم رغم فقرهم اقوياء اصحاء ، وان كانوا نحيلين ضئيل الاجسام .

والفقر فى بلد أكثر اهله فقراء ، لايعتبر هناك عيبا ٠٠ فانت تجد القوم يتقبلونه باستسلام ، سيما وهم قد ورثوا عن اسلافهم المغربة ايمانهم بالقدر ، وواقعيتهم ، وطبيعتهم الساخرة ٠٠

لكن الفقر حين يشتد ويقسو فى بعض المناطق ، يغرى القوم باتخاذ الجريمة وسيلة « مشروعة » للعيش ! لذلك تجد لكل نافذة هناك قضبان حديدية ، ولكل باب رتاجا ضخما محكما ٠ وارباب الاراضى فى الريف يحمون املاكهم باقتناء الكلاب المتوحشة !

ومن أسباب الفقر ندرة الماء فى بعض مناطق الجنوب الجرداء ، حيث يكلف الحصول على زجاجة من ماء الشرب النقى نفقات اغلى من ثمن لتر من النبيذ !

نساؤها ينفقن على رجالها !

◆ والمفارقة التالية التى تدهشك فى اسبانيا ان هذه البلاد المعروفة بانها ارض الاعتزاز بالرجولة الى درجة المغالاة ، والتى تغلب فيها سيطرة الرجل ، سواء فى الشارع ، اوالمقهى ، اوالمسرح ٠٠ وفى النظرة ، والتحية ، والعلاقات العائلية ٠٠ هى بعينها اسبانيا التى ترى فيها نساء الطبقة العاملة الكادحة يتولين اعالة ازواجهن وابنائهن ، بينما هؤلاء يلهون فى الكازينو او المقهى ، اويتسكعون فى الطرقات !٠٠ فالمراة من هؤلاء تشتغل بغسل الثياب ، اوتخرج مع شروق الفجر كى تجمع الكمثرى ، او تعمل خادمة فى البيوت اثنى عشر ساعة كل يوم ، مقابل عشرين شلنا فى الشهر !٠٠ وهى تفعل ذلك وتضحى بكل شىء راضية ، كى تنفق على رجلها الذى يابى ويستكبر ، مستنكفا كل عمل شريف ، قانعا بان يرتدى احسن الثياب ويخرج ليتسكع فى الشوارع طيلة النهار طاويا امعاءه على قدح من القهوة وسيجارة ٠٠ حتى اذا هبط الليل تسلل - من الباب الخلفى - الى المنزل الذى تعمل فيه قريبته خادمة اوطاهية ، كى يلتهم بقايا وجبات الطعام التى احتالت المراة على اخفائها وحجزها خصيصا من اجله !

وهؤلاء العاطلون المتانقون الذين يعيشون عالة على النساء هم طاعون اسبانيا الحديثة ، ولاسيما فى الجنوب ٠٠ وهم شبان من جميع الطبقات : الفقراء منهم يفضلون الموت جوعا على كسب العيش بالعمل ٠٠ والذين

ينتمون الى اسرات غنية أو مقتدرة يقنعون بالعيش عالة على ذويهم !.. وهم من الكثرة بحيث لاتغفلهم عين السائح ، التى لا تغفل ايضا من مظاهر الحياة الاسبانية قبائل الغجريات اللواتى يعشن فى مستعمراتهن ، فى غرناطة او ضواحى اشبيلية ، او يتجولن فى عرباتهن فى مسالك الجبال .. والى جانب هؤلاء وأولئك يصادف زائر اسبانيا من مناظرها التقليدية فئة المتسولين العميان الذين يتجولون بقيثاراتهم فى كل مكان يلتمسون الصدقات .. ولا ينافسهم فى الكثرة غير باعة الحلوى ، وعقود الياسمين ، والمياه الغازية .. ثم أوراق اليانصيب ، التى تربح منها الحكومة دخلا هائلا !

الرجل يعشق النساء .. والمرأة تعشق الرقص

◆ والرجل الاسبانى يعشق فى شبابه النساء .. فاذا تقدمت به السن عشق العزف على القيثارة وحضور حفلات مصارعة الثيران ، التى هى رياضة اسبانيا القومية .. أما المرأة الاسبانية فتعشق الغناء والرقص اكثر من اى شيء آخر فى الوجود .

واللعبة القومية التالية لمصارعة الثيران فى اسبانيا هى «الباسك» ، التى يلعبها كل رجل فى القرية : من العمدة ، والقسيس ، وناظر المدرسة .. الى أصغر صبى من صبية الشارع الاشقياء ! .. وعلى ذكر شقاوة الصغار فان الطفل الاسبانى يعتبر أشقى طفل فى العالم ، بحيث لا يتورع عن القاء الاحجار على الناس !.. لكنه لا يكاد يبلغ سن المراهقة حتى يتحول فجاة الى «جنتلمان» مثالى ، يتحلى بآداب سلوك جميلة ، يستوى فى ذلك ابناء الطبقات الرفيعة والوضيعة على السواء !

واذا اردت ان تبعث فى اعماقك ذكرى مجد اسبانيا الغابر فحسبك ان تلحظ ماسح الاحذية وهو يرفع نحوك وجهه الذى يذكرك فورا بوجوه نبلاء اسبانيا القدامى ، او تتامل محيا اى صبى قذر وهو يحدق فيك بعينين كاللتين تطالعانك من احدى لوحات «فاليسكويز» الخالدة !

اما اذا اردت أن تجمع فى اسبانيا ثروة من التسول ، فينبغى ان يكون لك ظهر احدب ، فالاسبان يتبركون بلمس ظهر الاحدب .. وفى سبيل ذلك لا يبخلون عليه بمال !

الحياة قصة

روائع القصص العالمى

عزيزى القارىء ...

قرات معى فى الاعداد السابقة من (كتابى) ـ فى هذا الباب ـ القصص الاتية على التوالى : «اموك» او (غرام تحت سماء الشرق) لستيفان زفايج .. و«شجرة التفاح» او (قلب عذراء) لجون جالزورثى .. ثم «مرتفعات وذرنج» لاميلى برونتى .. تليها «التلميذ» او (عندما يضل الشباب) لبول بورجيه .. «فاحدب نوتردام» لفيكتور هوجو .. و«جريمة حب» لبول بورجيه ايضا .. و«جين اير» لشارلوت برونتى .. و «ايام بومبى الاخيرة » للورد ليتون .. ثم « مانون ليسكو » للاب بريفو ..

واليوم اقدم لك فى الصفحات التالية هذه القصة العالمية التى لم تترجم الى العربية من قبل : « حديقة الله » تليها فى الاعداد التالية من كتابى باذن الله : « عندما تحقد المراة » للكاتب المعاصر جورج أونيه ، ثم قصص : سافو (الفونس دوديه) البؤساء (فيكتور هوجو) غادة الكاميليا (ديماس) مدام بوفارى (فلوبير) الامطار (زلة قديس) لسومرست موم. نانا (اميل زولا) تاييس (اناتول فرانس) الجريمة والعقاب (دستوفسكى) الحرب والسلم (تولستوى) .. الخ

روبرت هيتشنز

حديقة الله

القصــــة .. والمؤلف

◆ ما من قصة طويلة لقيت من النجاح الباهر السريع بمجرد صدورها ، واحتفظت بمكانتها منذ ذلك التاريخ ، مثل هذه القصة « حديقة الله » ، التى ظهرت سنة ١٩٠٥ ، والتى يمكن ان يقال انها اسست بظهورها ((مدرسة)) القصة الانجليزية التى تعتمد فى جاذبيتها على ((جو)) الصحراء !.. لكن فى هذه القصة الى جانب هذا الجو والى جانب حوادثها الشائقة عنصرا آخر من عناصر الجاذبية ، هو اثارتها للمشاعر وشغلها للاذهان بما تعرضه فى طياتها من المشكلات الانسانية ((الحادة)) التى ما فتىء حلها مستعصيا ، على رجال الدنيا والدين !

◆ و((روبرت سمايث هيتشنز)) - مؤلف القصة - كاتب انجليزى ولد فى ((سبلدهرست)) بانجلترا فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٦٤ .. وبعد ان انفق سنوات فى الدراسة والاستعداد لاحتراف الموسيقى ، الفى نفسه ميالا الى الانسياق فى اتجاه آخر ، هو الصحافة !

وقد كتب ونشر قصته الطويلة الاولى وهو بعد فى السابعة عشرة ثم استانف ممارسة هوايته المفضلة فى سن التاسعة والعشرين (بعد هجره لدراسة الموسيقى) حين استيقظ الروائى فى أعماقه من جديد فكتب قصته الثانية الساخرة ((القرنفلة الخضراء)) ، التى كانت بداية لسيل موفق من القصص الطويلة والقصيرة ، من أروعها ((حديقة الله)) ثم ((بيلا دونا)) (التى أشار اليها المحامى الانجليزى الكبير مارشال هول فى غضون مرافعته عن ((مرجريت فهمى)) ، كما ترى فى مكان آخر من هذا العدد) .. هذا وتتميز قصص هيتشنز عموما بطابع الشرق الغامض الذى يغلب على اكثرها ، وبالاخص هاتين القصتين اللتين نحن بصددهما ..

١ - أرض السلام

◆ نحن فى « فندق الصحراء » ببلدة (بنى مورة) - احدى بلدان القسم الجنـــوبي من بلاد « الجزائر » - ذات أمسية من

أمسيات الخريف الفاترة ، وقد اتكأت «دومينى انفلدين» على جدار شرفة الفندق الكبرى ، ترنو ببصرها الى الصحراء الهائلة ، التى أضاءها جلال المغيب ٠٠ بينما يسمع من بعيد رنين جرس احدى الكنائس ، يختلط فى الآذان بخفقات «الطبل البلدى » فى قرية قريبة !

كانت «دومينى» ماتزال متعبة من أثر رحلتها الطويلة التى قدمت فيها من انجلترا ، لكنها وقفت مع ذلك ترقب وتصغى ، بينما زحف الغسق ببطء بين أشجار النخيل ، وأظلمت الممرات الرملية شيئا فشيئا ٠٠

انها فى الثانية والثلاثين ، امرأة يتيمة ، لم تتزوج ، قوية الشخصية ، لاتعرف الخوف ، حارة العواطف ، لكنها شديدة التدين والتمسك بتعاليم مذهبها الكاثوليكى ٠ **وكانت قد مرت بمحنة نفسية مريرة فى شبابها ، وهى فى التاسعة عشرة ، حين فرت أمها « ليدى رينز » مع موسيقى هنغارى – رغم انتمائها الى أسرة من أعرق أسر انجلترا الكاثوليكية ! – تاركة زوجها اليائس ووحيدتها التعسة يبكيان عارها ويندبان حظهما !**

وكان الزوج المهجور – لورد رينز – قد اعتنق مذهب زوجته حبا فيها وشغفا بارضائها ، فلما هجرته نبذ ايمانه محنقا ومات بعد زمن مارقا من رحاب الدين ٠٠ بل انه خلال السنوات التى سبقت وفاته حاول عبثا أن يصرف ابنته عن مذهب أمها الخاطئة ٠٠ لكن دومينى عرفت كيف تصمد وتقاوم ، وان كانت التجربة القاسية قد عصفت بسكينة نفسها وهزت روحها وجسمها هزة عنيفة ٠

والآن ، وقد انفردت فى دنياها – بعد وفاة أبيها ثم أمها الضالة – فقد وجدت نفسها مدفوعة بقوة لاتقاوم الى مغادرة انجلترا ، كى تبدأ صفحة جديدة من حياتها بعيدا عن مسرح تعاستها ومأساتها ٠٠

وفى غموض ، انثال الى ذهنها وهى تفكر فى الرحيل خاطر بعيد ٠٠ حلمت بالصحراء الواسعة التى أطلق عليها العرب « حديقة الله » ، باعتبارها موطن السلام والسكينة المباركة !٠٠ فقطعت هذه المسافات الطائلة بحثا عن ذلك السلام وتلك السكينة ٠٠

وعلى أبواب الصحراء ، التقت يوم وصولها بمسافر يدعى « بوريس اندروفسكى » ٠٠ وكان رجلا فى نحو السادسة والثلاثين ، قوى البنيان ، قد لوحت الشمس وجهه ٠٠ التقت به وهى تهم بركوب القطار فى محطة « الاقبرة » ، حين اندفع ليسبقها الى الركوب عند بدء تحرك القطار فكاد يصطدم بها ، بل كاد يعرضها للسقوط تحت العجلات ! ومع ذلك فانه لم يمد يدا لمساعدتها على الصعود ، بل لم ينطق بكلمة اعتذار ٠٠!

وقد أحنقتها فظاظته ، وكادت تخرجها عن طورها ٠٠ لولا أن شيئا قويا ، حزينا ، عاطفيا ، ومخلصا ، فى شخصية الرجل قد شفع له وأثار عطفها ٠٠!

وهكذا وصل الاثنان الى الصحراء معا ، صامتين ، غريبين ، بل شبه عدوين ٠٠ وهاهما الآن يقيمان فى فندق واحد ، فى هذه الواحة الصغيرة التى تتخلل الصحراء !

لكن دومينى لاحظت أمرا غريبا قبيل وصولهما الى الفندق ٠ كان أندروفسكى يتقدمها فى السير ، خلال المتنزه الطويل الذى يتوسط الطريق ، يصحبه دليل يرشده ويحمل عنه حقيبته ٠٠ حين ظهر من بعيد شبح أسود لراهب (بنى مورة) يتقدم فى اتجاههما ببطء ، **فلم يكد أندروفسكى يلمح رجل الدين حتى توقف فجأة ، وبدا عليه التردد ، والحيرة ، ثم استدار متخذا طريقا جانبيا آخر يجنبه لقاء الراهب ٠٠ وأوسع من خطاه كمن يلوذ بالفرار من شبح مخيف !**

والآن ، وعتمة الغسق تشمل الكون وتطبق على الصحراء الرهيبة الممتدة أمامها ، تذكرت دومينى تلك الواقعة ٠٠ وحين سمعت وقع خطوات اندروفسكى الثقيلة على سلم الشرفة ، ثم الحركة العنيفة التى أغلق بها نافذة غرفته ، أحست المرأة بشعور غريب من القلق الغامض !

◆ فى اليوم التالى مضت دومينى لترى حديقة رائعة على حافة الصحراء ، يملكها ناسك ايطالى يدعى الكونت «انطيونى» ، وكان صديقا للعرب يلذ له أن يقضى بينهم جانبا كبيرا من وقته ٠٠ وهناك ، فيماهى واقفة مع الكونت بجوار سور الحديقة ، ومؤذن القرية القريبة يؤذن لصلاة الظهر ، وقع بصرها على «أندروفسكى» يسير فى الصحراء مع رجال من أهل البادية ٠٠ وفى تلك اللحظة ارتفع صوت المؤذن يشق السكون الشامل ، فخر البدوى على ركبتيه يؤدى فريضة الصلاة ٠٠أما اندروفسكى فقد أجفل ، واضطرب ، ثم تراجع واستدار مبتعدا فى خطى سريعة ٠٠ كمن أفزعته رؤيا مخيفة !

والتفتت دومينى الى الكونت قائلة : « أرأيت كيف فر الرجل هاربا من الصلاة ؟ لقد كانت حركة فظة من جانبه !»٠٠ فأجابها الكونت فى لهجة توحى بخطورة الامر : « الرجل الذى يخشى الصلاة يكون حمقا منه أن يضع قدمه خارج أشجار النخيل التى تحد الواحة ٠٠ فان الصحراء هى حديقة الله ! »

❖

وفى ذلك المساء تبادلت دومينى وأندروفسكى الحديث لاول مرة ، فوق قمة برج صعدا اليه ليمتعا بصرهما بمنظر الغروب الساحر ٠ وكانت دومينى هى البادئة بالكلام ، مدفوعة بتأثير عطف خفى أثارته فى أعماقها نظرة لاحت فى عينى اندروفسكى ٠٠ نظرة توحى بالوحدة والوحشة المثيرتين للاشفاق !

وأجابها هو بصوت خفيض ٠٠ ثم سألها أن تغفر له

مسلكه الخشن فى المحطة يوم لقائهما الاول ٠٠ قال ذلك ثم تركها بحركة مفاجئة وهبط سلم البرج بسرعة ٠٠ مختفيا عن الانظار !

وفى تلك الليلة ذهبت دومينى الى مرقص وطنى لترى رقصات الصحراء التى تثير فضول الاجانب فى بلاد الشرق ٠٠ وهناك وجدت أندروفسكى جالسا يحدق فى الراقصات الخليعات ، نصف مبهور ، ونصف مذعور ، من اغرائهن !٠٠ وفجأة وقع ماكدر صفو رواد الملهى وأثار هرجا ومرجا فظيعين : فان راقصة تدعى «ايرينا» ـ كانت قد نفيت من بنى مورة من قبل لتهديدها اعرابيا بالقتل ، غيرة عليه !٠٠ ثم سمح لها بالعودة فيمابعد ـ عثرت على غريمها الآن بين الحاضرين ، فطعنته من فورها بخنجر طعنة قاتلة !

وخلال الاضطراب المخيف الذى ساد المكان عقب الحادث ، شق اندروفسكى طريقه وسط البدو الذين تزاحموا على القاتلة ، حتى استطاع أن يصل الى مكان «دومينى» فيحميها من وطأة الزحام الخانق والشجار الحامى الذى نشب فى الملهى على الاثر ٠٠ ثم خرج القوم بالجانية الى مخفر الشرطة ، وأقفر المرقص من رواده جميعا فلم يبق فيه غير الاجنبيين الغريبين ٠٠

وفى تلك الليلة أصر اندروفسكى على مرافقة دومينى الى الفندق !

٢ ـ شكوك ٠٠ وريب !

◆ **وبمرور** الايام أينعت الصلة التى بدأت مصادفة بين الغريبين ، وتطورت الى صداقة محببة ٠٠ وكانت دومينى فارسة بارعة فى ركوب الخيل ، فلما تبينت أن اندروفسكى يجهل هذه الرياضة الممتعة تطوعت بتدريبه عليها ٠٠ **فصارا يركضان معا بجواديهما عبر رمال الصحراء ٠٠ ويزوران معا**

قرى الصحراء المختبئة بين أشجار النخيل وراء أسوار الواحات السمراء المبنية من الطين والآجر ٠٠ ثم يرقبان معا منظر الغروب « الافريقى » الساحر ، حتى يختفى قرص الشمس المخضب بالدم فى جوف ذلك النعش البعيد : الافق !

وفى أوقات الطعام كان الاثنان يلتقيان فى الفندق ، وفى الامسيات يجلسان فوق سور الشرفة لينصتا الى زقزقة الطيور البرية والحشرات ٠٠ والى دوى الطبول البعيدة التى تدق فى ملاهى القرية ٠٠

وشغفت دومينى بصاحبها اندروفسكى ، لكن شغفها كانت تشوبه دهشتها من غرابة أطواره ، وخشونة مسلكه ، وتذرعه بالصمت الغامض فيما يتعلق بماضيه ، وجهله الواضح بالحياة والمسائل الاجتماعية ، وارتيابه فى الناس ، وحرصه على الانطواء على نفسه وتجنب البشر جميعا ، ماعداها هى !٠٠ كل هذه الامور وسواها ظلت فى نظر دومينى ألغازا مستعصية على الحل !٠٠

وذات يوم غادر الكونت أنطيونى بلدة « بنى مورة » ليقوم برحلة صحراوية طويلة الى مدينة مقدسة تدعى «أمارا»٠٠ فتوجهت دومينى الى حديقته عند الفجر لتودعه ٠ وقبل رحيله حذر دومينى وطالبها بأن تأخذ حيطتها من اندروفسكى ! فلما سألته عن السبب قال لها ان أندروفسكى يبدو فى نظره رجلا لايعيش فى سلام مع الحياة ، أو مع نفسه ، أو حتى مع خالقه !

فلما رحل انطيونى أحست دومينى بآثار بلبلة ذهنية تتناهب فكرها ، وبشوق الى من يمد لها يد العون ويغمرها بعطفه ٠٠ فخطر لها أن تزور الراهب فى بيته المجاور للكنيسة ٠ **وكم كانت دهشتها حين حذرها هذا بدوره من صاحبها أندروفسكى ، ثم صارحها فيمابعد بأنه يحس نحو الرجل بنفور لا قبل له بمقاومته ٠٠ وأضاف رجل الدين : « لست**

أعرف سببا أفسر به هذا النفور ، سوى شعورى الغريزى !٠٠ لكنى أرى من واجبى أن أنصحك مناشدا اياك فى حرارة أن تقطعى صلتك بمسيو أندروفسكى هذا ! »

وتركت تحذيرات الكونت أنطيونى والراهب أثرا عميقا فى نفس دومينى ٠٠ وأدركت على هديها بأية عين سينظر الناس الى صلتها بأندروفسكى ٠٠ فخيل اليها فجأة كأنها ترى صاحبها هذا شخصية غريبة غامضة من شخصيات القصص والاساطير ٠٠ لكأنه « اليهودى التائه » الذى التقى به المسافر عند مفرق الطرق ، فميز ملامحه لحظة على ضوء ومضة خاطفة من ومضات البرق !٠٠ أو كأنه «الاعرابى الملثم» بطل تلك الاقصوصة من أقاصيص الشرق ، الذى كان يتنبأ بالكوارث العتيدة أن تصيب رواد الصحراء ، فيدق لهم دقات الموت على طبلته ، وسط الرمال ، انذارا وتحذيرا !

وأحست دومينى كأن يدا ثقيلة تجثم على صدرها ٠٠ يد قدر غريب ، رهيب ، يتربص بها !

٣ ـ انشودة الحب الخالدة

◆ فى تلك الليلة بعينها امتطت دومينى جوادها وانطلقت الى الصحراء لترقب شروق القمر ٠٠ وهناك التقت بأندروفسكى ، الذى لحق بها بجواده ٠٠ فلما انفردا فوق الرمال فاجأ اندروفسكى صاحبته بأن عنده شيئا يريد أن يفضى به اليها : انه

راحل عن (بنى مورة) اذاكان الصباح !

وكان وجهه ، وهويقول هذا ، مشيحا عنها ·· وبدا صوته كأنما يتحدث الى شخص بعيد ، شخص يستطيع أن يسمع ما لايسمعه البشر !

ولم تطل دومينى فى الحديث ، **لكنها أحست لكلماته صدى بدا لها معه كأن كل معالم الاشياء الخارجية التى عرفتها فى حياتها قد غرقت فى لجة العدم ، وغرقت معها جميع المشاعر الجسمانية الدنيوية التى كانت قوام حياتها !··** والصحراء التى طالما أحبتها ، لم تعد فى نظرها نفس الصحراء ·· برمالها النابضة بالحياة ، وصفحتها المنبسطة الزرقاء ، التى تنبعث منها أنغام وموسيقى حالمة ·· وانما غدت مجرد مساحات ضائعة من الارض الموات ، العقيمة الجرداء ، التى تتألف ذراتها من رفات وعظام ملايين الكائنات التى تحللت بعد الموت !

وحين قفلت دومينى وأندروفسكى راجعين الى الفندق فى ختام ذلك اللقاء ، كانا أشبه بجثتين قد شدتا فوق صهوة جوادين ·· فقد ران عليهما صمت كصمت القبور !

لكن هذا الفراق الذى رسماه فى تلك الليلة ، قدر له أن لايتم !··ففى رحاب الصحراء نمت ليلتئذ عواطف هذين المخلوقين التعسين ، فتحابا حبا ألهب الدماء فى عروقهما !·· وحين مضى اندروفسكى فى اليوم التالى الى حديقة الكونت أنطيونى ليودع دومينى ، حطم حبه كل الحواجز والحوائل ·· فتهاوى أمامها على ركبتيه ، تاركا راحتيه تنزلقان على جسد المرأة ، حتى تشبثتا بركبتيها ·· وهتف بها :

ــ أحبك !·· أحبك ، ولكن لاتصغى الى ! يجب أن لا تسمعى ما أقول ، يجب أن لاتسمعيه ، لكنى يجب أن أقوله ·· لن أستطيع أن أرحل حتى أقوله ·· انى أحبك !·· أحبك !

ــ أنا مصغية ·· يجب أن أسمع ماتريد أن تقول !

ونهض ٠٠ فوضع ذراعيه خلف ظهرها ، وجذبها اليه ٠٠ وأطبق بشفتيه على شفتيها ، وهو يضغط بدنها الرخص لصق جسمه القوى ، ويهصرها بين ساعديه ٠!

وغمغم وفمه يذرع شفتيها : « اذن اسمعى الذى أريد أن أقوله : أحبك !٠٠ أحبك ! »

وفى أقصى الحديقة ، كان البستانى العاشق يعزف على نايه الصغير لحن هواه المشبوب ٠٠ ومن أعماق الصحراء ، وراء سور الحديقة الابيض ، كان اعرابى يرفع صوته بموال من مواويل البدو الجميلة : « ماحد يعرف اللى فى قلبى ٠٠ غير الله ، وغيرى ! »

٤ ـ شهر عسل ٠٠ فى الصحراء

◆ **بعد** تلك الليلة « الحاسمة » بأيام ، تزوجت دومينى واندروفسكى فى كنيسة (بنى مورة) ٠٠ وكان الذى عقد قرانهما نفس الراهب الذى حذر دومينى من صاحبها وطالبها بقطع صلتها به !٠٠ وأثناء حفل الزواج كانت عاصفة رملية عاتية تزأر فى الخارج وتحجب السماء برمالها السافية ٠٠ ومع ذلك ، لم يكد الحفل ينفض حتى تسلق العروسان سنمة جمل وانطلقا فى موكب من أتباعهما الى حيث يقضيان شهر العسل فى الصحراء !٠٠

وكما يفعل البدو الرحل المنعزلين عن كل من يعرفونهم ، المتحررين من كل قيود الروابط الاجتماعية ، الذين يقضون حياتهم ويقيمون خيامهم وسط الرمال الشاسعة المحرقة ٠٠ دلفت دومينى واندروفسكى الى حياتهما الزوجية ٠ وأحست دومينى بسعادة غامرة لعل قليلين قد تذوقوا مثلها ، فقد أحبت حبا كاملا ، ووثقت ثقة كاملة ، وعاشت ملء حياتها كما لم تعش من قبل !٠٠ وكانت تعرف أن اندروفسكى يكاد يعبدها مثلما يعبد الوثنى صنمه الوحيد ٠٠ وكان مسلكه معها مثاليا ،

لاتشوبه شائبة ٠٠ ومع ذلك ، كانت تمر بدومينى أوقات تحس فيها كأن ظلا خفيا يقوم بينهما ! بل كأن اندروفسكى يطوى قلبه ، فى ركن قصى منه ، على سر يزعجه ويقض مضجعه !٠٠ كأنه يقاسى أحيانا ويتألم ، دون أن يجرؤ على البوح بآلامه !

وذات يوم ، خلال تجوالهما ، وصلا الى مكان مقفر موحش يطلقون عليه «موجار» ، فأقاما خيامهما على تل رملى يشرف على محيط شاسع من الكثبان ٠٠ وقرب المساء هبط اندروفسكى الى السهل ليصطاد غزالا ، تاركا دومينى بمفردها ٠ وأثناء غيبته ، لجأ الى الخيمة ضابط فرنسى ـ يدعى تريفنياك ـ كان قد ضل طريقه خلال عاصفة رملية ثلاثة أيام بلياليها ٠٠ فأكرمت دومينى وفادته ودعته الى البقاء لتناول العشاء ، فلما عاد زوجها ورأى الضيف ، بدا عليه وجوم مفاجىء عجز عن اخفائه ، وحدق الرجلان كلاهما فى صاحبه لحظة ٠٠ ثم جلسوا ثلاثتهم الى المائدة فى جو يسوده الحرج ٠ كان واضحا على اندروفسكى القلق ، بينما بدا الضابط شاردا ، يراقب مضيفه من طرف خفى !٠٠ فلما انتهى العشاء تركت دومينى الرجلين يدخنان ويشربان كأسا من الخمر المعتقة ، ومضت هى نحو نار قريبة أشعلها أتباعهما من الاعراب وجلسوا حولها ينشدون أغانيهم الجميلة ٠٠

لكنها حين عادت الى الخيمة بعد فترة من الوقت ، ألفت زوجها بمفرده فيها ، واقفا فى وسطها وقد تناثرت حوله شظايا زجاج محطم ، هى كل ما بقى من زجاجة الخمر !٠٠ أما الضابط الضيف فلم يبد له أى أثر !

وعبثا حاولت دومينى أن تظفر من زوجها بأى ايضاح !

❖

وقضت دومينى تلك الليلة ساهرة ، حائرة !٠٠ وقرب الفجر خرجت تتمشى وتستنشق نسمات من هواء الفجر ترطب بها أعصابها ٠٠ فالتقت ـ لدهشتها ـ بالضابط المختفى

تريفنياك ، منطلقا بجنوده الى بعيد .. فلم يكد يراها حتى توقف وحياها ، وقد بدا فى عينيه مزيج من الذعر والرثاء .. ثم انحنى من فوق صهوة جواده فرسم على صدرها علامة الصليب ، كمن يرجو أن يغفر الله لها ! وانطلق فجأة بجواده ينهب الصحراء !

٥ - السر ينكشف !

◆ **ومنذ** ذلك اليوم تضاعفت تعاسة اندروفسكى النفسية الغامضة ، ونفوره الشاذ العجيب من الناس والمجتمعات .. وأحست دومينى أنه يتألم فى سره ألما شديدا ، فحاولت بكل طاقتها أن تسعده .. بل صارحته باعتقادها أنه يؤمن فى قرارة نفسه ببعده عن الله ! وقالت انها تصلى من أجله كل يوم .. ثم أضافت : « بوريس .. اذا كان استنتاجى هو الصحيح فلا تبتئس ، فقد تنصلح الحال فى جو الصحراء الذى نعيش فيه .. فالصحراء كما تعلم هى حديقة الله ! »

لكنه لم يجبها بحرف !

وأخيرا بلغا من جولتهما تلك المدينة المقدسة المدعوة «أمارا» فنصبا خيامهما فوق الرمال البيضاء التى تنبسط وراءها ، وهناك عرفت دومينى أن حبها فى طريقه الى أن يكتمل ، وانها سوف تصبح أما !

وترددت فى مكاشفة زوجها بالنبأ .. فان شقاءه الموجع ، وارتيابه فى البشر جميعا ، وخوفه من الناس .. كان كله قد تفاقم حتى بلغ درجته القصوى !.. ورغم ذلك فانه ، فى نوبة من نوبات محاولاته العقيمة للتغلب على عذابه النفسى ، غادر الخيمة قائلا لزوجته انه يريد أن يقوم بجولة يرى فيها معالم المدينة ..

وأثناء غيبته ، فوجئت دومينى بزيارة من الكونت انطيونى ، الذى ذكر لها أنه قد اعتنق الاسلام ، وانه قد وجد أخيرا السعادة وسكينة النفس اللتين كان ينشدهما ..

وبعد خروجه ، وحين هبط الليل ، أقبل على خيمة دومينى زائر آخر هو كاهن مدينة «أمارا» • وكان الرجل ثرثارا لطيف المعشر ، مولعا بأطايب الحياة •• وقدمت له دومينى سيجارا ، فقبله • وأحضر له اعرابى القهوة ، تعقبها زجاجة الخمر الخفيفة الفاتحة للشهية (الليكور) ، وكانت من نفس النوع «الافريقى» الذى حطم اندروفسكى زجاجته فى تلك الليلة التى تعشى فيها مع ضيفه الضابط تريفنياك •• لكن الكاهن لم يكد يهم بشرب جرعة منها حتى أطرق فجأة ووضع الكأس جانبا !•• فسألته دومينى : « ماذا ، ألا يعجبك هذا الصنف ؟ »

فأجاب الكاهن ، فى تردد : « الواقع ياسيدتى أن هذا (الليكور) يصنع فى دير « اللرجانى » القريب من هنا •• »

ـ حقا ؟

ـ نعم ، وقد صنعه راهب احتفظ بسر صنعته على أن لايبوح به الا قبيل موته ، حيث يعهد به الى خلف له يختاره بنفسه • لكن رهبان دير اللرجانى لن يربحوا فرنكا واحدا من هذا المورد حين ينفد المدخر لديهم من هذه الخمر !

ـ لماذا ؟ هل مات الراهب فجأة قبل أن يبوح بالسر ؟

ـ بل انه قد فر ياسيدتى من الدير بعد أن عاش بين جدرانه عشرين عاما ، وبعد أن أقسم يمين الرهبنة الابدية !

ـ ياللفظاعة ! لابد أن هذا الرجل فى الجحيم الآن •• فى الجحيم الذى يخلقه الانسان لنفسه بأعماله ••

•• وفى هذه اللحظة ظهر اندروفسكى عند باب الخيمة ، وكان بادى المرض والاعياء ، واليأس ، على صورة مخيفة •• وحين انصرف الكاهن روت له دومينى قصة الخمر المعتقة والراهب الفار من الدير ، فشحب وجهه وهى تتكلم •• ووقف متصلب الاطراف ، بادى الصرامة !

وختمت الزوجة قصتها قائلة : « ياللرجل المسكين !» ••

فغمغم اندروفسكى :

ـ أنت تعطفين اذن على الرجل ؟

ـ نعم ، كلمافكرت فى العذاب المروع الذى لابد يعانيه الآن اذاكان على قيد الحياة !

بدا على اندروفسكى تأثر عميق ، يوحى بأنه على وشك أن يطلق العنان لنوبة حادة من نوبات انفعاله ٠٠ فهتف بدومينى صوت نابع من أعمق أعماق قلبها المحب : « اذا كنت تحبين حقا ، فلتكونى شجاعة ٠٠ هاجمى الاسى الذى يقف مثل شبح الموت بينك وبين زوجك ٠٠ اطرديه بعيدا ٠ وفى يدك سلاح لايخيب : الايمان ٠٠ فاستعمليه ! »

أخيرا استنجدت المرأة بكل شجاعتها ، وكل ايمانها ، فانتزعت من اندروفسكى الاعتراف بالسر الذى كان يقض مضجعه ويشقيه شقاء متصلا مروعا ، حتى وهو مستمتع بحريته ، حتى وهو بين أحضانها ٠٠ هى التى أحبها حبا يفوق كل وصف !٠٠ فهتف بها أخيرا وقدانهارت مقاومته : «دومينى ٠٠ تريدين أن تعرفى الشىء الذى يشقينى برغم حبنا ، شقاء رهيبا الى درجة اليأس ؟ انه هذا : **انى رجل مؤمن بالله ، أحب الله ، وقد أغضبط الله ! ٠٠ حاولت نسيانه ، بل حاولت انكاره ٠٠ بتغليب الحب الارضى الزائل على حبى اياه !٠٠ لكنى عبثا حاولت التخلص من الحاح تفكيرى فيه ، الـــذى يطاردنى بلا هوادة ، ويلقى بى فى هاوية اليأس !**٠٠عندماكنت فى صدر شبابى منحت نفسى لله منحا باتا ٠٠ وهاأنذا قدحنثت بقسمى الذى أقسمته جادا يوم نذرت نفسى لحياة الرهبنة ! »

فهمست دومينى فى لوعة : « أنت اذن ذلك الراهب الذى فر من دير اللرجانى بعد أن قضى فيه عشرين عاما ؟

ـ نعم ٠٠ أنا هو !

◆ **وهنـاك** فوق الرمال ، والكون غارق فى النعاس ، باح اندروفسكى لدومينى بالقصة الكاملة لحياته فى الدير ، وسعادته البريئة بين جدرانه ، والاحـداث التى أيقظت فى أعمـاقه ذلك الشوق المجنون الى أن يرى الدنيا ويبلو الحياة ٠٠ ويعرف حب المرأة !٠٠ وقص عليها كيف فر من الدير سرا تحت جنح الليل ، وتفصيلات رحلته عبر الصحراء بحثا عن الحرية الكاملة ، الضارية ! ٠٠ وروى لها كيف صارع عاطفته المتزايدة نحوها فى مبتدأها ٠٠ وكيف حاول أن يبتعد عنها ٠٠ وكيف تداعى عزمه فى اللحظة الاخيرة ، فى تلك الليلة المشهودة ، حين مضى الى حديقة الكونت ليودعها الوداع الاخير ٠٠ كيف غلبه حبه لها فصرعه وألقـاه ذليلا عند قدميها ٠٠!

ثم روى لها كيف عرفه الضابط « تريفنياك » فيما مضى فى الدير ، وكيف تعـرف عليه ليـلة أن حطم تلك الزجاجة من الخمر المعتقة ، التى صنعها بيده !٠٠ روى لها كل شىء ، ولم يخف عنها شيئا ٠٠ ثم ختم اعترافاته قائلا : « **٠٠فى ذلك اللقاء الذى تم بيننا فى الحديقة ، حسبت أننى قد قهرت عاطفتى وانتصرت على نفسى نهائيا ٠٠ لكنى فى تلك اللحظة بعينها سقطت سـقطتى الابدية !٠٠ عندما قرأت فى عينيك حبك لى ، الذى طالما أخفيتـه عنى قبل ذلك ، بددت النشوة كل قدرتى على مواصلة النضال !** ٠٠ والآن ، وقد عرفتنى ٠٠ وعشت معى ٠٠ ولمست تعاستى ٠٠ لاتحسبى يادومينى أنك المسئولة عنهـا ، وانما هو شـعورى بأكذوبتى عليك ، وأكذوبتى على الله ٠٠ شعورى هذا هو الذى ٠٠ هو الذى ٠٠ لاأستطيع أن أقول لك ٠٠ لاأستطيع أن أقول لك ٠٠ فأنت تعرفين كل شىء ٠!»

وحدق فى وجهها طويلا ، ثم استدار ليمضى عنهـا الى قلب الصحراء ٠٠ مغمغما : « سأذهب ! سأذهب ! »

عنـدئذ نطقت دومينى :
«بوريس ! »
وتوقف ٠٠ فاستطردت :
ـ بوريس ، الآن تستطيع أخيرا أن تصلى !
ومضت عنه الى داخـل الخيمة ، وتركته بمفرده ٠٠ وأدرك أنهـا تصـلى فى داخـل الخيمة من أجـله ، فوقف محـاولا أن يصغى الى صلاتها ٠٠ ثم مد يدا مرتجفة الى صـدره ، يتحسس فيه شيئا ٠٠ وخرجت يده تحمل صليبا خشبيا صغيرا ، أعطته اياه أمه يوم دخل الدير ! ٠٠ فأحنى رأسه ، ولمسه بشفتيه ، ثم خر جاثيا على ركبتيه فوق رمال الصحراء ٠٠

◆ منذ تلك الليلة أدركت دومينى أن واجبها قدبات واضحا أمامها : ان اندروفسكى مايزال فى قلبه وسريرته راهبا ٠٠ وهى امرأة متدينة حارة الايمان ٠٠ ومن ثم فقدجعلت الله فوق ذاتها ، وفوق حبها ، ذلك الحب الارضى اليائس التعس ! ٠٠ بل فوق اندروفسكى وحبه المضطرم لهـا ! ٠٠ قدمت اعتبارات آخرتها على اعتبارات دنياها ٠٠ فلم تبح لزوجهـا قط بنبـأ الجنين المزمع أن يأتى ليكمل حياتها !

وبعد أن باح اندروفسكى باعترافه لراهب كنيسة (بنى مورة) ، الذى عقد زواجهما ، قادته دومينى بنفسـها الى باب الدير الذى فر منه منذ أسابيع ، وعاد اليه الآن ٠٠ وهنـاك ، أمام الباب الرهيب الفاصـل بين الدنيـا والدين ، افترق العاشقان ، الزوجان ! ٠٠ افترقا الى الابد على هذه الارض كى يلتقيا ـ كما آمنا كلاهما ـ فى السماء !

❖

◆ والآن ، فى حديقة الكونت انطيونى – التى انتقلت الى أيد أخرى – كثيرا مايرى صبى صغير يلعب ٠٠ وأحيانا ، قبيل أن تهبط على الصحراء عتمة الغسق ، تناديه أمه الى داخل السور الابيض الذى تطل منه على الصحراء ٠٠ وتهمس له : « اصغ الى يابوريس ٠٠ » فيريح الصبى رأسه على صدرها ، ويطيعها ٠٠

وفى مسالك الصحراء البعيدة يمر بدوى متجها الى داره فى الواحة ، منشدا لنفسه مواله المحبوب : « مايعرف اللى فى قلبى ٠٠ غير الله ، وغيرى ! »

فتهمس الام لنفسها بهذه الكلمات .. وتهب نسمة باردة من نسمات الليل على الصحراء الفسيحة ، وتلمس خدها ، مذكرة اياها بأيام حريتها السعيدة ٠٠ وبالعاطفة التي اندلعت يوما فى كيانها ، كما تندلع النار فى الصحراء الموحشة !

لكنها لاتثور ، ولاتتمرد ٠٠ فانها دائما ، كلماجن الليل، ترى بخيالها رجلا يصلى ٠٠ رجلا فر يوما من منظر الصلاة فى الصحراء !٠٠

ترى « ضالا » عاد أخيرا ٠٠ الى بيته !

الكل باطل ٠٠ وقبض الريح !

◆ «٠٠ درت انا وقلبى لاعلم ولابحث ولاطلب حكمة وعقلا ٠٠ فوجدت امر من الموت المراة التى هى شباك ، وقلبها اشراك ، ويداها قيود ٠٠ الصالح قدام الله ينجو منها ، اما الخاطىء فيؤخذ بها !

« العين لاتشبع من النظر ، والاذن لاتمتلىء من السمع !٠٠ لم امنع قلبى من فرح ، ومهما اشتهته عيناى لم امسكه عنهما ٠٠ ثم التفت الى كل اعمالى٠٠ فاذا الكل باطل وقبض الريح ! »

« سليمان الحكيم »

محتويات الكتاب

الموضوع — **صفحة**

قبض الريح : قصة مصرية للمحرر ٩
رسائل الخالدين : صفحات من غرام لورد نلسون وليدى هاملتون ٢٠
مدرسة الفضائح : قصة تمثيلية كبرى ٢٥
دائرة معارف الزواج : حذار من التورط فى صلة جنسية مع خطيبك ٤٥
فن الصداقة : (كتاب علم النفس) اندريه موروا ٥١
غرام فى لشبونة : قصة للكاتب المعاصر « بيزيه » ٧٣
محاكمة مرجريت فهمى : من قصص المحاكمات الكبرى ٨٣
شخصيات تحتذى : الاخوان مايو ١٠٤
مدام كورى : من قصص شهيرات النساء ١٠٩
امكثى : قصيدة للشاعر الروسى الكبير «ترجنيف» ١٢٩
امرأة وملك : قصة مدام دى مانتنون ولويس الرابع عشر ١٣١
تعال معى الى اسبانيا : من قصص شعوب العالم وكيف تعيش ١٥٠
حديقة الله : من روائع القصص العالمى ١٥٩

كيف تحصل على العدد الاول ؟

اقرأ التفصيلات فى الصفحة الاخيرة من هذا العدد

مارينا برلى
نجمة م ج م في الفيلم الملون
الهائل كوفاديس
قريبا بدار سينما
مترو
بالقاهرة والاسكندرية
بيبسى كولا
PEPSI-COLA
كلّها لذيذة
الصورة من فيلم كوفاديس
و بيبسى كولا من مصر !
الشرق الأوسط
SPMO
معباة بالشركة الوطنية المصرية لتعبئة الزجاجات

العدد الاول ..

يرسل الى المشتركين فيه قريبا

◆ لم نكد نعلن فى العدد الماضى عن اعتزامنا اعادة طبع العدد الاول بكمية محدودة ، وعن فتح باب الاشتراك فيه لكل من يحرص على اقتنائه ، حتى انهالت علينا طلبات حضرات القراء الاعزاء الذين فاتتهم فرصة الحصول على نسخة من الطبعة الاولى فى حينها ، فسارعوا الى حجز نسخهم من الطبعة الجديدة بمجرد الاعلان عنها .. **وسوف يرسل الكتاب اليهم بالبريد «المسجل» يوم اتمام طبعه (حوالى منتصف الشهر الحالى باذن الله)**

وقد شكا الينا كثيرون من انهم لم يتنبهوا الى الاعلان المنشور فى العدد الماضى الا بعد فوات الموعد الذى حددناه لقبول الطلبات .. واجابة لطلب حضراتهم وسواهم من الذين لم تسنح لهم الفرصة لقراءة الاعلان رأينا طبع كمية اضافية لمواجهة مثل هذه الحالات .. على ان تكون احقية الطالبين الجدد فى الحصول على نسخة من هذه الكمية متوقفة على ترتيب وصول طلباتهم الينا قبل استنفاد عدد هذه النسخ الاضافية .. وثمن النسخة من هذه الكمية الاضافية خالص رسم البريد «المسجل» هو ١٢ قرشا ايضا .

كتابى

العاشر

باطل الأباطيل .. الكل باطل وقبض الريح !

« سليمان الحكيم »

« .. لا أذكر أين ولا كيف رأيتها أول مرة ، أو حتى عاشر مرة ، فقد كنت فى البداية أراها كثيرا ، إما صاعدة إلى مسكنها أو هابطة منه .. فكنت أحييها تأدبا واضطرارا ، ثم أمضى إلى شرفتى المطلة على الشارع ، لا يملأ رئتى بهواء نوفمبر الندى ، وأرقب الطريق الزاخر بالفتيات الجميلات وهن عائدات من المدارس بأرديتهن المتماثلة ، البيضاء أو الزرقاء ، وعلى وجوههن ملاحة الصبا ونضارة الشباب المضطرم الذى يلون وجناتهن .. وقد تناثر شعرهن على أكتافهن فى استرسال عذب ، نصفه من فضل عبث الهواء ، ونصفه من فعل عبثهن فى المدرسة !.. فكان يتولانى شعور غريب ، هو مزيج من الحيرة المبهمة والقلق الغامض ، وأنا أرقبهن من مكانى ، تائر النظرات ، حالم الشفتين .. بشئ لم أكن قد تبينته بالضبط ! »

(من قصة « قبض الريح » ، إحدى قصص هذا العدد)